رواية

الكابوس الأسود

عبدالله بو موزة

DAR PAGES

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

الكابوس الأسود

الروائي عبد الله بوصوزة

2026م – 1447هـ

٢٧١٠٧٤٠٩٥٣

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

© دار صفحات كتاب للنشر و التوزيع ، ١٤٤٧هـ

بوموزة ، عبدالله
الكابوس الأسود. / بوموزة ، عبدالله - ط١. - الاحساء ، ١٤٤٧هـ
..ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/١١٩٢٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤٧٥-٦٤-٥

دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع

للتواصل مع الدار:
رقم الجوال: 0556902621
الايميل: darpagesbook@gmail.com
الموقع الإلكتروني: darpagesbook.com
حسابات التواصل: dar_pages_book

الحقوق محفوظة: لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات و الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

انهض؛ فلم يحن موعد راحتك

انهض وقاتل؛ لأجل من أحببت

انهض يا (إبراهيم)، وقاتل؛ لأجل العدالة

انهض، وحل قضاياك بدهاء

وكن متيقنا أن الوقت لن يكون معك، وما حدث معك سيكون درسا لكل الناس

قصتك لم تبدأ.. عفوًا! إن صح التعبير: قصتنا لم تبدأ

سأكون خلفك أدون ما يحدث لك

وأواجه الخطر بنفسي

وأنت ستواجه خطر أفكارك

إهداء

إلى من جعلني المختار؛ لأروي هذه الحكاية..

إلى من سمح لي بالاقتراب..

إلى من فتح لي أبوابا لم أكن أعلم بوجودها..

إلى المحقق (إبراهيم) الدباغ..

ملاحظة:

جميع الأحداث والأسماء من نسج خيال الكاتب
وأي تشابه مع الواقع فهو محض صدفة.

1

أخبث المجرمين ليس من يطعن بسكين، بل من يبتسم .وهو يدفعك نحو الهاوية. هؤلاء لا تتلطخ أيديهم بالدماء؛ أيديهم نظيفة، وكلماتهم عطرة، ووجوههم لا تحمل سوى المودة... حتى اللحظة التي يسقط فيها فخّهم عليك، ويغلقون بابه بابتسامة هادئة. هؤلاء هم أخطر من يحمل الشر، لأنك حين تراهم لا تفكر أبدًا في الدفاع عن نفسك، بل تترك قلبك مكشوفًا، حتى يصبح الطعن فيه مجرد مسألة وقت.

تعالى رنين هاتفه النقال والزوجة تقدم القهوة

القسم الأول

ART_OF_BOOK

يا أيها القارئ، كن بخير.

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

(رئيس التحقيق الجنائي): لقد حاصرنا تلك العصابة متلبسين في إحدى المزارع.

أرسل (إبراهيم) نظرة تشي عن اعتذار مصوبة نحو (زوجته)؛ تلقتها بقبول حسن، ثم ختم المكالمة بقوله:

- إنني قادم حالا سيدي، أرسل الموقع.

أغلق الهاتف، ثم ارتشف آخر رشفة من القهوة، وودع (زوجته) وداعا يليق بكونه قد لا يعود إلى العشاء، وغادر.

ولكونه المحقق في القضية صار لزاما عليه التواجد والمشاركة بفاعليه في مهمته التي حقق فيها شهورا طويلة، أفضت إلى كشف العصابة، هرع إلى الواجب بقلب جلمودي مفعم بحب الوطن، والرغبة بتخليصه من البق الذي يعثو فيه فسادا، ركب سيارته، وتوجه إلى الموقع المحدد على جناح السرعة، كان لا يرى في تلك اللحظة غير المجرمين الذين يروم النيل منهم لتكلل جهوده بالنجاح.

وصل (إبراهيم)، كان رجال الشرطة ورجال التدخل السريع قد طوقوا المكان، سأل (إبراهيم):

- هل ما زالوا بالداخل؟

أجاب (العسكري المسؤول) عن العملية: أجل.

- مروهم بتسليم أنفسهم.

وفي داخل المزرعة تناهى إلى سمع المجرمين أصوات الجلبة قادمة من الخارج، أطل زعيمهم فهد بعينيه من خلال النافذة المفتوحة، ليجد جمهرة رجال الشرطة، الأمر الذي أصابه بالهلع؛ فأغلق النافذة بسرعـــة، وهتـــف في عصابتـــه بصـــوت عال وكأنه يتهمهم:

- كيف علموا بمكان تواجدنا؟!

رد أحد رجال العصابة المدعو صالح بنبرة متوترة: لا شك

@ART_OF_BOOK

وأنهم كانوا يراقبون تحركاتنا منذ مدة.

قال فهد: لا بد من وجود خائن، وإلا لما علموا عنا شيئا!

تبادل الرجال نظرات ممزوجة بالخوف والاتهام، وجاء صوت عمار يزيد الجو توترا:

- لم يكن من المفترض أن أتواجد هنا من الأساس لولا إصرار أمنا على وجودي، والنتيجة أنني سأفقد حياتي كلها في لمح البصر! لقد ضاع مستقبلي يا فهد!

وبخه فهد بقوله:

- إنك مجرد غبي ولن تفهم طبيعة عملنا يوما من الأيام، لا أعلم لماذا تصر أمي على وجودك بيننا أيها المعتوه! صر رجلا واترك الخوف، ألا ترى أنك مجرد شاب سخيف؟ انظر إلى بذلتك الحمراء السخيفة لتعلم ذلك.

بدى التوتر جليا على الجميع.

هتف فهد بالرجال بحزم: جهزوا أسلحتكم للمواجهة.

تجهزوا والقلق يحيط بهم، لكن عمارا كان يفكر بشيء آخر غير المواجهة وهي كيف ينفذ بجلده من هذا المأزق العظيم وهو يقسم في باطنه بألا يعود إلى تلك العصابة إن نجا من هذا الموقف.

في الخارج تعالى صوت مكبر الصوت: المكان محاصر، اخرجوا بهدوء، وسلموا أنفسكم دون مقاومة.

لحظة صمت دبت لم يستجب فيها أحد من المجرمين؛ فكرر الأمر بنبرة حاسمة: سلموا أنفسكم وإلا...

ما إن قال العسكري جملته حتى لمح (إبراهيم) النوافذ تفتح، وتبرز منها الأسلحة الرشاشة فصرخ محذرا:

- سيطلقون النارا

تعالى صوت إطلاق النار قبل أن يستعد العسكر من خلال

النوافذ المشرعة؛ فتبادل رجال الشرطة النار بالنار، وأصيب فردان من الشرطة.

سحب (إبراهيم) نفسه بحذر مقتربا من أحد المصابين الذي ما زال في مرمى إطلاق النار، تصرف بطريقة بطولية غير مبال بنفسه، وجل تفكيره منصب على إنقاذ الرجل، وصل إليه مسرعا وقام بحمله وإبعاده عن الخطر.

وهو في الطريق أحس بطلقة نارية مرت قريبا منه، ما إن التفت حتى وجد رأس المطلق بارزا من النافذة، فتصرف بطريقة سريعة، ووجه إليه مسدسه، وأطلق عدة أعيرة نارية، أصابته رصاصة في مقتل إذ استقرت الرصاصة في رأسه مباشرة! وهنا تمكن (إبراهيم) من إسناد المصاب على جذع شجرة بعيدا عن مرمى النار.

احتمى (إبراهيم) ومن معه وهم يطلقون النار، ويعيدون تذخير الأسلحة، حتى تحول المكان إلى ساحة معركة، وامتلأ بالدخان وأعقاب الطلقات، تسلل رجال التدخل السريع إلى داخل المزرعة محاولين حسم المعركة لصالحهم بسرعة وبأقل الأضرار، لكن المجرمين فتحوا الباب وخرجوا وكان عددهم خمسة يلوذون بالفرار، أطلق رجال الشرطة النار بكثافة؛ فأصابوا اثنين، وهرب الثلاثة المتبقون مسرعين، هرع (إبراهيم) للحاق بهم على قدميه لكنهم وصلوا سيارتهم وانطلقوا بها قبل أن يصل (إبراهيم)، أما رجال الشرطة فركبوا سياراتهم للحاق بهم، وطلب بعضهم الإسعاف للمصابين...

ألقى بعض العسكر القبض على المصابين من العصابة، وأخذوهما إلى المستشفى مع من أصيب من العسكر، كان (إبراهيم) ما زال راجلا إذ توقفت إحدى سيارات الشرطة التي تروم اللحاق بالمجرمين؛ توقفت قربه، فركبها والتحق بالمطاردة، وصف أحد العسكر في السيارة القريبة من الفارين المكان الذي يتجه إليه المجرمون لـ (إبراهيم) من خلال الجهاز اللاسلكي:

- دخل المجرمون في الطريق الزراعي الغربي.

رد (إبراهيم) من خلال جهازه اللاسلكي وهو في قمة الانشداد والتحفز:

- إذن هم متجهون للشارع العام.

(العسكري): أجل سيدي.

(إبراهيم): لا تدعهم يغيبون عن عينيك، هل ترى لوحة السيارة؟

(العسكري): لقد أخفوا أرقام السيارة.

(إبراهيم): إني قريب منكم، أكرر لا تدعهم يغيبون عن ناظريك.

ثم خاطب العسكري الذي يقود السيارة التي تقلهم: الحق بهم، ادخل إلى الطريق الزراعي كي نختصر المسافة.

كانت الملاحقة مستميتة، غمم على أوصاف سيارة المجرمين، وكانت سيارات الشرطة تلاحقها باستماتة، كان المجرمون يزيدون السرعة كلما أحسوا أنهم في مرمى رجال الشرطة، غير عابئين بسلامة الناس، وجل ما يهمهم ألا يلقى القبض عليهم.

كان (إبراهيم) قريبا من السيارة التي دخلت حارة صغيرة من حارات مدينة المبرز دون أن تكترث بالمشاة الخائفين!

تعالت الأصوات من مكبرات سيارات رجال الشرطة تأمرهم بالتوقف، بيد أنهم أصموا آذانهم، وحاولوا التواري عن الأنظار فتارة يدخلون شارعا ضيقا، وتارة يرتقون رصيفا والناس تهرب منهم طلبا للسلامة. كان الطريق مليئا بالناس والسيارات، لكن المجرمين لم يبالوا بأحد. حاول رجال الشرطة حماية الناس وتفريقهم وإبعادهم عن مكان المطاردة، وواصل المجرمون الهروب لا يوقفهم شيء، صدموا برميلا فطار مصطدما بالزجاج

الأمامي لإحدى سيارات رجال الشرطة فانحرفت مصطدمة بعامود الإنارة، بل لم يكتفوا بذلك إذ شرعوا بإطلاق النار على رجال الشرطة الذين قاموا بمجابهة الرصاص بالرصاص، بيد أن أحدا لم يصب منهم.

بعد عشر دقائق حصروا في زقاق ضيق لا تمر منه السيارة، توقفت سيارتهم وقد سدت سيارات رجال الشرطة الطريق من خلفهم، ترجلوا فكانوا ثلاثة رجال في عمر الشباب، كان الهلع يخيم عليهم، لم يضيعوا الوقت فأطلقوا سيقانهم للريح، لحق بهم رجال الشرطة ومن بينهم (إبراهيم) الذي كان يتمتع برشاقة عالية مكنته من مجاراتهم؛ فأطاح بأحدهم، واجتمع عليه رجال الشرطة فكبلوه.

التف البقية ملاحقين الشابين الآخرين، ألقوا القبض على الشاب الثاني بسهول الذي استسلم والخوف يخيم عليه وقد كان يرتدي بذلة حمرا ملفتة للنظر.

لكن الشاب الثالث كان يتمتع ببنية جسدية رياضية فأتعبهم، إذ تقدم رجلان من رجال الشرطة لتكبيله، لكنه تملص من القيد، وتمكن من إلقائهما، ومحاولة الفرار مجددا، حتى وصل (إبراهيم) فتعارك معه قليلا؛ إذ حاول الإمساك به، لكنه أفلت منه، فهجم عليه إبراهيم مجددا يحاول إصابته بلكمة قاضية، لكنه استوعبها بجسده القوي إذ وقعت في كتفه وبدوره وجه ركلة قوية من ركبته إلى بطن إبراهيم الذي تألم واستجمع نفسه من جديد، وتبادلا الركلات والقبضات حتى تمكن إبراهيم من تطويقه من الخلف إذ التحق به مجموعة من رجال الشرطة، تكاثروا عليه وتعب من المشادة معهم؛ وتمكن رجال الشرطة من الإمساك به بعد أن انتزعوا منه السلاح، وقيدوه بالأصفاد.

اقتادوهم إلى مركز الشرطة، و(إبراهيم) مفعم بالفرح لهذا الإنجاز فبعد كل هذه الشهور التي قضاها في تقصي أثرهم تمكن أخيرا من اقتيادهم للعدالة، وها هم قابعون في سجن

التوقيف بانتظار محاكمتهم.

***

كان اثنان منهم أشقاء من عائلة إجرامية تتاجر بالممنوعات، لا يهمهم من يتضرر إزاء الأموال التي سيجنونها؛ فذلك المهم وذلك بيت القصيد، كان (إبراهيم) فرحا بإلقاء القبض عليهم درجة التشفي؛ فهو يشعر أن جهوده لم تذهب سدى، قابلهم وأعرب عن سعادته، وعن أمنياته لهم بإنزال أقصى العقوبات عليهم، وفي نفس الليلة التي أودعوا التوقيف لم يعد (إبراهيم)، بل أصر أن يبقى حتى الصباح؛ حرصا منه على أن يتم تسليمهم بكل سلاسة دون أن يحاولوا الهروب، فهاتف زوجته، وأخبرها أنه لن يتمكن من تناول طعام العشاء معهما.

كان يتحدث مع بعض المساجين، الذين أكدوا له أنهم يشمون رائحة غاز.

- أيها المحقق ألا تشم تلك الرائحة؟!

سأل (إبراهيم): أي رائحة؟

- غاز.

تهكم (إبراهيم) بهم فأي غاز يمكن أن يكون هنا؟ قال ساخرا:

- أجل إنه غاز فعلا يبدو أن المطعم القريب سيقيم حفل شواء! أو ربما تلك الغازات صادرة من بطنك!

أشعل سيجارته، وتنفس أول نفس مشكلا حلقة من الدخان، جاء صوت أحد المجرمين:

- يا رئيس نكاد نختنق هنا، ثمة رائحة غاز قوية!

ضحك (إبراهيم) ساخرا وهو يحدثهم من بين النافذة ذات القضبان، قال ساخرا:

- حسنا سوف نرى إن كان ثمة غاز هنا.

قال ذلك ورمى عقب سيجارته إلى المساجين من خلال

القضبان الفولاذية غير مدرك أن تلك الفعلة ستطارده للأبد، ما هي إلا لحظات؛ وإذا بالنار تشتعل بطريقة انفجارية، قذفت بـ (إبراهيم) بعيدا، واحترق المكان!

قام (إبراهيم) سليما من الانفجار، كانت الصدمة جلية على وجهه، فلم يضع أي احتمال بأن يكون موضوع الغاز حقيقة! ظنهم يعبثون معه، أسرع في طلب رجال الإطفاء، ما هي إلا دقائق وإذا بالمكان يعج بهم، بالكاد تمكنوا من إطفاء الحريق، لكن ثمة ضحايا ومصابون بعضهم بحروق من الدرجة الأولى أو الثانية، وثمة جثتان كانتا متفحمتين بالكامل!

ART_OF_BOOK

مذكرات المحقق (إبراهيم)

لا يمكنني نسيان ما حدث! كانوا ينظرون إلي كمتهاون في الأرواح لكنني أعلم أن تلك الحادثة لم تكن عرضية؛ فهناك من دبر الحادث وفعل فعلته لأهداف مجهولة، رغم ذلك ما زال شعور بالندم يجتاحني، وربما شعور باحتقار الذات، فكيف لي - وأنا الذي أحسب نفسي محققا ذكيا بارعا في عمله- أن أقع في مثل تلك الغلطة المكلفة؟!

عقب سيجارة واحد كلفني كثيرا، وحولني من مطارد للمجرمين، إلى مشار إليه بإصبع الاتهام، إلى مجرم محتمل يبحث عن خلاص نفسه يتشوف طريقا للحرية، للخلاص، للعودة إلى سالف عهده كمحقق بارع يقام له ويقعد، ويحسب له ألف حساب، مشهد الحريق وصوت صراخ المساجين المحترقين انحفر في ذاكرتي عميقا، وخلف ندوبا لا تندمل.

كنت متألما لما حدث! وحينما أفكر فيما حدث أجدني مجرد محقق غبي! كيف لي أن أقدم على ذلك الأمر لمجرد المزاح؟! ألقي عقب السيجارة في المكان الذي كانوا يشمون فيه رائحة غازا قالوا إنهم يشمون رائحة غريبة، ولكنني لم أتحقق منها كنت مزكوما في ذلك اليوم لا أستطيع شم الروائح، ورغم ذلك أجدني أحمل نفسي مسؤولية ما حدث؛ لأن ضحايا الحريق لم يكونوا مجرمين وحسب بل بعضهم كان بريئا، وبعضهم زملاء مهنة!

خضعت لتحقيق مطول وأوكلت لي محاميا يدافع عني، طالت القضية حتى انتهت أخيرا بتبرئتي قانونيا، لكنني لم أبرئ نفسي من تبكيت الضمير واللوم المستمر، فإنني لم أكن لأتهاون بأرواح الناس خصوصا وأنني أبحث عن روح تائهة لا أعلم أين مكانها؟!

أجلس في شقتي وحيدا أدخن سيجارة تلو سيجارة بعدما خسرت كل شي لم يبق لي ما أقاتل من أجله سوى أمل صغير

@ART_OF_BOOK

أتشبث به تشبث الغريق بخيط رفيع أبحث عن النفس المنجي في خضم أطنان الماء الخانقة التي تغمرني من كل صوب وحدب، أتأمل نفسي وكيف تحولت من رجل يمتلك كل شيء إلى مجرد شبح رجل أفلت روحه عن هذه الحياة، بت كجسد بلا روح، كظل كيان قوي، كسراب مائي خابت، كثمرة مغرية لكنها منتهية بأكل لا يرحم!

إلام أعيش ولمن أحيا وقد رحلت حبيبتاي؟! ابنتي و... زوجتي! لم يبق إلا خالد الذي يمثل لي الأمل الأخير الذي لولاه لما تورعت عن الانتحار، لأضرمت النار في ذاتي كما أضرمتها في مركز الشرطة!

أعد لي كوبا من الشاي بالنعناع أشربه مع السجائر التي لا تنطفئ وكأنني أرغب في إحراق حياتي، أنتحر ببطء وبطريقة قانونية، أسكب كأسا آخر من الشاي، كل سيجارة يقابلها كأس مترع! أقلب قنوات التلفاز دون أن أعي حقا ما أقلب ولا ما يُبث فيها من أخبار!

أقلب ألبوم الصور العائلية وأستذكر اللحظات الجميلة التي تجمعنا... أقف عند صورة يسر أخرجها من ألبوم الصور، أحملها بنفس اليد الممسكة بالسيجارة بين الوسطى والسبابة، أقربها من فمي، ألثمها وأنا أجهش في البكاء، أبللها بدموع سجام، أضمها إلى صدري وكلي ألم، أعيدها وأمسح الدموع التي ملأت وجهي، أتمخط وأعدل صورتي الشعثاء، أحترق من الداخل وأحرق نفسي بالدخان.

الكابوس الأسود

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

2

العدالة ليست مخلوقًا سماويًا ينزل ليضع الحق في كفة والباطل في كفة أخرى. العدالة أحيانًا عمياء، وأحيانًا تُباع وتشترى، وأحيانًا تكتفي بمشاهدة الضحايا وهم يُدفنون بينما الجناة يرفعون الكؤوس. وأقسى ما فيها أنك حين تدرك هذا، لن تنظر للعالم بالطريقة نفسها، ولن تؤمن بسهولة بأي حكم، لأنك تعرف أن الحقيقة ليست دائمًا ما يُعلن عنها، بل ما يُدفنونه في صمت.

***

بعد ثلاث سنوات

يُسر... يُسر، لا ترحلي!

التفت (إبراهيم) إلى صوت (زوجته) المنتحب.: اتسعت عيناه من هول ما رأى.. تجلس بجسد مرتعد إلى ركن الغرفة.. وأظافرها الحادة ترسم خطوطا دامية على بشرتها الرقيقة..

ركض ملهوفا ناحيتها، وأمسك بكفيها؛ يمنعها من المزيد:

- حبيبتي.. ما الذي أصابك؟

أطرقت برأسها في يأس؛ فحركها برفق وهو يستجدي منها شرحا:

- تحدثي إلي.. أخبريني!

هنا رفعت عينيها إليه بحدة، وأطلقت صرخة عالية في وجهه؛ جعلته يتراجع بذعر! وفي لحظة خرج صوتها الذي ما عاد رقيقا.. بل كان يحمل الوعيد والعذاب، ورائحة الدماء:

- قلت لك بأنهم سيأخذونها.. أخبرتك؛ ولم تُحرك ساكنا!

وضعت رأسها بين كفيها في أنين ذبيح! خرج صوتها الخافت متحشرجا وهي تنادي:

- يُسر.. يُسر..

هوى قلبه مع كلماتها الأخيرة..

يُسر!!

لم يمهل نفسه لحظة أخرى؛ فهب من مكانه إلى غرفة صغيرته ذات السنوات الست..

فتح باب غرفتها، ووقف متسمرا أمام بابها..

رآها..

تجلس طفلته الجميلة بضفائرها الناعمة على بساطها المستدير؛ وترص أمامها عرائسها الغالية على قلبها المرهف.. تحتضن واحدة منها وهي تُمشط شعرها بتركيز كبير..

ابتسم لرؤية صغيرته الآمنة عيناها العسليتان تأسران جماع قلبه، وما هي إلا لحظة قدرية واحدة؛ وإذا بالجدار الوردي يدشق من خلفها، رنا إليه بدهشة، كانت أوصاله ترتجف من الرعب ليس على ذاته، ليس من انشقاق الجدار، بل خوفا على

فتاته الحبيبة والمدللة التي قلبت حياته من حال إلى حال؛ إذ صبغتها بلون السعادة ورائحة الورد، وشذا الأريج... كان الشق بالجدار يتسع، والرعب يزداد في قلبه كلما اتسع الشق، البلج الشق عن كفين سوداوين شائهين، كانت الجروح والقروح تملأهما، وكانتا مضمختين بدماء غريبة ليست حمراء وليست سوداء، إنما بلون يمزجهما بطريقة تبث في النفس الخوف الممتزج بالقرف، تمتدان إليها بأناة، يحاول استنقاذها منهما، بيد أنه يشعر بالتجمد في قدميه، أطرافه تتحرك وقدماه جامدتان... يصيح باسمها...

- يسرا!

بيد أنها تلتفت إليه بابتسامتها العذبة، وتلهج باسمه:

- بابا...

ما إن ينتشر في الأثير اسمه من شفتيها كنغم عذب حتى تُسحبت إلى ظلام مجهول من خلال ذلك الشق المخيف وتخرج نيران لافحة من ذلك الشق قبل أن ينغلق ملتهما ابنته، ثم عاد كل شيء إلى مكانه!

ضعق من اختفاء ابنته في لمح البصر! صرخ بأعلى صوته:

- يُسر.. لا.. لا.. لا ترحلي!! أين ذهبتي يا حبيبتي؟!

اختفت الأرض من تحت قدميه، وهوى في مكان سحيق؛ فانتفض من نومه، قلبه يخفق بجنون، وأنفاسه متقطعة كما لو أنه كان يركض في كابوس قاتم يأبى أن يتركه!

كانت الهواجس تأكل روحه من ذلك الحلم القاتم، أدار رأسه ببطء إلى الجانب الأيسر من سريره.. هذا الجانب الذي كانت تنام فيه زوجته كل ليلة، تنثر شعرها الأسود الفاحم على الوسادة الوثيرة، تُسبل عينيها اللوزيتين إليه في دلال، وتنتظر منه كلماته التي يملؤها -متعمدا- بالغزل.. تنفس بعمق وكأنه يعتبق رائحة شعرها الأذفر.

حبيبة عمره ومعشوقته التي تركها تبتعد عنه في خذلان، ودفن نفسه في أطنان من الخزي والندم..

ظلّ يحدق في الفراغ وكأنه يتشبث ببقايا حلم تحول إلى سراب منسرب. مرر يده على وجهه، وكأنه يحاول أن يمسح آثار الألم العالق في داخله. همس بصوت بالكاد يسمعه:

- أنا آسف... خذلتك!

ببطء، نهض من السرير متجهاً إلى دورة المياه. فتح مرش المياه الدافئة، وتركها تنهمر عليه، لكنها لم تكن دافئة كما ينبغي؛ كانت قاسية، كوابلٍ من الرصاص يعاقبه على ذنبٍ لم يغفره الزمن بعد! كان الماء يسيل على جسده، لكن أفكاره تائهة في مكانٍ آخر، في ماضٍ لم يستطع الهروب منه.

تناهى إلى مسامعه رنين الهاتف فجأة، اخترق رنينه الصمت المشحون حوله كما اخترق طبلة أذنه! أدار صنبور الماء بسرعة مغلقا إياه، وخرج من الحمام، ليلفحه تيار هواءٍ باردٍ التصق بجسده المبلل، فارتجف للحظة، تجاهل الأمر، وتوجّه نحو الهاتف النقال مسرعا. أمسك الهاتف بيدٍ مرتجفة، وأجابه دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى اسم المتصل:

- من المتصل؟

جاءه صوتٌ يعرفه جيدًا، صوتٌ لم يتغير رغم السنوات، لكنه حمل معه شيئًا من التوجّس هذه المرة:

- هل حذفت رقمي؟

أبعد الهاتف قليلًا عن أذنه، نظر إلى اسم المتصل للحظة، ثم أعاده إليها دون أن تتغير ملامحه الباردة:

- نعم، ماذا تريد يا (محمد)؟

كان يعلم أن اتصال المحقق (محمد) لن يكون بلا سبب، بيد أنه لم يكن في مزاجٍ يسمح له بتوقع الأخبار السيئة التي قد يحملها.

- أعلم أنك منذ حادثة اختفاء يسر وأنت لا تعمل في أي تحقيق آخر ولكن، هناك رجل عجوز جاء إلى مركز الشرطة اليوم وطلبك بالاسم؛ من أجل التحقيق في قضيته..

- أنت تعرف رأيي في هذا الأمر.. أخبرتك ألا تحضر لي قضايا لا تمت بصلة لقضية ابنتي! فلا تكرر ذلك..

شعر (محمد) بتوتر (إبراهيم) يتسربل إليه من خلال الهاتف؛ فحاول تهدئته:

- قلت لك سلفا "أعلم ذلك"... صدقني لم أكن لأتصل بك لولا أن الأمر مختلف هذه المرة.. لما يحمله الرجل من صلة وطيدة بقضيتك... صدقني.

ران صمتٌ ثقيلٌ للحظات، ثم...

توت توت توت...

لم يحتج (إبراهيم) المزيد من التوضيح؛ كي يغلق الهاتف دون أن ينبس بكلمة.. في دقيقة، كان قد وضع نفسه في ملابسه على عجل، متجاهلًا الماء الذي ما زال يتساقط من شعره السبط الطويل الذي يغطي صدغيه. لم يكن هناك وقت ليضيعه، لم يكن هناك وقت لأي شيء سوى الجري وراء الحقيقة...

كل تركيزه كان منصبا على إيجاد ابنته الوحيدة التي لطالما شغفته حبا وامتلكت قلبه، لم يتخيل الحياة يوما دونها، فهي الشمعة التي أضاءت حلكة لياليه، ومن دونها كان آيسا من الحياة! تذكر رنة ضحكتها المجلجلة وهي تلعب في دراجتها ثلاثية العجلات وتشاغبه أحيانًا بأن تتعمد الاصطدام به، فيفتعل الألم، فتضحك من قلبها ولما يبالغ في التمثيل تترجل من عجلتها، وتقترب منه تطمئن عليه، فلما لا يستجيب لها تضج باكية خوفا عليه وندما من فعلتها، فيضحك ويعانقها كاشفا لها أنه إنما كان يمازحها ويلعب معها.

خرج من شقته سريعا، فاصطدم ب(حسان).. جاره الطيب الذي يسكن معه في نفس البناية يحمل كيس مشتريات.. كان (حسان) خير معين له منذ أزمته الأخيرة.. لم يتركه (حسان) يوما، كان يسأل عنه ويطمئن عليه يوميا، واحتل مكانة الأب والصديق بالنسبة لـ (إبراهيم)..

يتذكر جيدا الوقت الذي انتقل (حسان) فيه إلى جواره كانت حياته بدأت في التداعي؛ فقد ابنته قبل أسابيع، وتهدمت حياته الزوجية، ونال منه الألم فوقع ضحية بين برثنه الحاد.

كان (حسان) ينقل أثاثه عن طريق عمال استأجرهم لتلك المهمة، وكان (إبراهيم) عائدا من الخارج؛ إذ وجد العجوز الطيب، فارتاح لملامحه، وتحادثا قليلا، لكنه وجد نفسه دون أن يشعر ينساق في الحديث مع (حسان) ليحكي له حكايته كاملة، ووجد من (حسان) خير ناصح متعاطف حنون، قدم له يد المساعدة والدعاء المتصل بأن يجمعه الله بابنته، ومن هنا صار (إبراهيم) لا يخلد للنوم حتى يتحدث مع (حسان)... كان يوقظه كل جمعة لأداء الصلاة في المسجد جماعة، لقد أعاد إليه (حسان) حسه الديني الذي بدأ يخفت مذ عصفت به تلك الأحداث المزلزلة بفقد يسر.

في ذلك اليوم سأله (حسان) عن ابنته كما يفعل كلما رآه:

- تمهل يا ولدي.. ما بالك متلهفا.. بشرني.. هل وجدتم يسر؟

التقط (إبراهيم) أنفاسه المتسارعة وقال بأسف:

- ليس بعد، ولكن أرجوك أن تكثف الدعاء لي يا عمي..

صمت قليلا ثم أضاف: ولها.

ربت (حسان) على كتف (إبراهيم) وقال بوجهه البشوش:

- أنا واثق بأنك ستجدها.. والآن اذهب، رافقتك السلامة.

اندفع (إبراهيم) متجها لسيارته، ركبها، وأدار المحرك بعصبية مفرطة، ليطلق العنان للسيارة التي انطلقت كرصاصة تخترق

الشوارع. لم يكترث للإشارات المرورية، ولم يهتم لأصوات الأبواق التي احتجت على قيادته المتهورة والرعناء. كان عليه أن يصل.. الآن وبأسرع وقت؛ فكل أمر يتعلق بيسر كان يفقده رشده، يحاول التشبث بأي أمل، بأي خيط يقوده إلى الحقيقة، إلى مكانها وما الذي حل بها..

أوقف سيارته أمام مركز الشرطة وأفكار شتى تراوده.

دلف (إبراهيم) إلى الداخل... دون أن يدرك أن هذه الليلة قد تكون بداية شيء لم يكن مستعدًا له أبدًا.

دخل (إبراهيم) مركز الشرطة، كان دبيب قدميه يجذب إليه رؤوس الجميع وعيونهم، الكل دون استثناء توقف عما يقوم به، ورفع عينيه عن أوراقه ليتطلع في دهشة لهذا الذي لم يره لثلاثة أشهر..

كم فقد كثيرا من الوزن؟ غير أن هيبته لم تنقص ذرة..

تباينت نظرات الضباط بين الفضول والتوجس، لكنه لم يلقِ لهم بالا! كان عقله منصبًا على شيء واحد.. الحقيقة..

كان يفكر إبراهيم بشيئين لا ثالث لهما يسر وكيف سيقابله رئيس القسم الذي ما فتئ يضايقه مذ وقع الحريق، لم يتوقع شيئا مختلفا، وهذا ما حدث استقبله رئيس القسم بوجه عابس وقول ساخط؛ إذ قال:

- أهلا بسيادة المحقق، أهلا بك أيها الهارب من الواجب.

كلام كبير جابهه إبراهيم بنبرة جاهد أن تبدو هادئة:

- أهلا بك سيدي، لم أتهرب، بل كنت في إجازة رسمية.

- أية إجازة تلك التي تستمر ثلاثة أشهر؟!

لم يحاول مجادلة رئيسه الذي واصل استفزازه بقوله:

- لا أعلم لِم لم تفصل حتى هذه اللحظة فلقد رفعت غيابك للجهة المعنية!

كز إبراهيم على أسنانه حنقا بيد أنه واصل التجاهل:

- بعد إذنك سيدي لدي عمل أقوم به.

دفعته خطواته السريعة دفعا لمكتب المحقق (محمد) ودخل دون إذن.. فلا وقت لديه للمجاملات..

وقف على الباب يقيم بنظرة شمولية ذلك الرجل العجوز الممتلئ.. لقد كسا الشيب شنبه وذقنه، يرتدي في إهمال ملابسه البسيطة المبللة بعرقه، ثوبا قشيبا، و"غترة" بيضاء متكسرة ملفوفة عليه بطريقة بسيطة، كانت ملامحه تشيء عن رجل صلب، وسمرته تدل على أن الشمس شوحته كثيرا، ويلف حول كفه اليمنى وشاحا أبيض متسخا..

وجهه شديد الشحوب غير أن عينيه بدتا بلون الدماء القانية من البكاء..

اصطدم بعينيه؛ فرأى فيهما ما لم يرحه على الاطلاق..

أومأ (إبراهيم) إلى (محمد) بتحية سريعة، ثم أشار إلى العجوز قائلاً بصرامة:

- أنا من تبحث عنه، تعال معي إلى مكتبي.

وقف العجوز بتثاقل تعرب وقفته عن فعل الزمن، وكأن رجليه بالكاد تحملانه كان ظهره محنيا قليلا للأمام، وتبع (إبراهيم) في صمتٍ مطبق ولكن بمشية ثقيلة، حتى وصلا المكتب. جلس (إبراهيم) خلف المكتب، وأشار للعجوز بالجلوس في المقعد الجلدي الفاخر المقابل لمكتبه، تقدم العجوز بثقل، واقتعد المقعد بأناة وصعوبة. ساد الصمت الثقيل، كان الصمت مشحونًا بتيار سالبٍ لم يشعر (إبراهيم) بالحب تجاه الرجل، وبطبيعة (إبراهيم) المتشككة كان يقدم الشك على اليقين، كأنهما في معركة خفية لا يراها راءٍ.

- أخبرني من أنت؟

جاء صوت (إبراهيم) جافا أمرا، رفع العجوز عينيه المنهكتين

ببطء عن الأرض، ثم أجاب بصوت مبحوح:

- أنا... (سامي).

لم يضع (إبراهيم) الوقت، نظر إليه بحدة، وسأله مباشرة ودون مداراة:

- أخبرني محمد أنك تحمل دليلًا يتعلق بابنتي. ما هو؟

تحرّكت يد العجوز ببطء داخل جيب ثوبه المتهالك، ثم أخرج ظرفًا بنيًا، وقبل أن يسلّمه، نظر في عيني (إبراهيم)، وكأنه يقرأ فيهما شيئًا لا يريد أن يراه. كانت نظرة (إبراهيم) تنذر بالخطر، نظرة رجلٍ مستعدّ لإراقة دماء العالم من أجل ابنته، وليس هذا الرجل العجوز بمعزل عن ذلك.

مدّ العجوز يده مسلما الظرف؛ فأمسكه (إبراهيم) بسرعة، وسأله بصوتٍ جادّ:

- من أين أتيت به؟

لم يُجب الرجل العجوز، ظلّ صامتًا، وكأنه يختبر صبره. فتح (إبراهيم) الظرف بيدٍ ثابتة، وأخرج منه ورقة مطوية، فردّها ليجد كلمتين بارزتين، مكتوبتين بخطٍ كبير كُتب بخط رديء:

"الكابوس الأسود".

في غير فهم نظر (إبراهيم) للعجوز، وعيناه اشتعلتا بنفاد الصبر وبالريبة:

- ما علاقة هذه الجملة بابنتي؟

لكنّ العجوز لم يُجب فورًا. انحنى برأسه فجأة، وبدأ يبكي بصوتٍ مرتجف وخافت، كأنّ صدره لم يعد يحتمل هذا العبء. استمر بكاؤه لدقائق لا يُسمع منه بكاء واضح غير أن صدره يعلو ويهبط، وأنفاسه بالكاد تُسمع، حتى بدا وكأنه فقد القدرة على التنفس. ثم، بصعوبة، رفع رأسه وقال بصوتٍ يائس:

- أعلم أنك ستحرق الأرض وما عليها من أجل ابنتك... لكن

هذه المرة، ابنتي هي التي تحتاج لمن يحرق الأرض من أجلها. أرجوك، أنقذها!

تصلّب وجه (إبراهيم)، وهبط إليه إحباط مفاجئ، كان يأمل أن يكون هذا خيط ولو ضعيف يوصله ليسر، لكنه تفاجأ من قضية جديدة غامضة تضاف إلى قضيته، وأنه يتوجب عليه تقسيم جهده بدلا من صبه على البحث عن ابنته، أراد الاعتذار فيسر هي الأولوية بالنسبة له، لكن شيئا ما حدثه أن قضية ابنة هذا العجوز قد تكون المفتاح لحل قضيته، كما أنه تعاطف كثيرا مع هذه الفتاة..

أخذ نفسا عميقا، وقرر ألا يتراجع، سيستمع للنهاية، حدسه يخبره بوضوح أن الأمر خطير..

- حسنا.. ما الذي حدث؟ أخبرني دون مقدمات!

تنهد العجوز وأغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما ببطء وقال:

- لقد... لقد تم اختطافها! ابنتي الحبيبة، اختطفها الكابوس الأسود..

كان (إبراهيم) بطبعه متشككا، وتعلم من سيرته المهنية أن يوجه إصبع الاتهام لأقرب المقربين للضحية حتى تثبت براءتهم! لم يكن (سامي) بمعزل عن ذلك، فقد فسر (إبراهيم) بكاءه بأنه مجرد تمثيل من ممثل بارع، سأله (إبراهيم):

- متى تم اختطافها؟

تلجلج الرجل قليلا، ثم قال:

- منذ عشرة أيام..

احس (إبراهيم) أن هذا الرجل إما غبي أو يتغابى؛ فكيف يصمت عن أمر كهذا مدة عشرة أيام، لم يتمالك غضبه؛ ضرب على الطاولة أمامه، وخرج صوته غاضبا:

- عشرة أيام!! ولماذا لم تبلغ الشرطة منذ البداية؟

خفض العجوز رأسه مجددًا، وقال بصوت خافت يكسوه الخجل وضعف الحجة:

- لم أعتقد أن الأمور ستصل إلى هذا الحد. ظننت أنها ربما ذهبت إلى أحد الأقارب أو الأصدقاء... بحثت عنها بنفسي، طرقت كل الأبواب، لكن لا أثر لها.

أخذ (إبراهيم) نفسًا عميقًا، ثم سأله:

- هل أنت جاد فيما تقول؟! عشرة أيام وتظنها ذهبت إلى أقاربها!

صمت (إبراهيم) قليلا يستقرئ وقع تقريعه للرجل، لكنه لم يجد جوابا فأضاف:

- هل كانت على علاقة بشخص ما؟ أي شخص؟

تغيرت ملامح العجوز فجأة، واشتعل الغضب في عينيه وهو يرد بانفعال:

- لا! لم يكن لديها أي علاقة!

لاحظ (إبراهيم) ارتباكه، كما لاحظ أنه يحاول إخفاء شيء ما في رسغه بكمه، لكن (إبراهيم) لمح شيئا غريبا في رسغه قبل أن يحكم إخفاءها! فابتسم ابتسامة باردة، وقال بهدوء:

- حسنًا... شكرًا لك، سيد (سامي). سأنقذها.. اعتمد علي.. تستطيع أن تذهب لبيتك الآن..

تفاجئ (سامي) برد (إبراهيم)، وكأنه كان يتوقع المزيد من الأسئلة والاستفسارات..

نهض متلفتا حول نفسه في حيرة ثم غادر دون كلمة..

ظل (إبراهيم) في مكانه، لم ينهض، فقط غرق في بحر أفكاره المظلمة. كان يأمل بأن لقاء هذا الرجل يقربه إلى الحقيقة.. ولكن للأسف كل لحظة تمر عليه تبعده أميالا عن صغيرته..

بعد مرور ربع ساعة، نهض أخيرًا، ثم توجه إلى مكتب المحقق

(محمد). طرق الباب هذه المرة، لكنه لم ينتظر الإذن، فتحه ودخل، ثم جلس على الأريكة بصمت. تبادلا نظرات ثقيلة، وكأن كل منهما يحاول قراءة أفكار الآخر.

وأخيرًا، قطع (محمد) الصمت، وسأل بنبرةٍ متوجسة: ماذا حدث مع (سامي)؟

تنهد (إبراهيم) بتفكير وقال: تصرفاته وحديثه ينمان عن ندمٍ وخوفٍ، وهذا ما يجعلني متأكدًا أن هناك شيئًا يخفيه. هل ترك عنوان منزله؟

- بالتأكيد..

قالها المحقق (محمد) وهو يخرج أوراق القضية والتي كُتب فيها جميع التفاصيل التي أتى بها الرجل ومن ضمنها عنوانه مفصلا..

قلب المحقق (إبراهيم) بصره في الأوراق وقال: سأذهب إليه الآن..

رفع المحقق (محمد) حاجبيه وهو يقول: الآن!! ألم يكن معنا منذ دقائق؟!

أومأ (إبراهيم) برأسه وقال:

- لقد أتى مستعدا لكل ما سيقول.. لم أستفد كثيرا من كلامه.. أريد أن أتحدث معه في منزله بطريقة مباغتة.. حيث لا يتوقعني.. وقبل هذا سأقوم بزيارات سريعة لبعض من جيرانه علني أحظى ببعض المعلومات منهم عنه..

رفع سبابته لـ (محمد) وهو يقول بحزم: أنت ستأتي معي..

قوس (محمد) حاجبيه ساخرًا، ثم قال وهو يتكئ على مكتبه:

- هل تعلم أن فترة مساعدتي لك قد انتهت رسميًا؟

ابتسم (إبراهيم) بسخرية، وقال بنبرةٍ واثقة: وهل انتهت صداقتنا بذلك أيضًا؟

تنهد (محمد) وهز رأسه في محاولة للتنصل:

- بالطبع لا، لكن لدي قضايا أخرى أعمل عليها، ولست متفرغًا لك كما كنت في السابق.

قاطعه (إبراهيم) بجملة واحدة أخرسته، وجعلته لا يقدر على الرفض:

- محمد، إنني بحاجة إليك.

(المحقق محمد) من الأشخاص الذين لا يجيدون إظهار مشاعرهم، وعلى أية حال هو لا يستطيع ترك صديقه وهو بمسيس الحاجة إليه كما هو الآن فما يجمع بينهما أكبر من أن يجيبه بالرفض!، ليس وهو حقا يحتاجه بهذا الشكل الملح..

نظر (محمد) إلى وجهه وقرأ الإجهاد في قسماته، لكنه نظر أيضا إلى تلك العزيمة التي لم تخفت رغم الألم، ثم قال بعد تفكيرٍ خاطف:

- حسنًا، لكن بشرط واحد... أن تكون معي أثناء التحقيق في إحدى القضايا التي لدي.

أومأ (إبراهيم) موافقًا دون تردد:

- حسنًا، إذن هيا بنا، ولكن يجب أن نحصل على إذن لتفتيش منزل (سامي) قبل ذلك.

توجها نحو مكتب الرئيس، وشرح محمد له المستجدات في القضية، ثم أعرب للرئيس عن رغبة إبراهيم في تولي القضية، بيد أن ملامح الرئيس تغضنت وامتقعت ألوانه وهو يقول بصلف:

- أبعد ثلاثة أشهر من التغيب تريد استلام قضية بهذه الحجم في أول يوم تقرر فيه العودة للعمل؟!

كز إبراهيم على أسنانه وباطنه ملتهب من السخط، لكنه هدأ من روعه وهو يقول:

- لقد كنت أمر بظروف صعبة يا حضرة الرئيس.

- ومن الضامن ألا تؤثر ظروفك الصعبة في إدارتك للقضية؟!

- إنني الآن بخير، ويمكنني تولي هذه القضية.

- كلا، لن تحصل على شيء قبل ثلاثة أشهر أضمن فيها استقرارك النفسي والمهني.

هنا تدخل محمد بنبرة هادئة كونه يعلم مقدار تأثيره على الرئيس:

- سيدي الرئيس، إنني أريد منه أن يتولى القضية فهو أنسب رجل لذلك، ولا يمكننا إنكار مهاراته فقط لأنه تغيب ثلاثة أشهر، إن في المسألة روحا بريئة على المحك.

ألقى الرئيس نظرة بدأت بالهدوء على محمد ثم تنهد وقال:

- إن كان ولا بد اجعله مساعدا لك، لكنك المسؤول الأول أمامي يا محمد عن قضية الفتاة نهاد.

- فاطمة.

- أجل أجل فاطمة، أنت المسؤول عن قضية فاطمة أمامي، أريد نتائج سريعة.

- إننا نبذل كل جهودنا سيدي.

التقت عينا الرئيس بإبراهيم الذي أومأ لرئيسه بإيماءة شكر رغم الخلاف.

ثم طلب (محمد) إذن التفتيش:

- نحتاج إذنا لتفتيش منزل الرجل العجوز، ربما نجد خيطا يدلنا على مكان الفتاة.

هز الرئيس رأسه موافق، شكر جهوده، وأمضى الإذن بالتفتيش.

جمع (محمد) كل ما يحتاجه، وخرجا متجهين إلى سيارة

إبراهيم، أدارها سريعًا، ثم انطلقا.

اخترق (إبراهيم) شوارع الأحساء في أجواء شديدة الحرارة متجها نحو منزل (سامي) مرا بمزارع شتى سعف نخيلها يتدلى خارج السياج، ورائحة "الطبينة" [1]

تملأ الأنوف بعبق زكي، وكلما اقتربا، ازدادت الأزقة ضيقًا، والمباني توالت بالتصاعد في عشوائية تعبر عن طابع الأحياء الشعبية، والأطفال متوزعون على الأحياء بعضهم يلعب "القب"[2] وبعضهم يلعب كرة القدم.

تأمل (محمد) المنازل المتراصة بطريقة عشوائية، وقال: لقد اقتربنا من المنزل.

فتح (إبراهيم) نافذة السيارة، واستنشق الهواء بعمق ما زالت رائحة الطبينة تصله أو لعله ما زال يتخيلها فتلك الرائحة تعلق في المخ بطريقة حسنة. كان هواء ساخنا، غير أنه لم يكن خانقا، بل أعاده إلى ذكرى عزيزة أراد أن يعلق فيها للأبد، عندما كانت طفلته تجلس بجواره في السيارة، تملأ رئتيها بالهواء، ثم تضحك بسعادة برينة وبراءة سعيدة، كأن الحياة لم تحمل لها سوى الفرح؛ ابتسم بمرارة لذلك الخاطر المحبب إليه، ثم تمتم وكأنه يخاطب نفسه:

- بعض الصدمات التي تعبر روحك ليست مجرّد ألم عابر، بل هي يد خفية تعيد ترتيب مقاعد الحاضرين في حياتك؛ ترفع من كان صادقًا وإن ابتعد، وتُنزل من كان قريبًا بجسده بعيدًا بروحه. إنها لحظة تُسقط الأقنعة، وتكشف الوجوه على حقيقتها، وتضع كلّ شخص في مكانه الذي يليق به، لا حيث أراد هو أن يكون، بل حيث فرضت الحقيقة أن يقف.

نظر إليه (محمد) بتمعن، كان يفهم ما يرمي إليه صديقه، فقال بصوتٍ خافت:

- أنت أكثر شخص يعلم، ترك زوجتك إياك لم يكن بسببك...

بل بسبب هذا العالم السيء.

تفكر (إبراهيم) قليلا متذكرا زوجته الجميلة، هز رأسه ببطء، لم يكن الأمر بتلك البساطة، وأجاب بمرارة:

- وهل سيصعب عليها رفع الهاتف والاتصال بي للسؤال عني؟! لو كان العالم السيء السبب فقط كما تزعم لما وجدت غضاضة من الاطمئنان على زوجها! ربما أنا من خذلتها... كما خذلت ابنتي.

لمح (محمد) تلك الدمعة التي انسابت على خد صديقه بصمت، أحس به يحقل نفسه ما لم يكن سببا فيه من مصائب فرثى لحاله ورق له لكنه لم يقل شيئا. لم يكن هناك ما يمكن قوله، لكنه لم يعتد أن يرى صديقه المعروف بصلابته بهذه الهيأة وكأنه وصل إلى أقصى مراحل الاحتمال؛ فانهار كأي شيء ينهار في هذا العالم، فظلّ يحدّق أمامه حتى توقفت السيارة ببطء.

- لقد وصلنا

ترجّلا من السيارة، ألقى بعض المارة السلام، وبعضهم دعا الرجلين إلى ضيافتهم، لكنهما شكراهم بود، أشار (محمد) لبيت (سامي) وهو يقول:

- هذا هو البيت، هيا بنا..

كان لـ (إبراهيم) رأي آخر، نظر بعين خبيرة إلى أكثر البيوت التصاقا ببيت (سامي)، وبدلا من التوجه حيث يشير (محمد) توجه للبيت الذي يجاوره وطرق بابه..

فتح لهما رجل هرم ضرير.. ظهره محني ويقف بتثاقل وهو يمسك بعصاه التي يستعين بها على الطريق، كان يظن أن الصبية هم من رن الجرس وهربوا فرفع عصاه ملوحا لهم بغضب وهو يشتمهم ويهددهم بالضرب حتى وقعت على صدر محمد الذي أمسكها وقد خاف من هجومية الرجل المسن

فخاطبه:

- ليس الأطفال من رن الجرس يا عم، نحن من رجال التحقيق.

قال مستنكرا: رجال التحقيق؟ ماذا تريدون؟

تبادل (إبراهيم) و (محمد) نظرات سريعة ذات معنى، ثم رد (محمد):

- نعم، نحن محققان من مركز شرطة الهفوف، هل لنا بالدخول؟

أشار لهما الرجل دون كلمة؛ فدخلا المجلس، وتربعا أمامه وهو يضع الفحم والتبغ في "نارجيلته" الصغيرة[3]؛ إذ يتحسس بيديه أدواته التي يعرف مواضعها التي وضعها فيها، ويحفظ تقاطعات منزله كما يحفظ اسمه، كان يستعد لتعبئة رئتيه بدخانها..

سأل (إبراهيم) عن اسم العجوز فقال باقتضاب: واصل... الحاج واصل.

دخل (إبراهيم) في صلب الموضوع؛ إذ سأل:

- ماذا تعرف عن جارك (سامي)؟

سكت الرجل قليلا ثم أجاب دون الالتفات إليهما بنبرة فيها ما فيها من فظاظة:

- هل وصلتم إلى ابنته؟

كانت عينا العجوز تتحركان بطريقة سريعة وحدقتاه نحو الأعلى مستقرتان ويرمش بجفنيه بسرعة، هنا تدخل (إبراهيم) بحدة أكبر:

- لا تجب سؤالا بسؤال..

لم تعجب نبرة إبراهيم محمدا الذي كان متعاطفا مع العجوز، فأشار إليه أن يخفف من وتيرة نبرته، لكن إبراهيم أشار إليه بألا

يتدخل.

حينما وجد واصل العجوز الحزم من (إبراهيم)؛ هز رأسه وقرر أن يجيب، لكنه لم يلتفت إليهما طوال الحوار بل كان يتشاغل بتعديل "نارجيلته" أو تغيير جمرها، أو تدخينها، أو احتساء الشاي الثقيل، قال:

- لم نجد منه شرا، إلا أنه قبل أسبوعين تقريبا جلسنا كلنا على صوت عويل وصراخ.. كانت ابنته تصيح وتصرخ وتستنجد بالجميع.. كنت أحب هذه الفتاة إلى أن ظهرت حقيقتها.. كانت لطيفة وطيبة الأخلاق.. لما قيل عنها ما قيل؛ أدركت أنها تمثل الخلق، وأنها مخادعة.. في هذا الحي لا يوج أكثر من الكلام الذي يقال في الهواء، ولكن لا يوجد دخان من دون نار..

تزامنت عبارته الأخيرة مع سحبه نفسا من النارجيلة قرقر لها الماء في زجاجتها، نفث دخانها الذي انتشر في الهواء انتشار النار في الهشيم. أضاف ووجهه يشي عن لذة لا مزيد عليها في التدخين:

- الناس تحب الكلام الذي لا طائل منه.. ويعيدونه بتلذذ.. نساء هذا الحي يعشقون المبالغة ونسج القصص من لا شيء.. ولكن هل يقدرون على تأليف القصص دون أن يكون لها نوع من الصحة؟ ومع ذلك هناك بعض الحكايات يجب أن ننتبه إليها بشكل دقيق، بعض الكلام قد يدلنا على الطريق..

انتهى الرجل من كلماته الملغومة، وعاد "لنارجيلته" التي لم يشغل بشيء سواها مذ دخلا عدا الشاي، يسحب منها أنفاسا ويطلق في الهواء دخانا كثيفا وهو في قمة التلذذ والنشوة، وإن أراد فعل شيء مغاير فإنه يرفع "استكانة" الشاي ويسكب محتوياتها في الصحن الصغير ويحتسيها من الصحن دفعة واحدة.. لحظ (محمد) أنه لم يضيفهما من هذا الشاي "المخدر" فقال ساخرا:

- يبدو أن هذا الإبريق بالكاد يكفيك أيها الرجل المسن!

أجاب العجوز دون أن يلتفت أو يحيد عن عمله في تدخين "النارجيلة":

صمت قليلا يخرج نفسا من الدخان ثم أجاب: لستما غريبين، اخدما نفسيكما.

لم يعلم (محمد) أكريم هو أم يقول ذلك كي يصرفهما عن "شايه" الأثير إلى نفسه؟

سأل (إبراهيم) عائدا لصلب الموضوع: وما هذا الكلام الذي يُقال؟

رد واصل سؤاله بسؤال:

- عن أي كلام تقصد، عن كل البنات أم عن ابنة (سامي) بالتحديد؟

زفر (محمد) في غير صبر، ورد بالنيابة عن (إبراهيم):

- ابنة (سامي) هي ما نريد أن نعرف عنها.. ماذا حدث لها ولماذا كانت تصرخ؟

كان (محمد) طوال الحوار ينظر للعجوز وهو يشرب الشاي المسكوب في الصحن ويعيد تعبئته، ويشعر برغبة عارمة في شرب الشاي؛ فسكب لنفسه "ستكانة" شاي، وحاول تقليد الحاج واصل، سكبها في الصحن الصغير، لكن جزءا من الشاي اندلق على الأرض وطال قدم واصل؛ فزجره المستضيف بقوله:

- هل أنت طفل؟! ألا تعرف كيف تشرب الشاي؟ تذعي شرب الشاي بالطريقة الصحيحة! صحيح الذي لا يعرف الصقر يشويه. أولاد اليوم لا يقدرون الشاي المصنوع على النار الهادئة! إنهم يضعونه في حافظة الشاي ويرجونها يمين ويسار، وكأنها قهوة وليست شايا! يا ولدي، قم اشرب قهوة سوداء مثل وجهك أفضل لك.

تضايق محمد من كلام العجوز الجارح وغير المراعي لضيفه فقال: هل ستذلني بهذا القدح أيها الرجل العجوز؟

أعاد واصل رأسه للوراء وكأنه يعيد لنفسه ذاكرة تلك الليلة، قال متجاهلا تعليق محمد الذي بدأ يشرب الشاي:

- آه.. نعم، كان والدها يضربها بقسوة، وهو يهلوس ويقول: كيف تفعلينها وتمرغين رؤوسنا في الوحل؟ كيف تسمحين له؟ كان يكرر كلماته بصوته العالي ولم يتوقف..

بعدها انتشرت إشاعة بين نساء الحي، تقول إن ابنته كانت على علاقة بشاب والعياذ بالله، وإنه انتزع شرفها، ورماها رمية الكلب...

صمت العجوز قليلا وأضاف: رفض الزواج منها! وما الذي يريده بفتاة سلمته نفسها قبل الزواج؟! التي تفعل ذلك قبل الزواج ستعيد الكرة بعد الزواج.

شعر (إبراهيم) بشيء أشبه بصعقة كهربائية تسري في جسده، لكن ملامحه لم تتغير. واصل العجوز الحجي واصل حديثه بنبرة مشوبة بالحذر:

- يقولون إن أم البنت حاولت إخفاء القصة عن زوجها، لكنها ما استطاعت. لا أحد يعرف الحقيقة كاملة، لكن هذا ما يدور بين الناس ومثلما قلنا لا يوجد دخان من غير نار...

تنفس واصل نفسا طويلا من نارجيلته التي ما فتئت تبربر بصوت مزعج، وكان محمد يتابع حركاته باهتمام لم يخفه إذ قال:

- يا حاج أنت تحفة، بصراحة طريقتك تجعلني أشتهي فعل ما تفعل، فالشاي لذيذ و...

قاطعه واصل بقوله: هل تريد التجربة؟

ومد له النرجيلة، فمد محمد يده يريد استلام القدو والابتسامة في وجهه عريضة، لكنه تنبه إلى نظرة جادة ألقاها إليه إبراهيم ردته إلى الجدية؛ فسحب يده معتذرا:

- كلا يا حاج أنا لا أدخن.

نهض (محمد) وتبعه (إبراهيم)، خرجا من بيت الرجل الذي لم يغير من جلسته، لم يقم لهما، لم يودعهما، لم يلتفت إليهما، وكل ما فعله أن أشار بيده إليهما معربا عما يشير إلى عدم اكتراثه، فقط همس بصوت خفيض:

- الباب يوسع جملا.

لكن محمدا سمعه وتجاهله.

قال (محمد) في الزقاق:

- هي جريمة شرف تقليدية إذا!

لم يفه (إبراهيم) بشيء، بل تفكر في كلمات الرجل صاحب الوجه المجعد، والظهر الذي أحنته خبرات السنوات الطوال والمدعو بواصل... ثم تطلع لبيت (سامي) وتوجه إليه مباشرة.. طرق الباب بعنف؛ ففتح (سامي) بعد ثوان..

تلجلج الأخير وقد اتسعت عيناه رهبة وذعرا من رؤيته للمحققين الذين كانا معه منذ ساعة أو أقل..

بادره (إبراهيم) بلهجة رسمية وحازمة: السلام عليكم... بعد بلاغك، أتينا لتفتيش منزلك.

سال العرق على جبين (سامي) وهو يبتلع ريقه بصعوبة، ثم قال بصوتٍ متردد:

- هل لديكما إذن بالتفتيش؟

قالها (سامي) بطريقة تدل على أنه واثق من أنهما لا يمتلكان إذنا بالتفتيش، لكن ملامحه تغيرت حينما شهر (إبراهيم) التصريح بوجهه، صدمه الموقف؛ فارتبك، وقال بتلعثم ولهوجة:

- لا... لا يمكنكما الدخول الآن! زوجتي بالداخل، والمنزل غير مرتب... انتظرا قليلاً.

كاد يغلق (سامي) الباب، غير أن (إبراهيم) منعه بحركة من

ذراعه، فالتفت إليه (سامي) في توتر، وقع نظر (إبراهيم) على كف الرجل، القماش الطبي الأبيض المتسخ الذي كان يلف به كفه ما عاد في مكانه، وكفه الآن باتت مكشوفة هي وما كان يخبئه القماش والذي لم يكن سوى آثار خدوش واضحة لإنسان فعلها بأظفار حادة، إنسان ربما قاوم هجوما عنيفا.. لم تكن آثارا حديثة ولكنها كانت واضحة أكثر من اللازم تلك الخدوش التي لاحظها (إبراهيم) حينما التقى بـ(سامي) في مكتبه وحاول سترها بكمه..

أخرج (سامي) صوته بصعوبة وهو يقول بتوتر وارتباك واضح:

- أتسمح لي بغلق الباب من أجل ترتيب البيت؟

ابتسم (إبراهيم) ابتسامة لا تكاد تُلاحظ، لكن عينيه بقيتا حادتين وهو يقول:

- حسنًا، سننتظرك هنا. لكن أرجو ألا تتأخر، فكل لحظة تمضي قد تكون مصيرية بالنسبة لابنتك... لا تعلم ما الذي قد يكون فعله بها هذا المجرم حتى الآن!

ارتجفت شفتا (سامي) قليلًا، ثم أغلق الباب بقوة، كأنه يحاول إغلاق شيء أكبر من مجرد مدخل منزله..

نظر (محمد) إلى الباب المغلق وقال بخفوت: ما به؟ لماذا هو متوتر هكذا؟

وضع (إبراهيم) يديه في جيبه، وعيناه ما تزالان مسلطتين على الباب:

- أخبرتك، هناك شيء غريب بشأنه... وظني لا يخطئ..

- لماذا سمحت له بأخذ فرصته لعله يهرب من مخرج آخر، أو لعله يغير شيئا في مسرح جريمة محتمل!

- لا تقلق إنني أعرف من هم على شاكلة سامي، سوف ندخل بعد قليل وثق بي سنجد بعض الأدلة.

ضحك (محمد) بسخرية، ثم رد: ومنذ متى خذلك حدسك؟ كل ما تتوقعه يحدث!

أدار (إبراهيم) وجهه ببطء نحو صديقه، عيناه تحملان ظلالا من حزن لا يتركه ولا يقوى على إخفائه:

- إلا في العثور على يسر... لقد قمت بحل أعقد القضايا والقبض على أعتى المجرمين.. وأنقذت العشرات.. إلا ابنتي.. لا أعتقد أنني سأجدها! والسبب ذلك المحقق الذي استلم قضيتها، إنه مجرد وغد مهمل ومتسيب.

قال ذلك وقد نذت دمعة من عينه حرص على إزالتها بطرف سبابته؛ فهو لا يحب أن يظهر بمظهر ضعف خصوصا أمام معارفه ومن يحبهم.

تغيرت ملامح (محمد)، فتنهد وقال بصوتٍ هادئ:

- لكنك لم تتوقف عن المحاولة. رحلة بحثك لم تنتهِ بعد، ستكملها، وستنجح في النهاية.. من أجلك ومن أجل ابنتك ومن أجل أن تُعيد أسرتك إلى مكانها.. وسوف أقف معك حتى النهاية. أعلم أنك تحقق فيها خلافا للنظام ولكن من يلومك؟

قبض (إبراهيم) على يديه بشدة وقال بصوت منخفض:

- مرت ثلاثة أشهر منذ اختطافها، عذّبت ذلك المجرم... حمد ووالده، ولم أحصل منهما على شيء. انظر إليهما الآن، يعيشان كملوك داخل السجن، الجميع يقدّرهما ويخاف منهما، ولا تنس أنهم عاقبوني على ما فعلته بهما من خلف النظام.

ربت (محمد) على كتفه وقال: لكنك تملك شيئا لا يملكانه، يا إبراهيم.

نظر إليه (إبراهيم) بتعب واضح، وكأنه سئم من سماع الكلمات الفارغة:

- وماذا أملك بعد أن فقدت أعز ما كنت أملكه؟

ابتسم (محمد)، ثم قال بهدوء:

- الحرية... أنت تملك الحرية.. الحرية التي ستجعلك تعيد ابنتك إلى أحضانك وتلملم شتات نفسك.. أما هما فحبيسان مقيدان وإن بديا كملكين.

في تلك اللحظة، فُتح الباب مجددًا، لكن هذه المرة لم يكن (سامي) من فتحه، بل كان شابًا صغيرًا، في الثانية عشر من عمره ممسكا بكرة قدم ومرتديا زيا رياضيا. حدق فيه (إبراهيم) وسأله بجدية:

- أين والدك؟

أجاب (الفتى) بتوتر: إنه في القبو... ينظف المكان.

لم ينتظر (إبراهيم)، بل أمسك بمعصم الفتى، ودفعه أمامه قائلاً:

- دلّني عليه.

قادهما الفتى عبر ممر ضيق غلّق فيه قفص يضم بلبلا "حساويا" ذا ريش أسود وأبيض بدا جميلا، فقال (محمد):

- هل هذا العصفور للبيع؟!

لكن (إبراهيم) صوب ناحيته نظرة حارقة وكأنه يخبره بها أن الوقت ليس ملائما لممارسة هواياته السخيفة؛ فصمت (محمد) وتابعا المشي، لكن الولد قال بنبرة متحشرجة بالحزن:

- هذا البلبل يخص شقيقتي.

قادهما إلى باب خشبي قديم، فتحه، وكشف عن درج يقود إلى قبو مظلم. تقدم (إبراهيم) و(محمد) بحذر، وفي بداية نزولهم لفحت أنوفهم رائحة قوية لمنظفات ومطهرات، وعندما دخلا، كان (سامي) جاثيا على ركبتيه، يمسح الأرض بسرعة في محاولة غير مجدية لإخفاء أمر ما، وما إن سمع وقع أقدامهم، حتى توقفت يداه فجأة، ثم فقد توازنه، وسقط أرضًا، وجهه

شاحب، عيناه تحملان رعبا واضحا.

ارتجف صوته وهو ينظر إلى ابنه بغضب واضح:

- هل... هل وشيت بي؟

لم يكن المشهد يحتاج تأويلا أكثر مما يظهره، فقد شاهداه يحاول إخفاء أثر شيء ما ولم يظنا إلا أن يكون دما، وسمعاه يخاطب ولده بتلك الجملة وتلك النبرة الخائفة جملة هل وشيت بي، حينها نظر إليه (إبراهيم) بحدة، ثم قال بصوت قاس:

- الآن كل شيء بات واضحا، أنت تحاول إخفاء دم ما، ولا أظنه إلا دم ابنتك، أخبرني ماذا فعلت بابنتك؟!"

قالها وهو يشعر في دواخله بطاقة غريبة في هذا المكان المظلم، طاقة باردة، مشوبة بالخوف... لأول مرة في حياته، وقف وكأنه يسمع بين جدران هذا القبو أنينا متألما لفتاة قد ذبحها والدها من أجل ذنب لوثها للأبد.. لم تجد من يدافع عنها أو يفديها وتركت بين فكي العذاب وحيدة، ضائعة، منقطعة الأنفاس..

مسح (المحقق إبراهيم) على وجهه، وأراد بشدة الخروج سريعا من هذا الجحيم القاتم، أحس بأن أنفاسه تضيق، فقال بحزم وهو يشير للرجل المرتعد بالنهوض والتقدم أمامه، وأمر محمدا بتقييده، لكنه قال في محاولة يائسة للنجاة:

- هذا غير صحيح أنا لم أفعل بابنتي شيئا ولا يوجد أي دماء هنا... انظر بنفسك.

أجاب إبراهيم: هذا ما سأفعله.

فحص المكان في دقيقة ثم عاد للرجل المكبل وخاطبه:

- معك حق لا يوجد شيء من الدماء هنا.

ارتاح سامي وقال: إذن فك قيدي.

فرد إبراهيم: لم تدعني أكمل كلامي، نحن لا نرى أي دم، ولكن هل تظن أن الأجهزة الإشعاعية لن ترى أي شيء مثلنا؟

- ماذا تقصد؟

- لدينا أجهزة تعمل بالأشعة تستطيع إظهار آثار الدماء حتى لو تم غسلها...

حينها تغيرت ملامح سامي وواصل إبراهيم حديثه لكنه موجها إياه لمحمد هذه المرة:

- اطلب من فريق البحث الجنائي البحث بتلك الأجهزة.

بعد نصف ساعة وصل فريق البحث الجنائي الذي قلب المنزل رأسا على عقب وأول ما فعلوه استخدام الأجهزة الكاشفة للدماء؛ فصدموا مما اكتشفوا إذ وجدوا آثارا لدماء كثيرة تدل على وقوع جريمة هنا، ولما واجهوا سامي بالأمر بدا الانهيار عليه، ثم طلبوا منه تفتيش سيارته.

- تعال معي، وأرني سيارتك..

خرج (سامي) مترنحا وهو يدلهم على سيارته التي ركنها أمام بيته.

امتثل لأمر (إبراهيم) الحازم: افتح شنطة السيارة.

فتح شنطة السيارة الخلفية بيدين مرتعشتين، وقلب واجف.

وقف (إبراهيم) و(محمد) ورجال البحث الجنائي أمام شنطة السيارة النظيفة للغاية، والتي تفوح منها نفس رائحة المنظفات والمطهرات التي استنشقاها في القبو غير أن هذه الرائحة لم تكن شديدة القوة..

خاطبه محمد بنبرة حازمة: برح الخفاء يا سامي أنت قتلتها أليس كذلك؟

- أنا طردتها فقط من المنزل، لم أفعل شيئا، لم أرتكب أي جريمة..

فرد عليه (محمد) بنبرة مشوبة بألم:

- إذن ما الذي قتلته في القبو؟ خروف؟ على كل حال نتائج الفحص المخبري ستظهر قريبا، وسنعرف إن كانت تلك الدماء تعود لحيوان أم لإنسان، وسنعرف هوية هذا الإنسان أيضا.

قالها وهو يبتسم لأنه كشف سامي وقد وصل المحقق محمد إلى شبه يقين بأنه ارتكب جريمة في حق ابنته ولا ينقصه إلا الدليل النهائي.

كان (سامي) في حالة ذهول وخوف قاتل..

حدق (إبراهيم) في الرجل الذي انكمش على نفسه كجرذ في مصيدة لا مفر منها، ثم قال بحزم:

- أنت قيد الاعتقال حتى نجد ابنتك.. وأرجو أن نجدها قطعة واحدة، كل ما ستقوله سيكون بمثابة دليل ضدك، لك الحق بتوكيل محامٍ، وإن لم تجد فالدولة ستضع لك محاميا على نفقتها.

كان ابنه الصغير يقف في ألم، ينظر إليهما بحزنٍ واضح، عيناه تحملان ألف سؤال لم يستطع نطقها.

دفعه (إبراهيم) إلى داخل السيارة، وأغلق الباب بقوة، كان الولد ينظر بنوع من الخوف، أرسل (إبراهيم) نظرة عابرة إلى باب منزل (سامي)؛ فوجد سوادة ملفتة للنظر فأعاد بصره إليها يستجلي حقيقتها، فوجدها امرأة واقفة وهي متلفعة بنقابها خفن أن تكون زوجة (سامي) وأم الفتاة المقتولة، فنظر إليها بأسى وقرأ أمارات الحزن في عينيها، لكنه واصل عمله، ألقى على الولد نظرة صارمة وخاطبه:

- اسمع أيها الولد قد نحتاج إلى شهادتك وشهادة أمك فكن مستعدا حينما نرسل لكما سيارة الشرطة كي تحضركما للتحقيق.

قال ذلك ثم ركب بجوار (محمد)، الذي سأل بهدوء وهو يدير

المحرك:

- إلى مركز الشرطة؟

أومأ (إبراهيم) ببطء، وهو يحدق في الشوارع الممتدة أمامه، وكأنه يرى في كل منعطف خيطا جديدا يأمل من كل قلبه أن يقوده إلى حيث يهفو ويشتاق:

- نعم... لنكمل التحقيق..

مشت السيارة مسافة عشرين دقيقة قضوها في صمت مطبق، وكان الجو مشحونا بالتوتر رغم الصمت الذي نشر ظلاله، تبادل (محمد) و(إبراهيم) نظرات تعرب عن أسف لمصير ابنة (سامي) المجهول، وما قد تكون تعرضت له من أبيها، أما (سامي) فحدق من خلال النافذة في الأبنية والبشر وهو من السهوم في منتهى!

3

الخوف ليس صرخة مفاجئة أو قلبا يرتجف. الخوف الحقيقي هو ذلك الصمت الذي يسكنك قبل أن تنام، حين تبدأ أفكارك في الهمس لك عن كل ما قد يحدث، وكل ما قد تفقده. إنه ظلّ ثقيل يلاحقك حتى في الأماكن المضيئة، ويذكّرك أنك مهما كنت آمنًا، فهناك شيء يتربص بك في زاوية لم تلتفت إليها بعد.

أخذا (سامي) إلى الحجز، وأرسل (إبراهيم) في طلب الأم وابنها، فأحضرا على جناح السرعة... أراد (إبراهيم) التحقيق مع الأم أولا، جعلها في غرفة التحقيق تنتظره وهو يراقبها من الزجاج العاكس الذي يمنعها من رؤية ما خلف الزجاج، بدت خائفة قلقة تتلفت بوجهها في كل اتجاه، كانت قدمها تتحرك ضاربة الأرض بتوتر، حمل (إبراهيم) قنينة ماء ودخل غرفة التحقيق ومعه المقرر... وضع القنينة قرب المرأة وقرب الكرسي، وجلس عليه، ثم قال:

- اسمعيني جيدا يا خالة... أي معلومة ستدلين بها ستكون

مفيدة... وأي معلومة تخفيها ستضر القضية

لم تقل شيئا فقال (إبراهيم): اسمك؟

قالت بتوتر: نادية

قال (إبراهيم): ما صلة قرابتك بالفتاة المفقودة؟

قالت نادية: أنا أمها.

(المحقق إبراهيم): متى كانت آخر مرة رأيت فيها ابنتك؟

(نادية): قبل عشرة أيام.

أجابت والدموع مترقرقة في عينيها الباديتين من وراء النقاب.

(المحقق إبراهيم): أين كان آخر لقاء بينكما؟ وماذا كانت تفعل؟

(نادية): في المنزل...

كانت تقتضب الإجابات، وكان (إبراهيم) يحاول استخراج المعلومات منها عنوة.

(المحقق إبراهيم): هل بدت طبيعية؟ أم لاحظت شيئا غير معتاد؟

(نادية): لاحظت الخوف والتوتر عليها بعد أن اكتشف أبوها أنها...

صمتت قليلا ثم أضافت بصوت خافت: أنها حامل.

(المحقق إبراهيم): هل قالت شيئا لافتا في ذلك اليوم؟

(ناديه) لا

(المحقق إبراهيم): هل تعرضت للضرب من أي احد؟

لم تجب فأضاف (إبراهيم): من أبيها مثلا؟

بحركه سريعه سحبت ناديه طرف كم عباءتها تغطي به شيئا

لا تريد كشفه، لاحظ (إبراهيم) ذلك فحمن أن تكون قد تعرضت للضرب أو التعنيف بدورها أيضا، قالت بنبرة تبدو غير صادقة:

- كلا.

كان (إبراهيم) متشككا بطبيعته لم يصدق كلامها، كانت عيناه مصوبتين إليها والشرر يقتدح منهما وكأنه اكتشف كذبها، فسألها بنظرات موزعة بين عينيها ورسغها الذي خبأته:

- هل تعرضت للضرب بدورك؟

كانت ردة فعلها نافرة وهي تجيب بتوتر: أبدا.

عاد (إبراهيم) لصلب الموضوع: كيف كانت حالتها النفسية في الفترة الأخيرة؟

(نادية): متوترة بسبب الحمل الذي طرأ على حياتها.

(المحقق إبراهيم): هل كانت تمر بضغوط معينة؟

(نادية): كانت تقضي الوقت في غرفتها ولا تخرج إلا نادرا، كما أنها لم تعد تذهب للمدرسة.

(المحقق إبراهيم): هل منعها أحد من الذهاب إلى المدرسة أم كان ذلك بإرادتها؟

نادية: أجل... أنا فعلت ذلك خوفا من أن يكتشف حملها.

(المحقق إبراهيم): هل سبق أن تغيبت عن المنزل من قبل؟

نادية: كانت تذهب إلى منزل صديقتها.

(المحقق إبراهيم): هل كانت تخرج كثيرا؟ وفي أي الأوقات؟

(نادية): تخرج في نهاية الأسبوع

أنهى (إبراهيم) التحقيق معها بعد أن أخبرها أنه سيطلبها إن استدعى الأمر

***

في غرفة التحقيق الأخرى جلس (محمد) مع ابن (سامي) وشرع يحقق معه. كان يبدو ولدا عرا لم يخبر الحياة. سأله (محمد) عن اسمه فأجاب

- عايش

(المحقق محمد): كم عمرك؟ وفي أي صف دراسي أنت الان؟

(عايش): اثنتا عشرة سنة، الصف السادس.

(المحقق محمد): منذ متى لاحظت تغيرًا يظهر على أختك؟

(عايش): منذ ما يقرب الشهر.

(المحقق محمد): ما أول شيء لفت انتباهك في سلوكها؟

(عايش): بدأت ترتدي ملابس مختلفة جعلتها تبدو أكبر سنا.

(محمد): أتعني ملابس واسعة؟

(عايش): أجل.

(محمد): وماذا أيضا؟

(عايش) لم تعد تتقبل مزاحي معها كالسابق، بدت عصبية أكثر مما ينبغي.

(المحقق محمد): هل كانت تخرج كثيرًا؟

(عايش): نعم... في إجازة نهاية الأسبوع.

(المحقق محمد): هل كنت تعلم إلى أين تذهب؟

(عايش): الى منزل صديقها

(محمد): هل كان منزل صديقها قريبا أم بعيد؟

عايش بعيد

(محمد) من الذي كان يوصلها؟

عايش أحيانا أبي، وأحيانا تستخدم تطبيقات التوصيل

(محمد): هل لاحظت شيئا غريبا في ذهابها وإيابها؟

سكت عايش يفكر قليلا ثم أجاب: أجل... عندما أعود إلى المنزل وأتصادف معها عائدة أرى ذلك الرجل من تطبيق التوصيل الذي طلبته... إنه نفسه في كل مرة.

لفت قول عايش نظر المحقق (محمد) فهو يعلم أن تلك التطبيقات تكون بطريقة عشوائية، ومن المستحيل أن يتكرر السائق في كل مرة!

شكره على المعلومات القيمة ثم سأله: هل تود أن أقدم لك عصيرا تشربه؟

. لم يمانع عايش، فخرج (محمد) وجواب السؤال الأخير ما زال عالقا في عقله، عاد وقدم العصير لعايش، أمهله دقيقة يرتشف فيها من العصير، ثم واصل تحقيقه معه.

(المحقق محمد): هل تعود شقيقتك في نفس اليوم؟ أم كانت تغيب طويلًا؟

(عايش): أحيانا تعود سريعا، وأحيانا أخرى تتأخر، وأحيانا تنام هناك عند صديقتها.

(المحقق محمد): هل كان خروجها بإذن من والديك؟

(عايش): في إجازة نهاية الأسبوع لا يكون أبي في المنزل عادة؛ لذا كانت تستأذن من أمي وحسب.

(المحقق محمد): أين يكون والدك في عطلة نهاية الأسبوع عادة؟

(عايش): يذهب إلى المزرعة وينام هناك.

(المحقق محمد): هل دخل أحد البيت في غياب والديك؟

(عايش): كلا.

(المحقق محمد): هل تحدثت معك يومًا بشأن ما تمر به؟

(عايش): كلا.

(المحقق محمد): هل لاحظت تغيرا في حالتها الصحية؟ مزاجها؟ نومها؟

(عايش): كما قلت لك أصبحت بمزاج سيء، لم تعد تلاطفني كالسابق أو تلعب معي، كما أنها كانت تتقيأ كثيرا.

(المحقق محمد): هل كانت تتشاجر مع والدك؟

بدا التوتر على وجه عايش وهو يجيب.

(عايش): قبل يوم اختفائها تشاجر أبي مع أمي؛ فضربها، ثم توجه إلى غرفة أختي، وقام بضربها أيضا دون أن أعرف السبب!

(المحقق محمد): هل سمعت شيئا بين والدك وشقيقتك في الأيام الأخيرة؟

(عايش): كان يوبخها ويقول لها لقد جلبت لنا العار، ثم جرها إلى القبو وحبسها هناك.

(المحقق محمد): هل تعلم ما الذي حدث في القبو؟

(عايش): كلا.

(المحقق محمد): هل تعرف مكانها الآن؟

(عايش): كل الذي أعرفه أنها كانت في القبو، وفي اليوم التالي اختفت! ولا أعرف إلى أين ذهبت.

(محمد): هل سألت عنها أباك أو أمك؟

عايش: أجل، لكن والدتي لم تجب.

صمت فاستحثه (محمد) بقوله: وماذا عن أبيك؟

نظر إلى المحقق والعصير في يده ثم قال:

- أخبرني أنها هربت... صرخ في وجهي بعدها، وطلب مني أن أغرب عن وجهه.

(المحقق محمد): هل تظن أن والدك يعرف أين هي؟

(عايش): لا أدري.

هنا دخل (إبراهيم) وطلب المحقق (محمدا) فخاطب الأخير المقرر: حسنا، لقد انتهينا أعده إلى والدته.

انفرد المحققان (إبراهيم) و(محمد) في المكتب يقرأن التحقيقات ويدققان في المحاضر التي دونت.

***

بعد ساعة طلب (إبراهيم) إحضار (سامي) إلى غرفة التحقيق، جلس (سامي) بصمت، سحب (إبراهيم) كرسيا، وجعله أمام (سامي)، ثم جلس وهو يحتسي قهوته، عينا (سامي) مسلّطتان عليه كالصقر الذي يوشك على الانقضاض. كان الجو مشحونًا كما في السيارة وأكثر، والصمت بينهما أثقل من أي كلمات يمكن أن تقال. ود (إبراهيم) لو يحطم وجه الرجل العجوز الماثل أمامه، كسر (إبراهيم) حاجز الصمت بنبرة مثقدة بالغضب الذي حاول احتواءه:

(إبراهيم): ما اسمك؟

أجاب بنبرة باردة: (سامي).

(المحقق إبراهيم): ما اسم ابنتك؟ وكم عمرها؟

(سامي): فاطمة، ثمانية عشر عاما.

(المحقق إبراهيم): متى كانت آخر مرة رأيتها داخل المنزل؟ حدد اليوم والساعة التقريبية.

((سامي)): قبل عشرة أيام ليلا، وفي اليوم التالي اختفت.

المحقق إبراهيم: اختفت أم قتلتها؟!

تغيرت ملامحه وهو يجيب: لم أفعل.

المحقق إبراهيم: سوف تعترف حينما تظهر نتائج فحص الدم

المنتشر في قبو منزلك، والآن أخبرني هل قمت بضربها قبل أن تختفي.

بدا التوتر على (سامي) وهو يجيب: كلا لم أفعل.

(المحقق إبراهيم): صف سلوكها في الأسبوعين السابقين لاختفائها: نومها، خروجها، حديثها مع الأسرة.

(سامي): كانت تجلس في غرفتها لأوقات طويلة؛ فظننتها تمر بما تمر به النساء في مثل عمرها.

(إبراهيم): متى آخر مرة استأذنت منك للذهاب إلى منزل صديقتها؟

كان مترددا وهو يجيب: قبل شهر... كانت تستأذن من أمها في الغالب.

(المحقق إبراهيم): هل كانت تستخدم هاتفًا محمولًا بشكل لافت؟ مكالمات طويلة، رسائل متكررة؟

(سامي): كنت أجبرها أحيانا على الجلوس معنا في غرفة المعيشة فكانت حينها تعبث بالجوال طوال الوقت. أحيانا كنت أسمع بكاءها عندما أمر بجانب غرفتها، وعندما أفتح الباب وأسألها عما بها تقول: لا شيء، أتحدث مع صديقتي.

(إبراهيم): ألم تشك بأنها كانت تتحدث مع شاب؟

(سامي): كلا، لقد وضعت كل ثقتي بها.

(المحقق إبراهيم): هل تقدم أحد لخطبتها رسميًا في الأشهر الأخيرة؟

(سامي): نعم، تقدم لها شاب يدعى عمر الشروان، وبعد سؤالنا عنه تم رفضه؛ كان الكل يذمه ويذم عائلته.

هنا أمسك المحقق (إبراهيم) بدفتره وقلمه، وسأل (ساميا):

- هل يمكنك إعطائي موقع منزل عمر الشروان هذا؟

أخبره (سامي) عن الموقع؛ فدونه المحقق (إبراهيم)، ثم قص الورقة، ونهض من كرسيه، وقال لـ (سامي):

- لنوقف التحقيق الآن، سأعود لك مرة أخرى.

خرج من غرفة التحقيـق، والتقى بـ المحقـق (محمد)، وأعطاه الورقة التي فيها معلومات عمر الشروان:

- أحضره للتحقيق، وتولَّ التحقيق معه.

خرج (محمد) ومعه تلك الورقة، وتوجه إلى منزل عمر، وفي ذلك الوقت، ذهب (إبراهيم) لمكتبه وجلس ليرتاح ويفكر، وطلب من أحد رجال الأمن أن يزودوه ببعض الأغراض التي ستساعده في التحقيق. بعد ساعة دخل (محمد)، ومعه عمر، كانت يداه مكبلتين، قال (محمد):

- لقد حاول الهرب، لكن الرجال قبضوا عليه.

قال المحقق (إبراهيم) لرجل الأمن الذي بجّانب (محمد):

- خذه إلى غرفة التحقيق الأخرى.

أمسك (إبراهيم) بسماعات أذن صغيرة وأعطاها لـ (محمد)، الذي سأله باستغراب:

- لماذا؟

ارتدى (إبراهيم) سماعته، ثم أجابه: سيكون تحقيقا مزدوجا؛ لنستفيد من أجوبتهما بشكل أسرع.

ابتسم (محمد) من ذكاء (إبراهيم)؛ فقال له: أهلاً بعودتك.

الساعة 8:30 مساءً.

دخل المحقق (إبراهيم) غرفة التحقيق الأولى والتي يجلس فيها (سامي)، أما المحقق (محمد) فدخل غرفة التحقيق الثانية والتي يجلس فيها عمر. كان عمر منكسا رأسه للأرض، جلس المحقق على مقعده ثم وجه إليه سؤاله الأول بصوت حازم:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

(المحقق محمد): ارفع رأسك، وانظر إلي... ما اسمك؟

قال (عمر) بصوت خافت: عمر خالد الشروان.

(المحقق محمد): أجب بصوت مسموع، كم عمرك؟ ورقم هويتك الوطنية؟

الساعة 8:32 غرفة (إبراهيم).

جلس (المحقق إبراهيم) على كرسيه وأكمل تحقيقه:

- هل وجدت رسالة أو ملاحظة تركتها خلفها؟

كان التوتر باديا على وجهه وهو يجيب.

. (سامي): كلا... لا شيء.

(المحقق إبراهيم): هل دار بينك وبين ابنتك نقاش حاد أو عقاب بدني في الفترة الأخيرة؟ ما سببه؟

(سامي): كلا، وبختها فقط.

الساعة 8:33 غرفة المحقق (محمد).

(المحقق محمد): متى رأيت فاطمة آخر مرة؟ إياك أن تتهزب من الإجابة أو تلف وتدور.

عمر: فاطمة ومن فاطمة؟

ضرب (محمد) الطاولة بقوة وتردد صدى الضربة في الغرفة:

- أجبني دون مخاتلة.!

ازدرد عمر ريقه واعرقُ جبينه وبدا خائفا جراء ردة فعل المحقق الغاضبة، وظنه لن يتورع عن شيء يفعله لينتزع منه الاعتراف! خاف أن يضرب فاعترف بسرعة:

- قبل شهر... كان آخر لقاء بيننا.

(المحقق محمد): ما موضوع الحديث الذي دار بينكما في ذلك اللقاء؟ أجب بالتفصيل.

(عمر): في ذلك اليوم أخبرتني فاطمة عن حملها، وأن والدتها كشفت الموضوع، وطلبت منها إجراء عملية إجهاض للطفل، لكنني رفضت ذلك، قالت لي إنها كانت خائفة من والدها ومما سوف يفعله بها.

الساعة 8:36 غرفة تحقيق المحقق (إبراهيم).

(إبراهيم): هل حبستها في القبو؟

ارتبك (سامي) من هذا السؤال المباغت وأنكر قائلا: إطلاقا.

المحقق (إبراهيم): عندما داهمنا منزلك وجدناك في القبو تنظف تلك الدماء، هل تود الاعتراف والإفصاح عن صاحب أو صاحبة الدم أم تفضل انتظار نتائج الفحوصات؟

(سامي): هذا غير صحيح كانت هناك بعض الأوساخ وقد مسحتها، ألا تتذكر أنني طلبت منكما التمهل ريثما أرتب المنزل؟

المحقق إبراهيم: ولماذا افترضت أننا سننزل للقبو فنظفته رغم أنك أهملت تنيف بقية منزلك والذي أتذكر أنه لم يكن مثاليا في موضوع النظافة.

تغيرت ملامحه ولم يجب، شعر وكأنه خصر في ركن صغير.

الساعة 8:44 بالغرفة الأخرى.

وجه (محمد) سؤاله بنبرة حاول كبح سطوتها: أين كنت قبل عشرة أيام؟ وهل تواصلت فاطمة معك؟

(عمر): لا لم تتواصل معي حينها، بل تواصلت معي والدتها، وردني اتصال منها عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وبعدها هربت خوفا من أن يحدث لي مكروه.

المحقق (محمد): ما الذي أخبرتك به والدتها؟

(عمر): أخبرتني أن أبا فاطمة قد خرج حاملا ابنته وهي فاقدة الوعي.

الساعة 8:46 غرفة المحقق (إبراهيم).

ما سمعه من تحقيق (محمد) عن طريق السماعة كان أمرا ذا نفع كبير في هذه القضية، قال لـ (سامي):

- لماذا خرجت قبل عشرة أيام عند الساعة الواحدة فجرًا؟

ظهر التوتر جليا في وجه (سامي) الحنطي والذي امتنع عن الجواب.

طرق بابا غرفتي التحقيق في ذات الوقت، خرج المحققان، التقيا مع أحد أفراد الشرطة، وقد طلب مقابلتهما ليخبرهما عن شيء طارئ:

- أتى رجلٌ كبير في السن... يعترف بشيءٍ خطير، إنه الآن في مكتبك يا (إبراهيم).

توقّف الزمن للحظة، شدّ (إبراهيم) قبضته، ثم حدّق في (محمد) طويلًا، قبل أن يدير ظهره ويتجه بسرعة إلى مكتبه،

عندما دخل، وجد الرجل جالسًا في المقعد الجلدي المخصص للزوار، رأسه منخفض، وكتفاه يرتجفان قليلاً. كان يبكي بصمت، كأنّ الذنب قد تسلّل إلى خلاياه وسكنها بلا رحمة.

وقف (إبراهيم) أمامه، وقال بحدة: أخبرني...من أنت؟ ولماذا أنت هنا؟

رفع الرجل رأسه، كانت عيناه محمرتين، وصوته مرتعشًا وهو يقول:

- أنا حسن... أعمل حفّار قبور.

توقّف قليلًا، وكأنّ الكلمات تخنقه بطريقة شنيعة، ثم تابع بصوتٍ مختنق بالكاد يخرج والتأثر باد في نبرته المتوترة:

- قبل أيام... أتى إليّ والد الفتاة...

صمت قليلا يستوثق من معرفة المحقق أي فتاة يعني، ولما قرأ المعرفة في عينيه أضاف بنفس الارتباك:

- سلّمني مبلغًا كبيرًا، خمسة عشر ألفًا؛ ليجعلني أتكتم على شيء دفنته له لم يرد لأحد معرفته!

اتسعت حدقتا (إبراهيم)، لكنه لم يقاطعه.

- حفرتُ له، دفع لي المال، ثم غادر... ومنذ ذلك اليوم، لم أستطع النوم. الكوابيس تطاردني كل ليلة... كوابيس مرعبة!

في لحظةٍ واحدة، اشتعلت شرارة الغضب في نفس (إبراهيم)، التفت بسرعة، ونادى بصوتٍ هادرٍ على أحد رجال الأمن. حضر الشرطي فورًا، وأدى التحية العسكرية، فقال له (إبراهيم) بصوتٍ صارم:

. - احتجز هذا الرجل فورًا... وسيأتي صديقه بعد قليل.

بدأ الرجل العجوز يبكي بحرقة، لكنه لم يقاوم، فقط استسلم عندما سُحب إلى الحجز، فاعترافه قد استنزف بالفعل كل قوته.

عاد (إبراهيم) إلى غرفة التحقيق، وجد (محمدا) يقف هناك، عيناه مسفرتان على (سامي) الذي كان يتصبّب عرقًا، وملامحه ممتقعة، كان كأس الماء متموضعا على الطاولة لم يُمس.

وقف (إبراهيم) أمامه، وقال بصوتٍ عاصفٍ بالغضب:

- لماذا قتلتها؟!

ارتبك (سامي)، وارتجفت فرائصه حاول الحديث، لكن الكلمات خانته، فتقدّم (إبراهيم) خطوة أخرى، وضرب الطاولة بقبضته ضربة قوية اهتز لها كأس الماء المترع، وتناثر جزء من الماء على يد (سامي) المرتجفة:

- أتقتل ابنتك يا رجل؟! أتسفك دمائها وتريقها بنفسك، كيف؟ ولماذا؟ ألا تعلم بأن هناك آباء يقفون على حافة النيران فقط من أجل أعين أطفالهم، هؤلاء لن يترددوا لحظة بأن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ذاته فداء ظفر واحد من أظفار أطفالهم.. كيف نحتسبك إنسانا بين البشر؟!

لم يرد (سامي)، فقط توثرت أنفاسه، لكن ذلك لم يمنع (إبراهيم) من الاندفاع نحوه، قبض على عنقه بيد من حديد، ضغط عليه بعنف، حتى بدأ (سامي) يختنق، يلهث، عروقه تنتفخ.

اندفع (محمد) بسرعة، وانتزع (إبراهيم) عنه، وهو يقول بحزم:

- توقف! لا تفقد السيطرة!

تراجع (إبراهيم) ببطء، لكن دموعه كانت تتساقط بصمت، حدق في (سامي) الذي كان يلهث بحثًا عن الهواء، ثم قال بصوتٍ مشحون بالألم:

- قتلت هبة الله التي منحك إياها... لماذا؟! كان يمكنك أن تأخذ طريقًا آخر وتقوم بحل مشكلاتكما معا... لكنك اخترت أن تكون جبانًا، أن تقتلها؛ لأنها ضعيفة، لأنها لن تستطيع حماية نفسها منك.

تقدم منه أكثر، همس بصوتٍ مليء بالاحتقار:

- لِمَ لم تقتل حبيبها... لأنك جبان. لأنها كانت الحلقة الأضعف. حسبي الله عليك.

استدار (إبراهيم) فجأة.. ووجه كلامه لـ (محمد):

- أحضر المجرمين.. سنذهب إلى المقبرة الآن..

4

المجرم الذكي لا يختبئ في الظل، بل يقف تحت الضوء حيث لا يتوقعه أحد. يجلس في الصف الأول، يشارك في الجنازات، يبتسم للأطفال، ويصافح القضاة. يعرف أن الناس لا تبحث عن الشر إلا في العتمة، في حين أن أخطر الشرور تجلس أمامهم، متربعة على الكرسي، تراقبهم وهم يبحثون في الاتجاه الخاطئ.

همس له (محمد) وهو في حيرة من تصرفات إبراهيم الانفعالية:

- اهدأ يا (إبراهيم) يجب أن تتصرف بما يمليه عليك القانون وإلا جلبت على نفسك مصيبة كبيرة، لا تنس أن رئيس القسم يترصدك ويتصيد عليك الزلة فلا تقدمها له على طبق من فضة.

ألقى (إبراهيم) على (محمد) نظرة صفراء ثم حاول أن يهدأ وقال:

- معك حق، لكني وضعت ابنتي يسر مكان الفتاة.

قال (محمد): أعلم أنك عاطفي إزاء قصة يسر لكن العمل هنا يتطلب العقل والسعي وراء الدليل، فتعقّل.

هز (إبراهيم) رأسه إيجابا وأنشأ يقول: إنني بخير سوف أسيطر على وضعي.

***

صدرت مذكرة رسمية مختومة من النيابة العامة، بخط واضح كإذن رسمي بفتح قبر، كان إبراهيم يضغط على الورقة بين أصابعه بقوة وهو يتخطى الشريط الأمني الأصفر الذي وسم دائرة حول المكان..

وقف (إبراهيم) و(محمد) أمام القبر المستهدف، نصبت الشرطة كشافات بيضاء قوية جعلت القبور واضحة للعين، خلف الحاجز تجمّع بضعة رجال من أهل الحي، وجوههم نصف مضاءة.

وقف ضابط التحقيق يتحدث مع حفّار القبور العجوز حسن. بينما موظف يدون كل كلمة وكل إجراء بجانبهم. كان مصور الأدلة الجنائية يجهز كاميرته، وأحد أفراد الأدلة يفتح حقيبة سوداء مرتبة بعناية تحتوي أكياسا شفافة لحفظ الأدلة، قفازات جديدة، وأشرطة قياس...

ارتدى الجميع القفازات والكمامات. لا أحد يمس التراب إلا بعد تسجيل ذلك في المحضر. فالقانون لا يترك مجالًا للخطأ. أشار الضابط لحفار القبور، الذي أمسك جاروفه المعدني وضرب أول ضربة في الأرض، صوت مكتوم تبعه صوت سقوط حبات الرمل خارج الحفرة، الضربة الثانية كانت أعمق والضربات اللاحقة حملت معها رائحة مختلفة...

كان (إبراهيم) واقفًا عند الحافة، عيناه شاخصتان في الحفرة والترقب يملأ وجدانه، وأصابعه تضغط على الورقة حتى

تجعدت أطرافها، (محمد) الذي بجانبه اكتفى بمتابعته بصمت، يقرأ الغضب الذي يغلى في داخله.

بعد دقائق تغير لون التراب أصبح أغمق وأكثر التصاقًا، توقف الحفار لحظة، نظر إلى الضابط، وحين حصل على الإيماءة تابع حتى ظهر طرف كفن أبيض مشبع برطوبة الأرض، هنا انحنى فرد من الأدلة الجنائية، وبدأ التصوير من عدة زوايا قبل أن يمد يده المغطاة بالقفاز ويفتح الكفن قليلاً.

دُفنت في تراب احتواها برفق وأبعدها عن شر العالم وقسوته..

دُفنت بأحلامها وأمنياتها وكل ما تحب وتكره..

دُفنت دون غسل ودون صلاة ودون قريب يرافقها في وداعها الأخير..

كانت شابة والكدمات كانت واضحة في وجهها، ملامحها شاحبة وقد اختفت الحياة من لون بشرتها، فوق صدرها كان هناك ظرف بني موضوع بعناية!

أشار المحقق إبراهيم فوزا لأحد الفنيين والذي بدأ يصور لقطة أمامية ولقطة جانبية وكان يقرب العدسة على أي كتابات او بصمات ونحوها...

تم تصوير الظرف بدقة، ثم التقطه الفني بحذر، وأدخله مباشرة في كيس حفظ الأدلة الشفافة، ثم وضع الكيس داخل الحقيبة السوداء ولم يغلقها.

وقف إبراهيم بجانب الطاولة الميدانية التي نصبها فريق الأدلة الجنائية على طرف المقبرة. كان الظرف البني في الكيس الشفاف أمامه، يلمع تحت ضوء الكشافات. أشار الضابط المسؤول إلى الفني المتخصص في رفع البصمات:

- افتح الكيس أمام الشهود، سجل الوقت.

دون موظف المحضر، الوقت 10:42 مساءً، فتح كيس الدليل

رقم (7) بحضور الضابط إبراهيم وفريق الأدلة الجنائية.

ارتدى الفني قفازات جديدة، سحب الظرف بحذر شديد من الكيس، ووضعه فوق ورقة بيضاء نظيفة حتى لا يلامس أي سطح ملوث.

مد يده إلى حقيبته، أخرج مسحوق البودرة السوداء المخصص للكشف عن البصمات، وبدأ برش خفيف على زوايا الظرف، ثم مرر فرشاة دقيقة بحركات دائرية. في الضوء القوي، بدأت خطوط أصابع تظهر، فاتحة على الخلفية البنية. أشار إلى زميله الذي كان يوثق العملية بالكاميرا، وكل لقطة تم حفظها مع بياناتها.

بعد الانتهاء من رفع البصمات، وضع الفني شريطا لاصقا خاصا بأخذ البصمة على كل موضع ظهر فيه أثر، وثبت الشريط على ورقة شفافة تحمل رقم الدليل وتوقيع الرافع.

ثم التفت الضابط إلى إبراهيم:

- "الآن، يمكنك الاطلاع على محتوى الظرف."

أخرج الفني مشرطا صغيرا، وفتح حافة الظرف من الجانب حتى لا يمس الختم أو مكان الإغلاق. باستخدام ملقط معدني معقم، أخرج ورقة مطوية بعناية، لونها مائل للاصفرار، وكأنها قديمة رغم أنها وضعت حديثا.

وضع الورقة على لوح زجاجي تحت الكشاف، وبدأ إبراهيم يقرأ بصوت منخفض:

"هل تصدق غباء البشر؟ هناك من يبحثون عن بناتهم المختفيات في الطرقات.. مع أن القبر هو المكان الأمثل للاختفاء.. إمضاء.. الكابوس الأسود".

اتسعت عينا (إبراهيم) وهو يقرأ ما كُتب مرات ومرات.. هناك من قاده عمدا إلى هذا المكان.. هناك من يعرف عنه الكثير ويتلاعب به..

نظر إبراهيم إلى سامي والذي شحبت ملامحه فقال له:

- ما بك؟ أرأيت هذه الورقة من قبل؟

هز رأسه وهو لا يقدر على أن ينطق كلمة واحدة، ثم قال أخيرا وهو يكاد يبكي:

- لا.. لا.

حسنا.. لا يحتاج الأمر إلى محقق ذكي ليعرف أن الرجل كاذب..

سجل الفني في المحضر: تم استخراج ورقة مكتوبة بخط يدوي أنيق، وتم تصويرها وحفظها في كيس دليلي مستقل تحت رقم (8).

نظر (إبراهيم) لـ (سامي) وعيناه تكادان تحترقان غضبا وشرا.. أمسك بتلابيبه وهو يسحبه بقوة إليه وكأنه لم يضبط (محمد) أعصابه قبل قليل! سأله سؤالا لا يحتمل التلاعب في إجابته:

- ماذا تعرف عن هذه الورقة؟

هنا انهار (الحفار) وبكى بقوة:

- لدي مثلها.. لدي مثلها..

قالها وأخرج ظرفا بني اللون، ولكنه أكثر نظافة فلم تلتصق به الأتربة.. فضه (إبراهيم) سريعا.. وقرأ ما فيه:

- اذهب وأخبر الشرطة عمن دفنت في السر وإلا ذبحت ابنتك أمام عينيك.. إمضاء.. الكابوس الأسود.

- أنا كان لدي أيضا مثلها..

كان هذا صوت (سامي) المتحشرج، فاستدار إليه الجميع. فقال:

- طلب مني الكابوس الأسود أن أسأل عنك بالاسم وأن

أخبرك أنه قد اختطف ابنتي. وإلا كان سيخبر عن جريمتي..

ابتعد (إبراهيم) خطوة الوراء وهو يربط الرسائل الثلاث بعضها البعض.. هناك من يتلاعب به ولكن من بين الورقات الثلاث فالرسالة الوحيدة الموجهة إليه هي تلك القادمة من تراب الفور..

سكنه شعور قوي جاثم.. بأن كل ما يدور الآن حوله ليس له علاقة وثيقة بيسر.. غير أنه لا يعرف كيف.. ولكن أيا كان هذا الكابوس الأسود.. سيجد منه أياما أكثر سوادا وأشد حلكة مما يتخيل..

***

5

بعض الناس لا يملكون وجهًا واحدًا، بل قناعًا فوق وجه فوق قناع. كلما نزعت أحدها، وجدت تحته ابتسامة مختلفة، وكذبة جديدة. والمشكلة أن هؤلاء يعيشون بيننا كأنهم طبيعيون، يشاركوننا الطعام والحديث، بينما أنت لا تدري كم طبقة من الزيف تفصلك عن حقيقتهم.

حرك المحقق (إبراهيم) جسده ببطء وترجل من سيارته التي ركنها أمام بنايته، وسار بخطوات أظهرت عناء هذا اليوم جليا..

كان جسده يتوسل إليه أن يلقي به إلى أقرب فراش استجداءً للنوم والراحة فقد كان نهارا مضنيا مليئا بما يعكر الصفو، ويزعج الروح، ويؤجج الحزن..

أحداث يومه تزاحمت في جدار عقله وتخبطت يمينا ويسارا.. يوم طويل، سطعت شمسه تقوده إلى التحقيق في مأساة أب مكلوم، وأنهاه على أنوار الكشافات في القبور؛ ليكتشف أن هذا الأب المكلوم ما هو إلا شرا متجسدا في صورة إنسان!

ولكن أسوأ ما يحتل عقله المزدحم بالأفكار والمشكلات في هذه اللحظة.. كلمات قرأها لكابوس يلاحقه.. كلمات لم يفهم معناها، ولماذا وُضعت، ومن وضعها؟! غير أن هناك هاجسا خفيا لا يستطيع أن يغفله.. هذه الكلمات كُتبت من أجله خصيصا..

دلف إلى بيته الخالي من الحياة.. القابع في الظلام.. بقلب لا يفارقه الهم لحظة..

وكعادته كلما دخل هذا البيت توجه للغرفة التي تعطيه بعضا من الأمل، غرفة غلفها ورق حائط وردي، وزعت فيها الألعاب والعرائس بطريقة منظمة بحيث تُحفظ من التلف أو الضياع فمعزة تلك الألعاب من معزة صاحبها، عاشت في هذه الغرفة أجمل طفلة لثلاث سنوات طويلة، بيد أنها مرت أمام ناظريه سريعة كلحظ العين وارتداد الطرف، كانت فتاة هادئة كالسكون، عذبة كالزلال، مرحة كعبارات الحب في مكاتيب العاشقين..

جلس على الفراش الصغير الوردي، وأمسك صورة ابنته بين يديه وقربها إلى وجهه الحنطي يُقبلها بشوق عارم، والذكريات الجميلة تنثال إلى مخيلته، تشد عليه؛ فيجهش في بكاء مرير، ويتحسر على تلك الوردة التي غادرته دون وداع! بلل الصورة بدموعه السجام، تنبه إلى نفسه بأنها انساقت في متاهات الحزن المظلمة؛ فمسح الدموع بمنديل كان على المنضدة؛ مسح عينيه والصورة، ضم الصورة إلى صدره..

همس لها وكأنها كيان حي يسمع ويرى ويحس:

بحثت اليوم عن فتاة أخرى قد اختفت.. وجدتها ولكن متأخرا.. أعلم أنني وعدتك أن اتفرغ لقضيتك ولا ألتفت لأي قضية أخرى حتى أجدك.. لكنني اليوم أراني أخالف هذا القانون الذي ألزمت نفسي به، ولكن اعلمي أن مخالفتي لذلك القانون إنما حدثت لأجلك يا حبيبتي؛ فشعور قوي يجتاحني يُعلمني انني إن ساعدت من هي في مثل مصيبتك فإن ذلك سيكون

سببا في إيجادك.

ولكن لا تظني أبدا بأنني قد نسيتك.. أفعل هذا لعل الله يفك كربتي وأنا أحاول أن أحقق عدالته في هذه الدنيا.. أنا واثق بأنه سيعيدك إليّ يا بابا.. لن أنساكِ أبدا يا حبيبتي.. أقسم أنني سأجدكِ ولو كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي..

سمع طرقات على بابه فأعاد صورتها، ومسح ما تبقى من دموعه، واتجه نحو الباب يفتحه وهو يعلم من وراءه..

ابتسم للعم (حسان).. وقبل بدء الحديث بينهما مر رجل غريب على إبراهيم يبدو بهيئة متواضعة لكن وكما يبدو أن العم حسان يعرفه جيدا إذ رحب به وبادله الترحاب بالترحاب الأكثر حرارة، ولما انصرف الرجل عرفه لإبراهيم بقوله:

- هذا راشد رجل فقير يعمل في التوصيل الجامعي للفتيات لديه باص صغير هذا رأس ماله من الحياة.

دخل العم حسان شقة إبراهيم وهو يحمل كعادته كل مساء طبقا من طعام ساخن.. كان العم (حسان) بهيئة وقور؛ ذقنه متوسط، أبيض البشرة، حواجبه كثة، وعيناه براقتان بوميض ينم عن ذكاء حاد، كان معتدل القامة، مربوع الجسد، له سجية فطرية في التعامل بحيث يندمج من يتحدث معه بسرعة عجيبة، ولا يجد غضاضة من أن يبثه جميع أسراره ومشكلاته، وهذا ما حدث مع (إبراهيم)؛ وجد نفسه عاريا أمام (حسان) الذي اطمأن لتعامله الأبوي معه، فكان كمن سلمه جميع أوراقه! فضح سر يسر ووجد في (حسان) خير متعاطف يقترح المقترحات التي يبذل فيها جهدا مضنيا سعيا منه للوصول إلى يسر.

وفي مرة خاطبه بنبرة تفيض صدقا:

- إنني في شوق عارم للقاء يسر يا ولدي، وأرجو أن يحدث ذلك قريبا كما أنني ألتقي خالدا الحبيب.

كان لكلامه وقعا عجيبا على قلب (إبراهيم) المشبع بشوقه العرمرم للوصول إلى يسر، وجاء كلام (حسان) إما كماء زلال يطفئ النائرة المتأججة في روحه، وإما كوقود يسكب على الجذوة فيهديها مزيدا من التأجج والاشتعال!

قال له (إبراهيم) من وراءه وهو يغلق الباب:

- ألم تمل مني يا عم حسان؟ تصر على إطعامي كطفل صغير!

ضحك الرجل وهو يضع الطعام على الطاولة ويجلس إليها:

- الحق أنني قد مللت الجلوس طوال اليوم دون عمل، فعندما أطهو طعامك لا تظن أنني أطهوه من أجلك، إنه؛ من أجل ألا أبقى عاطلا..

صمت حسان قليلا وقد اربد وجهه وتجهمت أساريره ثم أنشأ يقول:

- الانفصال عن زوجتي أخذ مني الكثير.

تغيرت ملامح إبراهيم لهذا الحديث الشجي الذي يسمعه للمرة الأولى ثم قال:

- أنا آسف، لم أكن أعلم أنك منفصل عن زوجتك يا عم (حسان)، لم أكن أعلم أن بشاشتك تخفي بين طياتها حزنا عميقا!

ما زال الحزن يظلله بغمامته وهو يقول:

- أرجو أن أنتقم يوما ما ممن كان السبب في انفصالي عنها.

لم يقف إبراهيم كثيرا عند تلك الجملة، ولم يحبب أن يتطفل على شأن خاص، ولعل حسانا لا يريد الإفصاح عنه، رغم أنه كان يتحدث عن حياته كثيرا... حاول إبراهيم ترطيب الجو وإعادته إلى سابق عهده؛ فابتسم وهو يجلس أمام العم (حسان) وعيناه شاخصتان إلى طبقه الذي أعده حسان بيديه، كان ينظر إلى

الطبق دون شهية ودون رغبة في تناول حتى حبة أرز واحدة، ولكنه مضطر أن يتذوق ما أمامه ويبدي استمتاعه مجاملة للرجل العجوز وما تكبده من مشقة في إعداد هذا الطعام:

- ممم.. كالعادة أنت ماهر في الطبخ.. من أين تعلمت هذه المهارة؟

هز (حسان) رأسه بفخر:

- أنا من علمت نفسي، فهذه هوايتي طوال حياتي.. كنت أحب أن أصنع الطعام لابني الأكبر رحمه الله..

من العجيب أن يتشارك مع حسان في الفقد، لحسان ماض قاتم كما علمه قبل اليوم؛ فانفصال عن زوجة، وموت ولدا بل موت ولديه كما أخبره حسان من ذي قبل، إنه فقدهما بطريقة مؤسفة وبدوره فقد يسر وزوجته، وبالتالي وجد إبراهيم قاسما مشتركا يجمعه بحسان فليس كل الناس تعرف مذاق الفقد كما عرفاه!

تلاشت ابتسامة (إبراهيم) تأثرا، ولكنه لم يعلق واستمر في تناول طعامه ببطء ثم رفع عينيه مع كلمات (حسان) الشاردة:

- أنت تذكرني كثيرا به.. لقد كان شديد البأس.. قائدا بطبيعته.. لا يجرؤ أحد على هزيمته ولو بكلمة.. لقد كان كل شيء في حياتي..

منذ أتى حسان لهذه البناية وسكن جواره، كان منعزلا وانطوائيا في أول أسابيعه، ومع الوقت عرف أن هذا الرجل واجه أقسى ما قد يواجهه إنسان.. مات ولداه في لحظة واحدة في حادث سير بالعاصمة.. هذا النوع من الحوادث الذي يبتلع أحبائك دون إنذار ويتركك وحيدا شريدا في حياة لا معنى لها..

فقد ولدين.. ولكنه لا يتحدث سوى عن ابنه الأكبر.. كان مصدر فخره، وطعنة قلبه الكبرى، وجرحه الذي لم يندمل، لطالما تغنى بمحاسنه وسجاياه الحميدة التي لا تنتهي! و(إبراهيم) هو أكثر

من يفهمه في هذا الأمر تحديدا.. فأثر الصمت..

نهض الرجل يستند على الطاولة أمامه ووقف بجوار (إبراهيم) وهو يضع يده على كتف الأخير:

- إنني أدعو الله ليلا ونهارا أن يعيد يسر، فأنا اعتبرتها أكثر من ابنتي، ولا أريد أن يفقدني الله ولدا آخر..

ثم ابتسم له بوهن وودعه..

بينما ظل (إبراهيم) جالسا بنفس الجلسة المتوثبة على مائدة الطعام أمام طبق (حسان) لوقت لم يحتسبه مستسلما لدوامة أفكاره المجنحة حتى سقط جفناه في نوم يبعد أميالا عن الراحة والاسترخاء..

لم تكن طفولتي على خير حال، لقد فقدت والدي وأنا ابن أربع سنين، لا أتذكر عنه إلا أشياء طيفية تمر في خيالي كذكرى بعيدة مشوشة مغبوشة بسواد أو ظلال أو ضباب بالكاد يسمح برؤية ما خلفه، أتذكر ابتسامته، تلك الذكرى الوحيدة التي تظهر أمامي ناصعة، لكنني لا أستطيع رؤية ما هو أبعد، كنت أراه دوما حينما أنام وكأن عقلي يعمل دون إرادة مني؛ كي يعوضني عما فقدت! لطالما لعبت معه ولكن في الحلم، تحدثت معه ولكن في الحلم، خرجت معه، شاغبته، بكيت على حجره، قدمت له نعليه حينما يخرج، ركبت ظهره ساجدا، سحبت نظارته، خربشت لحيه... فعلت كل ذلك وأكثر ولكن فقط في الحلم... غير مرة أجدني أجلس من النوم والدموع تملأ عيني؛ لأنني رأيت أبي وحينما أحاول تذكر تفاصيل الحلم تخونني المحاولة!

أما أمي فمأساة أخرى وقضية تحتاج أطباء يحللونها، حدثتني خالتي عما حدث، وعن النقطة المفصلية التي حولت أمي من كائن إلى كائن! من كائن رائع أم رؤوم إلى مجرد امرأة تعيش كطفل صغير، يحتاج عناية خاصة في أبسط شؤنه، في ذلك اليوم وقبل ولادتي بعدة أعوام كانت عائلتي في مزرعتنا يزجون الوقت ويمضون اللحظات الجميلة بين شواء ولعب وسباحة، وحينما انفض الجميع وخرج أبي لشأن ما على رجاء العودة سريعا؛ غرق أخي الأكبر في المسبح! كانت أمي تجلي الأطباق استعدادا للرحيل؛ إذ سمعت صوتا غريبا قادما من المسبح مصدره فزع صادر من أخواتي الصغيرات وهن يبكين ولا يقدرن على فعل شيء! وبقلب الأم أحست بالشر فتركت ما بيدها وذهبت تستطلع الأمر لتصدم من منظر ولدها الوحيد يغرق ويفحص بأطرافه! أسرعت الخطى متجاوزة أخواتي العاجزات عن المساعدة، ولأن الأرض المبللة لا تسمح بالخطو السريع فلم تسمح لأمي بالمشي هكذا دون عقاب، فزلت قدمها، وارتطم رأسها بالحافة الرخامية الصلبة، فقدت الوعي دقيقة

وحينما استفاقت كان كل شيء قد انتهى! مات أخي واستبدلت أمي بامرأة أخرى! لم يحدث تغيرها في يوم وليلة لكن كلما مر الزمن كلما فقدت جزءا من عقلها! الصدمة الجسدية والصدمة النفسية بفقد ولدها أحالاها إلى طفل صغير بجسد امرأة كبيرة! وحينما ولدت وكبرت وفتحت عيني على الحياة وجدت أمًا وحيدة مات عنها زوجها، وتزوجت بناتها؛ فكنت ملزما بالعناية بها ورعايتها فلم أقدم مصلحتي على مصلحتها. حتى لم أعد أستطيع العناية بها فاضطررت إلى أخذها إلى دار الرعاية بالحالات المماثلة، رغم ذلك لم أتركها كنت أزورها باستمرار وأحاول ملاطفتها وإدخال السرور على قلبها.

6

المجهول ليس وحشًا في الظلام ولا بابًا مغلقًا، بل هو الفراغ الذي لا تعرف ماذا يخبئ لك. قد يكون طريقًا للخلاص أو هاوية بلا قاع. أخطر ما فيه أنه يتركك تتخيل كل الاحتمالات، وكلما حاولت طرد فكرة سيئة، ولدت أخرى أسوأ. لذلك، فإن كثيرين يفضلون البقاء في سجن مألوف على أن يسيروا خطوة واحدة في اتجاه لا يعرفون نهايته.

صباح اليوم التالي فتح (إبراهيم) عينيه سريعا ورفع رأسه من على الطاولة بقوة ما جعل ألما عاصفا يحيط برقبته بسبب نومه بهذه الوضعية غير الصحية طوال الليل، تثائب وتمطى.. وخرج كعادته يستفتح يومه بزيارة أمه في دار الرعاية، وعلى غير العادة كانت والدته في ذلك اليوم صعبة المراس لم تهدأ حتى ضمها إلى صدره وطبطب على كتفيها فهدأت، حدثها قليلا حتى نامت فقبل رأسها ثم عاد إلى روتينه المعتاد.

عاد إلى شقته وألم الرقبة يطوقه، مسد رقبته وهو ينهض

متألما على وقع صوت الجرس يرن حتى وصل باب شقته وفتحه بوجه عابس مكفهر.

كان أمامه طفل صغير، لا يتجاوز العاشرة، يحمل صندوقا صغيرًا بين يديه.

قطب (إبراهيم) حاجبيه، وسأل بصوتٍ خشن، لم يخفِ ارتيابه: لمن هذا؟

رفع الطفل الصندوق قليلًا، وقال ببساطة: إنه لك.

شعر (إبراهيم) بوخزة في صدره، انتقلت نظراته من الصندوق إلى الطفل، وسأله بنبرة حادة:

- من أين حصلت عليه؟!

أخذ الصندوق، فتحه بسرعة، فوجد الظرف البني مثل ذلك الظرف الذي رآه كثيرا في الفترة الأخيرة.. رفع الظرف ليفضه ويقرأ ما فيه، غير أنه لاحظ أن هذا الصندوق ما زال يحمل له شيئا صغيرا ولكنه يخبره بالكثير..

تجمدت أنفاسه تماما وهو يميز بوضوح ما يرى..

إصبع! إصبع بشري ملفوف في قطعة قماش صغيرة.

لم يكن هناك دماء، لكنه كان مقطوعًا بدقة!

ولكن هذه المرة إصبع لإنسان ناضج، ذكره هذا على الفور بالإصبع الرقيق الذي انفصل عن الجسد البريء لصغيرته بوحشية وأرسل إليه!

أشعلت هذه الذكرى الأليمة نيران الغضب في أحشائه، ولم يجد غير الغلام أمامه ليمسك بياقة ثوبه، ويسحبه إليه في قوة وهو يقبض على الصندوق حتى سحقه، كان صوته صارمًا وقاسيًا هذه المرة:

- من أعطاك هذا الصندوق أيها الولد؟!

نظر الطفل إليه بخوف، وقال بصوتٍ ناعم ممتزج بنبرة هلع:

- رجل كان يخفي وجهه... أعطاني مائة ريال، وطلب مني أن أسلمه لك.

صر (إبراهيم) أسنانه، فتح العم حسان الباب شفتاه تعربان عن ابتسامة، أراد قول شيء لكن إبراهيم لم يمهله إذ انطلق كالمدفع يأكل السلالم نزولا وهو حافي القدمين، ومن ورائه الطفل المذعور الذي لا رغبة في داخله الآن سوى بالهروب..

خرج (إبراهيم) من البناية كطلقة رصاص طائشة يتلفت يمينا ويسارا على غير هدى، لا يرى أحدا في الجوار.. كاد الطفل أن ينسل مبتعدا غير أن (إبراهيم) سحبه سحبا إليه من ياقة قميصه وهو يسأل بصوت عال:

- أين رأيته؟ أين التقيت به؟!

رفع الطفل إصبعه المهتز لاعنا في قرارة نفسه اليوم الذي قرر فيه النزول من بيته، وأشار إلى زاوية زقاق صغير، لم يضع (إبراهيم) لحظة، فانطلق كالسهم المنفلت من الرمية، يركض بأقصى سرعته.

دخل الزقاق، عيناه تمسحان المكان، يبحث في كل زاوية، يراقب كل ممر... لكنه لم يجد أحدا.

لم يستسلم، واصل الركض حتى خرج إلى الشارع الآخر، وقف يلهث، ينظر لكل سيارة تمر، ولكل سيارة متوقفة...

لا أثر!

كاد رأسه ينفجر وهو يصرخ:

- تبا... لقد كان قريبا، لكنه هرب مجددا..

ثم... تذكر الطفل الصغير.

عاد راكضا إلى المكان، لكنه...

لم يجده..

وقف في مكانه للحظات، وهو يسمع بوضوح دقات قلبه وهي تنبض كقطار سريع..

المجرم لم يرسل مجرد رسالة... لقد استغل طفلًا بريئًا، والآن، لا أحد يعلم أين هو..

صعد سلم بنايته متجها لبيته حيث الباب المفتوح والصندوق والظرف كانا في مكانهما على الأرض بجانب الإصبع الملتف في قطعة قماش، والذي لا يعلم لمن ينتمي!

أخرج الورقة من الظرف البني... وبدأ يقرأ:

"كم هي سريعة عقارب الساعة؟! ومع كل حركة منها تسحب منك فرص الحياة، روح الفتاة غلقت على هذه العقارب، وفي يدك أنت وحدك إيقافها"..

ستجدها في حل اللغز القادم إن كنت ذكيا كما تدعي..

"امتزج الأخضر بالأحمر فغطت رائحة الموّت على الحياة".

سأنتظرك وأرحب بك في لعبة الموت، فقط كن زائرا مهذبا تخفف من الرفقاء.. ولا تُخبر مخلوقا، وإلا دفعت الفتاة ثمن حماقاتك.

تصلب جسد (إبراهيم) وهو يقرأ كل كلمة بعناية ويعيد قراءتها..

هذا المجرم لم يكن مجرد قاتل أو مختطف...

لقد نسج لعبة في خياله، والآن يجره إليها!

إنه يشعر بالمتعة!

لكن كل ما شغله أنه يعرفه أكثر من اللازم!

امتزج الأخضر بالأحمر فغطت رائحة الموت على الحياة.

المكان الذي أشار إليه... لم يكن مكانًا عشوائيًا..

كان جزءًا من ماضيه..

قبض على الورقة بيده، كانت عيناه مظلمتين بالغضب..

ثم همس بصوتٍ منخفض...

"حسنًا... سأذهب".

"لكن أقسم لك... ستكون هذه اللعبة الأخيرة التي تلعبها معي.".

لم يحتج المحقق (إبراهيم) سوى لحظة واحدة ليفهم مقصد الرسالة...

إنها مزرعة والده، هذه المزرعة التي لم تطؤها قدماه، منذ مات فيها أبوه أمام عينيه وهو ما يزال طفلا..

أعاد عقله الذكرى في لحظة عندما أمسك الأب موضع قلبه وتهدجت أنفاسه وسقط دون إنذار. وجاءت سقطته على حجر صلب، فارتطمت رأسه به وسالت دماؤه على الحشيش الأخضر..

أمسك بالصندوق الذي يحمل الإصبع المبتور، ثم فتح درجًا صغيرًا وأخرج كيسًا شفافًا، وضع بداخله بعض قطع الثلج ليحافظ على العضو المبتور، فربما تحمل بصمات أو أي دليل يقوده إلى الوحش الذي يلعب معه هذه اللعبة القذرة..

لم يُضع ثانية أخرى، التقط مفتاح سيارته من الطاولة، ارتدى حذاءه بسرعة، ثم خرج مسرعا نحو سيارته.

إنها ليست قضية كبقية القضايا التي تسلمها؛ إنها حرب شعواء، وشخصية؛ لذا يجب أن يكسبها فالخسارة ليست خيارا متاحا.

ركب السيارة، وأدار المحرك، ثم انطلق بأقصى سرعة ممكنة.
في السيارة تواصل مع الجهاز الأمني يبلغهم بما يجري:

- أنا المحقق (إبراهيم) إنني متوجه إلى مزرعة أبي الكائنة في شمال مدينة المبرز من المحتمل وجود المشتبه به هناك.

ابعثوا قوة بصورة عاجلة للموقع.

كان يطارد الزمن، وهدفه الأوحد أن يسبق عقارب الساعة التي لا تتوقف.

عند المزرعة...

أوقف سيارته فجأة فاعتلى صوت الفرامل ركنها أمام البوابة الحديدية العالية، كانت مغلقة، لكنه لاحظ فوزا أن القفل الذي وضعه قبل سنوات... مكسور.

كان هذا متوقعا..

ترجل من السيارة فوزا، لم يكن بحاجة إلى التفكير دلف المزرعة بحذر... كان الخطر حاضرًا في كل زاوية..

سحب سلاحه من خلف ظهره مسى ببطء يمسح المكان بسرعة وهدوء، يحاول اكتساب الصمت ليتتبع أي صوت يصدر من الداخل، حرك تيار هوائي هادئ سعف النخيل وطارت بعض العصافير التي لفتت نظره بتحليقها، تقدم ليجد بعض آثار دماء تقوده للمسبح.

كان يعرف المكان جيدًا، كل زاوية رغم غيابه الطويل عنه، بيد أن ما استقر في ذاكرته من ذكريات مرتبطة بالمكان جعلته يتذكر تفاصيل التفاصيل، كل طريق مخفي.

قام بتغيير طريقه إلى ذلك المكان الذي كان يقضي فيه أجمل لحظات طفولته وأتعس موقف مر به...

لكن هذه لم تعد ذكريات بريئة بعد الآن..

وصل إلى الباب، كاد أن يدخل المسبح غير أنه حينما أمسك مقبض أحس بشيء ما منقبض في قلبه وكأن حدسه يخبره بألا يفتح الباب.

شد على المقبض، فأحس بتيار كهربائي خفيف يسري منه إلى يده، سحب يده بسرعة، تنفس في تركيز.

ثم تذكر...

ثمة فرجة مربعة في المسبح، كان يستخدمها كمدخل سري عندما كان فتى.

أعاد سلاحه إلى خلف ظهره، ثم تحرك بسرعة نحو الفتحة، قفز من خلالها برشاقة، وعندما دخل...

شعر أن قلبه توقف لثانية.

في منتصف المسبح... كانت هناك فتاة مكبلة إلى كرسي مثبت بثقالات حديدية، والمياه قد وصلت إلى صدرها.

لم تكن تتحرك، لم تكن تصرخ... لكن عينيها كانتا تتحدثان بالرعب المطلق.

إنها تغرق ببطء.

قفز (إبراهيم) دون تردد، شعر ببرودة المياه تلتف حوله، هدفه الأوحد إخراجها بشكل سريع ضربت قدمه الثقالات الحديدية فآلمته الضربة، لكنه تجاهلها وحاول إفلات الفتاة من موت محقق..

خرج مسرعا من الماء يتجه نحو زر التحكم في تدفق الماء، استطاع الوصول يروم إيقاف الماء، وقبل أن يديره أصدرت الفتاة أصواتا مكتومة فيما يشبه الصراخ..

توقف، خفض يده ببطء، ثم نظر إليها بعينيه الحادتين:

- "هل هناك شيء خطير في هذا الزر؟".

أومأت برأسها بشدة.

إذن... هذا فخ!

لم يكن هناك وقت للتفكير أكثر، قرر أن يأخذ الطريق الأسرع.. وجد زجاجة قريبة فكسرها وتناول شفرتها الحادة وقفز بها لداخل المسبح، كان الكرسي مثبتا بثقالات حديد بيد أن الفتاة مثبتة في الكرسي بحبال مشدودة بقوة، وصل للفتاة

وقطع الحبال التي شدتها إلى الكرسي بعد جهد كبير لدرجة أنها كادت تغرق فالزجاج رغم حدته لكن الحبال متينة بحيث احتاج وقتا ليقطعها، لكنه نجح في النهاية، ثم حملها ليخرج بها في أمان..

أزال القماش الأسود الذي كان يغطي فمها...

سألها بصوت هادئ لعله يبعث في نفسها بعض الهدوء: من أنت؟!

- أنا... أنا فاطمة.

قالتها بصوتٍ ضعيف متهدج، ما زالت تشهق من البكاء والخوف؛ فكما يبدو أن هذه الفتاة مرت بتجربة مريرة.

تحفزت حواسه بشكل مفاجئ عندما سمع صوتا من خلفه، سحب سلاحه بسرعة، وأشار إلى (فاطمة) قائلاً بصوت حاد:

- "خلفي الآن!".

تحرك ببطء، كانت خطواته حذرة، كان بإمكانه سماع أنفاس (فاطمة) خلفه وهي ترتجف،

وصل الباب... مد يده لفتحه، أدار الرتاج، فتح الباب...

وفجأة!

دوى صوت طرقعات عنيفة خلفه!

التفت بسرعة...

ملأت الصواعق الكهربائية المسبح وكأنها صاعقة من السماء.. كانت تلك الصواعق الكهربائية مربوطة بفتح الباب كما يبدو حينها حمد إبراهيم الله الذي ألهمه الدخول من فرجة يعرفها خلاف الباب.

خرج من المسبح، وأخذ (فاطمة) معه، لكنه لم يكن قد انتهى بعد.

- إلى أين سنذهب؟!

صاحت (فاطمة) بخوف.

سحبها خلفه ولم يتخل عن نظراته الحذرة الموزعة في كل مكان:

- إلى قسم الشرطة.

توقفت فجأة، وكأن الكلمة أصابتها بشيء مرعب: أنت... أنت شرطي؟

التفت إليها بعينيه القاتمتين، وجاء رده جافا: نعم.

ثم التفت بحدة عند سماعه حركة أخرى بعيدة بعض الشيء..

رفع رأسه فوجده هناك.. كشبح قادم من أسطورة ما عاد الناس يؤمنون بها.. كان متلفعا بالسواد.. وقف في تحدٍ سافر.. حتى عيناه لم يظهر وميضهما..

نظر إليه (إبراهيم) وكأنه يرى جليا ابتسامته الساخرة من خلف قناعه..

وعرف على الفور أنه كابوسه الأسود..

رفع سلاحه، وأشار إليه وقال بصوتٍ قاسٍ: قف مكانك، وسلم نفسك!!

هنا علت ضحكات الرجل الملثم دون أدنى شعور بخوف، تملؤه الثقة بأن اللعبة لم تنته وأن قصتهما ما زالت تحمل بقية.. وأنه أبدا لن يستسلم.

قال بصوتٍ هادئ يبدو ساخرا، غير أنه يحمل بين طياته كرها لم يستطع (إبراهيم) أن يغفله

- حاول أن تمسكني... إن استطعت.

ثم قفز الرجل من السور إلى الناحية الأخرى، حيث امتدت مزرعة مهجورة مجاورة..

لم يتردد (إبراهيم) في الركض وراءه مع أنه يعلم بأن هذا السباق لن يكون في صالحه..

ومع ذلك ركض بأقصى سرعته، ثم قفز فوق السور، وهبط، ثم توقف (إبراهيم) فجأة، رفع سلاحه، وأطلق رصاصة طاشت في الهواء..

تجمد الرجل في مكانه، واستدار ببطء، وقال بصوت مرتفع، وصوت ساخر:

- أنت تعلم أنك لا تستطيع قتلي.. أليس كذلك؟

صوّب (إبراهيم) سلاحه مباشرة نحو جسد الرجل، وصاح بحدة:

- "إن لم تتوقف... سأقتلك!".

لكن...

قبل أن يتمكن الرجل من الرد...

دوّى صوت طلقة نارية من الخلف..

استدار (إبراهيم) بسرعة، قلبه يخفق بقوة، لكنه... لم يجد أحدًا..

عندما أعاد نظره إلى الأمام...

كان الرجل قد اختفى.

- تبًا!

ثم... فكر.

الطلقة خرجت من ناحية مزرعته، وبعد هنيه سمع صوت هدير سيارة مغادرة!

(فاطمة)!!

عاد بسرعة باتجاه المزرعة، قلبه ينبض بعنف، لم يكن هناك مجال للخطأ...

عندما وصل، وجد (فاطمة) ملقاة على الأرض، جسدها لا يتحرك، والدماء قد شكلت بقعة كبيرة من جانبها..

انحنى فوزا، رفع جسدها بين ذراعيه، كانت ما تزال تتنفس، لكنها ضعيفة.

- اصبري أرجوك، لا تموتي الآن!

قالها بصوت منخفض ملأه الخوف والرجاء..

هنا وصل رجال الشرطة مع سيارة الإسعاف، خاطبهم وهو يحمل المصابة:

- لقد كان هنا، لكنه هرب. حاولوا تتبع أثره إنه رجل يرتدي السواد بكامل جسده، كما أنه ثمة شخص آخر قام بمساعدته وهو من أطلق النار على فاطمة لكنه هرب مسرعا بالسيارة.

حاول بعضهم اللحاق بالمشتبه به وبعضهم ساعد (إبراهيم) على حمل المصابة.

فتح المسعفون باب سيارة الإسعاف، استلموا المصابة من إبراهيم، قدموا لها العناية الطبية اللازمة وأسعفوها إلى المستشفى، لحقهم إبراهيم بسيارته، كان سؤال يراوده طوال الطريق مفاده "من الذي أطلق النار على فاطمة؟" تلك الحادثة أكدت له أن ذلك المجرم لا يعمل منفردا، بل له معاون وربما معاونون لعلها عصابة كاملة من يدري؟!

في المستشفى...

بمجرد أن وصلت سيارة الإسعاف، اقتحموا قسم الطوارئ، تدافع الأطباء والممرضون نحوهم عندما شاهدوا الفتاة المصابة، أخذوها بسرعة إلى الداخل.

وقف إبراهيم للحظة، يراقبهم وهم يبعدونها عنه، ثم أخرج هاتفه، واتصل بـ (محمد).

ما إن أجاب (محمد) حتى قال بسرعة:

- تعال الآن المستشفى.. معي فتاة تم إطلاق النار عليها..

قالها وأنهى المكالمة دون حتى سماع الرد..

جلس على الكرسي المعدني خارج غرفة الطوارئ، عيناه معلقتان بالباب، منتظرًا الطبيب ليخرج.

بعد ساعة ونصف...

أخيرًا، فتح باب غرفة العمليات، وخرج الطبيب، يخلع قفازيه الجراحيين.

نهض (إبراهيم) فورًا، اقترب منه، وسأله بصوتٍ متوتر: "كيف حالها، أيها الطبيب؟".

أطلق الطبيب زفرة راحة، ثم قال بابتسامة صغيرة:

- "الحمد لله، حالتها مستقرة. الرصاصة لم تكن عميقة، وتمكنا من وقف النزيف. ستستعيد وعيها قريبًا إن شاء الله.".

تنفس (إبراهيم) الصعداء، ثم قال بسرعة: "هل يمكنني التحدث معها عندما تستيقظ؟".

هز الطبيب رأسه في رفض قاطع: "الفتاة متعبة... تحتاج إلى الراحة.".

لكن الوقت كان يزاحم (إبراهيم) ويضيق به الأمر الذي دفعه ليصر:

- "الأمر هام جدًا... ثمة مجرم طليق، وقد تكون لديها معلومة قيمة تساعدنا في القبض عليه.".

نظر إليه الطبيب بصمت لثوانٍ، ثم أومأ بتفهم: "سأدخل عليها، وأرى ما يمكنني فعله لأجلك.".

وقف (إبراهيم) هناك، يراقب الطبيب وهو يدخل إلى الغرفة...

يعلم أن هذه اللحظة قد تحمل مفتاح الحقيقة... أو تأخذه إلى

لحل جديد أكثر تعقيدًا.

ART_OF_BOOK

7

ظل الطبيب عند (فاطمة) ربع ساعة قبل أن يعود ويقول بصوتٍ هادئ:

- قد لا تكون في كامل وعيها، لكنها تستطيع التحدث. سأكون بالخارج في انتظارك، وعندما تنتهي، سأعود لأطمئن عليها... فهي تحتاج إلى الراحة.

أومأ (إبراهيم) بجدية: "لن يطول حديثي... شكرًا لك.".

دخل (إبراهيم) الغرفة. كانت (فاطمة) مستلقية على السرير، وجهها شاحب، عيناها متعبتان، لكن جهاز النبض بجانبها كان يبعث صوتًا منتظمًا، وكأنه يعيدها للحياة. شكلها يوحي بأنها تعرضت لمأساة حقيقية؛ شعرها المنكوش الأشعث، ورائحتها غير الطيبة يعربان أن الماء لم يسل على جسدها منذ مدة!

اقترب (إبراهيم) ببطء، ثم سأل بصوتٍ منخفض لكنه يحمل دفئًا لم تعتده منذ زمنٍ طويل:

@ART_OF_BOOK

- "كيف حالك الآن، (فاطمة)؟".

نظرت إليه بعينين غارقتين في التعب... ثم أشاحت بنظرها بعيدا.. كانت جميلة رغم ما فعلته الحادثة بها من أفاعيل، عيناها الزمرديتان جميلتان وإن ذبلتا، وخداها المشربان بالحمرة ما زالا سمة مميزة لذلك الوجه المدور الحنطي، لكن المأساة رسمت على تقاطيعها نقوشا بدت بعيدة الغور لا تندمل.

علم (إبراهيم) من اللحظة الأولى أن هذه الفتاة قد رأت الكثير.. حاول أن يبث بها بعض الأمان فبادر قائلا يستحث الدفء في نبرته:

- اسمي (إبراهيم)، وأنا هنا لمساعدتكِ.. هل أنتِ بخير؟

ظلت الفتاة على صمتها ونظراتها الشاردة، ثم قالت بعد لحظات بدت فيها متوترة غير مرتاحة في رقادها:

- لن أكون بخير.. أبدا لن أكون بخير.

سحب (إبراهيم) نفسا عميقا وكان يتفهم كثيرا حالتها غير أنه أراد أن يعرف المزيد..

- ماذا حدث يا (فاطمة)؟ وكيف اختطفك هذا الرجل؟

هزت (فاطمة) رأسها ثم قالت: كان هذا منذ زمن.

ضيق (إبراهيم) بين حاجبيه وهو يقول: كيف؟ منذ متى وأنتِ مختطفة..

أيضا هزت (فاطمة) رأسها دون أن تنظر إليه وقالت بصوت متحشرج بالكاد انعتق:

- لا أعلم.. ربما شهور أو سنوات.. لا أعرف.. لم أرَ الشمس ولو مرة، ولا أعرف متى كان يحين موعد المساء؟!

شعر (إبراهيم) بغضب يعتمل بداخله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

قالها بصوت خافت، ثم أضاف بحزم:

- "لكن الحمد لله، الآن أنت في المستشفى، وأنا مسؤول عنك. سأظل معك حتى نعرف كل شيء... نحتاج معرفة اسمك الكامل، وأي وسيلة توصلنا بعائلتك.".

بمجرد ذكره "العائلة"... أدارت وجهها إليه بشكل حاد.. وبدت وكأنها تقاوم دموعًا أرادت أن تنهمل.

همست بصوت مرتعش: عن أي عائلة تتحدث؟ والدي مات بسبب المرض... وأمي...

صمتت طويلا و(إبراهيم) يحدق فيها باهتمام، ثم أكملت حديثها قائلة: قُتلت.

ابتلع (إبراهيم) غصة مرة في حلقه، وحاول أن يحافظ على هدوئه، رغم أن قلبه يحترق من الداخل.

قال بلطف:

- "لهذا لم يصلنا أي بلاغ عن اختفائك... لم يكن هناك من يُبلغ!".

لم تجبه (فاطمة)، فقط سمحت لدموعها أن تسيل من عينيها ببطء، بصمت، بحزن، بألم؛ وكأنها لأول مرة تسمح لنفسها بالبكاء دون أن تخاف العقاب.

جلس (إبراهيم) على الكرسي بجانبها، ثم قال بصوت هادئ لكنه يحمل حزمًا لا يقبل الرفض أو الجدال:

- "فاطمة... أريدك أن تخبريني بكل شيء. منذ البداية.. أعلم أن الحديث عن الأمر يضايقك، لكنك فتاة قوية، ويجب أن تصبري؛ فحديثك مهم، وسيساعدنا كثيرا؛ لإلقاء القبض على الجاني. أريد أن أفهم منك كل ما حدث"

بدأت (فاطمة) تتحدث، كان صوتها خافتا، لكنها أظهرت نبذة واضحة من ماضيها المظلم مع الكابوس في كل كلمة لفظتها..

عاشت كل لحظاتها من جديد وهي تحكي لـ (إبراهيم) ما قد كان.

- كالمعتاد، كنت أخرج أنا ووالدتي كل يوم أحد إلى السوق. أصبح الأمر عادة أسبوعية، نذهب لنفس المكان، نشتري حاجيات المنزل التي تكفينا لأسبوع، ووالدتي تلتقي بصديقاتها هناك، يتحدثن طويلًا بينما أتجول حولهن، أحيانًا أنظر إلى المتاجر، وأحيانًا أتأمل الناس.

توقفت للحظة، وكأنها تتذكر ذلك اليوم العصيب تحديدًا.

- لكن تغير كل شيء وانقلب عالمي في يوم واحد..

. بدأت عيناها ترتجفان قليلًا، وكأنها رأت طيف الماضي أمامها!

- في ذلك اليوم، كانت هناك سيارة سوداء ضخمة تتحرك ببطء داخل السوق، وجدتها تتجه إليّ وكأنها تنتظرني وتتقصدني! مع رؤية هذه السيارة تبدلت ملامح أمي، وطلبت مني المشي سريعا إلى البيت.. ففعلت..

كانت تسير بجانبي، وتحثني على الركض، وقالت في صراخ:

- لا تلتفتي إلى السيارة، لا تنظري إليها... اصرفي نظرك عنه فورًا.

توقفت (فاطمة) للحظة، ثم همست، وكأنها تلوم نفسها:

- لكن... بكل غباء مني، نظرت إلى سيارته وحدقت بها طويلا وأنا أهرول بجوار أمي.. وعندما لاحظت ذلك توقفت وجذبتني بعنف، ثم هوت على وجهي بصفعة ما زلت أسمع صداها حتى هذه اللحظة..

تغيرت نبرتها، وكأنها تشعر بالندم العميق. تلمست (فاطمة) خدها في ألم وكأن الصفعة أصابتها للتو واللحظة، ثم أردفت:

- ما زال صراخ أمي يرن في أذني حتى اليوم، أتذكرها جيدا وهي تقول لي: لقد أخبرتك ألا تنظري إليه! يا ليتني سمعت

كلامها... يا ليتني لم أنظر.. لم أفهم حينها... لم أفهم لماذا كانت خائفة بهذا الشكل!

ازدردت (فاطمة) ريقها بصعوبة ثم أردفت:

- كانت السيارة تتحرك خلفنا ببطء، لم تحاول الاقتراب كثيرًا، لكنها لم تتركنا، وشعرت وكأن ظهري يحترق من نظرات أحدهم إلي.. كنت خائفة... لكن والدتي كانت مرعوبة أكثر.

أخذتني إلى زقاق صغير لا يمكن للسيارة الدخول إليه، كان هناك مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة، فدخلنا بسرعة بين الأزقة الضيقة.. ظللنا نمشي بسرعة، حتى وصلنا أخيرًا إلى المنزل، لكن... والدتي لم تتوقف عن النظر خلفها.. كان لديها شعور... أن الأمر لم ينتهِ بعد.. وعندما دخلنا المنزل، انفجرت غضبًا علي... صرخت، عاتبتني، ثم دخلت غرفتها ولم تخرج بعدها طوال الليل!

حتى صباح اليوم التالي... حيث بدأ الكابوس الحقيقي.

ذهبت إلى المدرسة وكان يومًا دراسيًا كالمعتاد... لا شيء جديد غير أنني عندما خرجت ومشيت إلى البيت كانت هناك نفس السيارة، وكانت تتبعني.. مشيت بسرعة أكبر نحو المنزل، ولكني كنت أسمع صوت محرك سيارته في كل خطوة... كأن أنفاسه تلاحقني!

عرفت أنني لن أتمكن من الهروب، فقررت أن أفعل ما فعلته والدتي، أن أبحث عن زقاق ضيق لا يستطيع الدخول إليه. كان من الصعب أن أجد واحدًا في هذا الحي الكبير، لكنني وجدت واحدًا أخيرًا... ودخلت بسرعة.

كان الممر طويلاً، ولم أبطئ سرعتي أبدًا... التفت خلفي، رأيت سيارته متوقفة عند مدخل الزقاق.

ثم... رأيته يترجل منها.. رجل لم أرَ منه شيئًا! خبأ حتى كفيه داخل قفازين من جلد أسود.

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

حرك (إبراهيم) رأسه يمينا ويسارا.. إنه ذات الرجل، بذات الوصف.. من العجيب أن تجد رجلا يخفي كل شبر في جسده في سواد.. وكأنه مجرد ظل لشيطان قد كسر قيده منذ زمن..

حث (إبراهيم) (فاطمة) فسألها بصوت خفيض:

- وماذا بعد ذلك؟

انفلتت دمعة من عينيْ (فاطمة) تعرب عن مقدار الألم الذي اعتراها جراء الذكرى، لكنها شحذت همتها، وواصلت سرد حكايتها الممضة:

- عدتُ بنظري للأمام، رأيت ممرًا آخر على اليمين، فدخلته، لكن...

"لكنني كنت غبية!".

"كان طريقًا مسدودًا!".

"وقفت في مكاني، جسدي كله كان يرتجف، وسمعت خطاه تقترب مني.".

"ثم... ظهر أمامي.".

"حاولت أن أتكلم، فقلت بصوتٍ مرتجف: ماذا تريد مني؟".

"ضحك قليلاً، ثم قال بصوتٍ هادئ، لكنه كان مليئًا بالقوة والسيطرة والسطوة:

- أريدك.".

"تراجعت للخلف، شعرت بظهري يصطدم بالجدار، لا مجال للهروب!".

"حاولت أن أصرخ، لكنه تقدم أكثر، أمسك بوجهي، وخلع النقاب عنه!".

"حدق في وجهي للحظات... ثم همس: نظرتي لكِ لم تخِب... تملكين عينين مميزتين، جعلتني أشعر أن ما وراء النقاب... فتاة

في غاية الجمال.".

"حاولت أن أدفعه بعيدًا، لكن قبضته كانت أقوى!".

"أخرج من جيبه جهاز تنفسي... كان مشبعًا برائحة غريبة وضعه على وجهي!".

"ثم ضغطه على أنفي وفمي بقوة...".

"حاولت أن أقاوم... حاولت أن أصرخ... لكنني شعرت بالدنيا تدور بي...".

"كل شيء أصبح مشوشًا... الظلام كان يزحف نحوي... حتى سقطت بين يديه!".

عندما استيقظت... عرفت بأن الكابوس قد بدأ..

"لا أعرف كم استمررت فاقدة الوعي.".

"لكن عندما فتحت عيني... كان المكان مظلمًا تمامًا.".

"حاولت أن أتحرك... لكنني كنت مكبلة!".

"يداي... قدماي... كل شيء كان مربوطًا!".

"بدأت بالصراخ، طلبت النجدة... لكن لم يأتِ أحد!".

"استمررت بالصراخ لساعات، أو هكذا شعرت... حتى سمعت أخيرًا وقع خطوات تنزل من درج خشبي.".

"ثم... فُتح الباب.".

"كان هو.".

"صرخت فوزًا، بكيت، ترجيته: أخرجني من هنا، أرجوك!".

"اقترب مني ببطء، ثم قال بصوتٍ بارد: لماذا تريدين الخروج؟".

"صرخت أكثر: أريد أمي!".

"لكن رده جعل قلبي يسقط في بطني.".

"قال ببرود: لكن أمك ماتت.".

"تجمدت! شعرت أن الهواء اختفى من حولي!".

"قلت له بصوتٍ ضعيف: أنت كاذب...".

"ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم قال: لقد ماتت... أو بالأحرى، قُتلت.".

"عندما رأى الرعب في عيني، اقترب أكثر.".

"لم يتوقف... لم يرحمني...".

كنت أظن أن خلعه لنقابي كان قمة في الانتهاك.. عشت أياما في ألم ورعب وقهر، ما عدت أشعر بأي شيء.. لقد ظننت بأن هذا هو الموت!

"كان كل ليلة.. يأتي إليّ، يكرّر نفس الجريمة، يضربني، ويرحل".

"حاولت أن أقاوم... حاولت أن أزهق روحي... لكنه لم يسمح لي حتى بذلك!".

ثم لا أعلم متى، ولكن بطني بدأت في الانتفاخ، وشعرت بلمسات أجنحة الفراشات تدور في أحشائي..

لم أكن أعلم ما هذا تحديدا، لكني علمت عندما حضرت سيدة عجوز شديدة السمار، ملامحها مخيفة..

كانت المرة الأولى التي أرى فيها إنسانا سواه منذ فترة طويلة..

ليتني ما رأيت..

نظرت إليّ نظرة واحدة، بعدها استدارت إليه وصفعته..

لم أكن أتخيل أبدا أن هذا الوحش الغامض يُصفع، بل وأيضا لم يحرك ساكنا.. ووقف بجسد محني، وذله واضح أمام هذه المرأة التي صرخت:

- أخبرتك ألا تفعل هذا! ما هذه المصيبة التي جلبتها لنا؟ أنت

خيبة أمل تسير على قدمين، تلهو وقتما تريد، وتنصرف عن مهمتك الأساسية!

وقتها أشار إلي وصوته قد امتلأ حقدا وهو يقول: سأقتلها، إن كان ذلك سيحل المشكلة.

ولكن المرأة قالت: لا تقتلها... أنا أريد الطفل..

صمتت قليلا وكأنها تتذكر حديثا دار بينها وبين سيدة ثم أردفت: سوف أبيعه، ثمة امرأة تدعى نجية، وقد أخبرتني أنها ترغب بطفل بأي طريقة لا يهمها إن كان عن طريق حلال أم حرام.

. تنهدت وأضافت: أعوذ بالله من بعض البشر!

صمتت ثم التفتت إلي بنظرات خالية من المعنى وقالت وكأنها تحاول سحب غضب افترضته لم يكن موجدا في داخلي إزاء الطفل، فقالت: لا تقلقي سوف يحظى بحياة رائعة فتلك المرأة لم تنجب، لكنها ورثت أموالا طائلة، ولا أظنها ستقصر معي، لعلي أثري من ورائها!

حينها قال الملفع بالسواد: سوف أتقاسم المال معك.

قالت موبخة: يا لجشعك!

رد بصلف: وإن كنت جشعا فمَن شابه أمه ما ظلم.

ردت: يا لك من غبي حتى الأمثال لا تعرفها! حسنا سوف أعطيك حفنة من المال ثمنا للمجهود العظيم الذي بذلته.

أمسكت (فاطمة) ببطنها بقوة وهي تقول:

- وضعت لهم طفلي، وأخذوه.. أتمنى أن يموت هذا الطفل وينتهي فلا رغبة لي أن أكون أما لطفل مشوه قذر مثل أبيه..

زفر المحقق (إبراهيم) من ثقل ما سمعه.. قد تركها تقول وتخبر عن كل ما يجول في خاطرها، وقد كان حقا أمرا جللا وشيئا ثقيلا..

كانت الفتاة تعيش حرفيا في جحيم مستعر..

سألها السؤال الأخير الذي أراد أن يسمع إجابته:

- ما شكله؟

لكن الإجابة لم تكن أبدا كما تصورها..

هزت رأسها وهي تقول:

- لم أره أبدا.. كان يتعمد إطفاء جميع الأنوار ولكن....

هنا اقشعر جسدها بشكل ملحوظ، وأحاطت نفسها بذراعيها تحميها من خطر خفي، وقالت:

. - لكنه لم يكن أبدا من البشر.. كان يملك جلد الثعابين.. ملمس ذراعه اليسرى وجانب وجهه خشنان وكأنه وحش قد خرج من مستنقع عميق.. فكرت كثيرا أن أحاول قتله، ولكني كنت واثقة بأنني لن أستطيع القضاء على هذا الكائن.. إنه ليس من البشر مطلقا.. صدقني..

شعر المحقق (إبراهيم) بتعب (فاطمة)؛ فلم يرغب في أن يزدها إرهاقا:

- "حسنا، دعينا نتوقف الآن... ونكمل غدا، ولكن بعد أن تجيبي على سؤالي الأخير... هل رأيتِ من أطلق عليكِ النار؟".

قالت بصوت مبحوح: كلا...

صمتت قليلا ثم رفعت يدها تشير إلى أظفارها الحادة وتقول: لكنني تمكنت من الخربشة على يده بأظفاري، لقد أراد سحبي فقاومته وحينها قرر إنهاء حياتي.

نظرت إليه (فاطمة) بعينين مليئتين بالحزن، ثم أومأت ببطء..

أغلقت عينيها، استسلمت للنوم، وكأنها كانت تقاتل فقط؛ لتكمل قصتها.

نهض (إبراهيم) من الكرسي، خرج من الغرفة، ووجد الطبيب واقفًا في انتظاره، يسأله بنبرة قلقة:

- "هل انتهت من سرد قصتها؟".

لم يجبه (إبراهيم) فوزا، بل تأمل ملامحه للحظات، ثم قال:

- "غدًا سأكون هنا... سأكمل التحقيق معها، وسأبقي حارسًا أمام غرفتها. لن يدخل أي شخص، مهما كان، حتى لو ادعى أنه قريب لها.".

أومأ الطبيب بتفهم، ثم وضع يده على كتف (إبراهيم) وقال بلطف:

- "أنت مرهق... عيناك تحكيان ذلك، عد إلى المنزل وخذ قسطًا من الراحة.".

تنهد (إبراهيم)، لكنه لم يجبه، فقط استدار وتحرك لبيته..

في نهاية هذا اليوم جلس على فراشه وهو يفكر في كل كلمة قالتها (فاطمة)..

- ارحمنا يا الله.

همس بها وهو يواجه في عقله كل شرور هذا العالم.. الشرور التي ما عادت تُعد ولا تُحصى!

***

كنت طفلا صغيرا حينما شاهدت النساء يحاولن شفاء أمي بأشيائهن الشعبية التي أمن بها بنتا عن أم، قدمن لها مختلف الوصفات والأعشاب الشعبية، ولا يمكنني نسيان ذلك اليوم حينما اجتمعن حولها وهن يحفين ذلك الشيء المعدني الكبير الذي عرفت اسمه لاحقا وهو "المحماس" ويدفقن فيه السائل العجيب المسمى "نافعة" فيبخرنها بما يخرج منه من دخان بغية شفائها من العين أو الحسد، وأنا رغم صغري كنت أعلم من خلال قول شقيقاتي أنها إنما أصيبت بتلك الحالة بسبب سقوطها على رأسها فلم تكن معيونة، بل كانت مريضة بمرض لم يكتشف الطب له علاجا.

وهذا ما حدث فعلا فلم يشف المحماس والدتي بل جعل حالتها تتراجع وتتدهور فبعد أن كانت وادعة رغم تراجع عقلها أصبحت شرسة تهجم على الجميع وتضرب الجميع بمن فيهم أنا الطفل الصغير لطالما ألقت علينا الأشياء فأصابتنا أحيانا، ونجونا منها أحيانا أخرى، حتى تدخل الأطباء وأعطوها ما أعطوها من أدوية ولم تتقبلها بقبول حسن حتى تدخلت شقيقاتي ونسوة الحي فأجبرنها على بلع الدواء، قاومت بشراسة لدرجة لم تتمكن امرأتان من الإمساك بها الأمر الذي ولد نظرية جديدة بأن تكون مسكونة بجني عتيد، ولما تدخلت مزيد من النسوة أوثقنها وجرعنها الدوا غصبا عنها، تلك الأدوية ردتها إلى الهدوء والسكينة فاستنامت إلى الوداعة وعادت إلى الصمت لا تتحدث كثيرا ولا تشعر بنا إلا كشعور الأطفال إزاء ما حولهم، أصعب أمر بالنسبة لي أنها لا تعلم أنها أمي وأنني ولدها، بل لما كبرت لعلي صرت أنا الأم بالنسبة لها أعطف عليها وأمازحها وألاعبها وكانت تأنس بذلك فأسر أيما سرور!

ART_OF_BOOK

8

الكاذب المحترف لا يرفع صوته ولا يتصبب عرقًا، بل يتحدث وكأنه يروي حقيقة عاشها. ينظر في عينيك بثبات، ويمنحك التفاصيل التي تعرف أن عقلك يتوق إليها. المشكلة أن عقلك يريد تصديقه لأنه يمنحك القصة التي تريد سماعها، حتى وإن كان جزء منك يهمس بأن كل كلمة خرجت منه كانت مسمومة.

صباح اليوم التالي كان (إبراهيم) أول من وصل إلى مركز الشرطة بعد زيارته اليومية لوالدته..

كانت في ذلك اليوم هادئة كنغمة رومانسية شفيفة وقد جلب إبراهيم إفطارا بسيطا معه عبارة عن طبقين من الفول وقرصين من خبز السكر "التميس" فتناولاه بشهية واحتسيا الشاي ثم خاطبها بقلب مكلوم: لم نستطع الوصول إلى يسر حتى الآن يا أمي!

ردت بنغمة طفولية: يسر... يسر...

@ART_OF_BOOK

ثم صفقت بطريقة غير واعية فأضاف: أجل يسر...

أخرج صورتها ووضعها أمام أمه: هذه يسر ابنتي.

قالت: يسر... حلوة...

أضاف بعدما مسح دموعه: أماه.

اقترب منها وأمسك يديها وأضاف: ادعي لها بالعودة... قولي يا الله أعد يسر لإبراهيم.

رفعت يديها ورددت: الله الله... يسر... إبراهيم.

خرج من عندها بعدما وسم قبلة على جبينها، وفي مكتبه تأمل فنجان قهوته الساخنة.. تجرع نصفها دفعة واحدة لعلها تقوم بسحرها في تنشيط وترتيب أفكار عقله الذي لا يكف عن التفكير..

أخرج مفكرة وقلما، وشرع في تنظيم أفكاره، الواحدة تلو الأخرى.. هناك بعض الخيوط المتناثرة هنا وهناك كان يحاول باستماتة تجميعها..

لكن الطرقات العالية على بابه انتشلته من عمق المحيط الذي كان يغوص فيه.. انتبه للقادم الذي لم يكن سوى (محمد) ومعه رئيس القسم، صدم إبراهيم من وجود الأخير هنا حاول الاتزان، نهض من مقعده وأدى التحية العسكرية لرئيسه ولما أراد إنزال يده زمجر الرئيس بقوله: أبقِ يدك مرفوعة بالتحية العسكرية أيها الجاهل.

أعاد إبراهيم يده في وضعية التحية العسكرية غير عالم لماذا كان رئيسه غاضبا هكذا حتى هدر صوت الرئيس مزمجرا:

- لقد تنامى إلى علمي المصائب التي اقترفتها يا إبراهيم في الليلة البارحة، هل تظن نفسك مخولا لفعل كل تلك المصائب دون أن تحاسب؟!

- لا أعلم عم تتحدث سيدي؟

- لا تعلم! أم أنك تتغابى؟!

- صدقني سيدي لا أعلم.

- إن كنت تعلم فتلك مصيبة، وإن كنت لا تعلم فالمصيبة أعظم... أنا أتحدث عن ذهابك إلى مسرح الجريمة وحدك... عن تعريضك تلك الفتاة للخطر، وعن إطلاقك العشوائي للنار... هذا عدا عن تحقيقك مع فتاة متعبة تلقت لتوها طلقة نارية!

هنا حاول محمد امتصاص الموقف بقوله:

- سيدي أعتقد أنني الملام في المسألة، فأنا من دفعته للاستعجال في القضية.

تفهم الرئيس كلام محمد وقال: حسنا سوف نرجئ الكلام في الموضوع لوقت آخر...

ثم أشار إلى مخمد وأضاف: يجب عليك تقدير هذا الرجل الذي يريد تحمل مسؤوليتك رغم أنه لا يلام فيما جرى. لكن اعلم أنك ستحاسب على كل ذلك، والآن أنزل يدك.

قال ذلك وغادر تاركا إياهما في المكتب، ربت محمد على إبراهيم مواسيا وخاطبه:

- لا تقلق سأكلمه على انفراد، لا شك وأنك قضيت ليلتك في هذا المكتب طالما أنت هنا في هذا الوقت من الصباح..

ابتسم له (إبراهيم) وأشار له بالجلوس:

- أصبحت حقا لا أرى البيت سوى لحظات.. وأظن أن هذا أفضل.. لا يحتاج البيت الخالي الكثير من الاهتمام كما تعلم.. لا أخفيك أن الجلوس في المنزل يشعرني بالضيق أجلس وحيدا لا أفعل شيئا سوى إشعال السيجارة بعقب السيجارة السابقة!

قال (إبراهيم) جملته الأخيرة بوجه سكنه الحزن الذي لا يتبدل..

قال محمد: أعتذر منك يا إبراهيم فلم أستطع الحضور إلى

المستشفى بسبب شواغل طارئة أعاقتني.

أجاب إبراهيم: ثمة مساعد يا محمد.

- مساعد!

- المشتبه به... لم يكن من أطلق النار على فاطمة، ثمة شخص آخر قام بالمهمة، كما أن الفتاة قامت بخربشة يد المجرم وهي تدافع عن نفسها.

- هذا ينقل القضية إلى مرحلة أخرى، سوف أطلب من فريق الأدلة فحص بقايا المجرم من لحم ودم الموجودة في أظفارها.

- أرجو أن نتوصل إلى نتائج مفيدة.

- ثمة خبر آخر... لقد أصدرت المحكمة الحكم بالسجن خمسة وعشرين عاما على المدعو سامي الذي قتل ابنته.

- جزاه وأقل، وماذا عن حفار القبور؟

- حكموه بالسجن أيضا.

طرق الباب بطريقة مهذبة.. تطلع كل من (إبراهيم) و(محمد) إلى المساعد نواف الذي قال بطريقة ديناميكية:

- سيدي هناك امرأة تريد مقابلتك.

أومأ له (إبراهيم) بأن يدخلها..

دخلت امرأة هزيلة تتشح بالسواد: أبحث عن المحقق (إبراهيم)..

أشار لها (إبراهيم) بالجلوس: تفضلي.. كيف أستطيع خدمتك؟

اقتربت المرأة وقالت بصوت متهدج باكٍ: سمعت أنك وجدت فتاة اسمها (فاطمة)!

انتبهت حواس (إبراهيم) و(محمد)، ثم قال (إبراهيم):

- نعم، يبدو أن الأخبار تنتشر أسرع مما أتخيل!

هزت المرأة رأسها ثم دخلت في نوبة بكاء شديد، تبادل الرجلان النظرات فيما بينهما، ثم قال (محمد) بنفاد صبر:

- هل تقربين للفتاة؟

بصعوبة أخرجت المرأة صوتها: إنها.. إنها ابنتي.

ضيق (محمد) عينيه ثم قال: لقد قرأت التحقيق، قالت الفتاة بأنك ميتة..

نهض (إبراهيم) وهو يوجه كلامه لـ (محمد): انتظر، كان هذا كلام خاطفها ليس إلا..

اقترب من المرأة المنتحبة وعقد ذراعيه أمامها وأنشأ يقول:

- إذا أنتِ أمها؟ ممم.. ولماذا لم تقومي بالتبليغ عن اختفائها؟!

هنا انفجرت المرأة بشكل أكبر في بكاء لا ينقطع:

- سامحه الله والدها.. لم يرغب في إثارة الفضائح حولها.. قال للناس بأنها ستقيم في أبها عند جدتها.. أما أنا فكنت أظنها ستعود كباقي الفتيات..

رفع (إبراهيم) حاجبيه وفكر قليلا ثم وجه المرأة إلى أن تجلس وتهدأ:

- أريدك أن تهدئي تماما وتخبريني ماذا تعنين بباقي الفتيات..

مدت المرأة المنديل من تحت نقابها تمسح به وجهها وأنفها، ثم سألت بلهفة:

- هل (فاطمة) بخير؟

هز (إبراهيم) رأسه: ستكون بخير لا تقلقي.. الآن ما حكاية باقي الفتيات؟

ازدردت المرأة ريقها وقالت:

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

- منذ أكثر من عام كان يحدث على فترات متفرقة اختفاء لبعض فتيات الحي.. لكن كُن يعُدن في اليوم التالي.. في بداية الأمر كنت أظنها مجرد إشاعة يتم تداولها حتى تأكدت أن ابنة جارتنا حدث معها هذا الأمر..

نظر (إبراهيم) لـ (محمد) باستغراب ودهشة واضحة، ثم عاد للمرأة بسؤال:

- أتعنين بأنهن كُن يُخطفن ويتعرضن للانتهاك، ثم يعُدن وكأن شيئا لم يكن..

هزت المرأة رأسها بعنف:

. - لا لا.. لم يكنّ يتعرضن لأي شيء.. ولهذا لم يتقدم أحد ببلاغ للشرطة.. كانوا يخافون على سمعة بناتهم..

نهض (إبراهيم) من مكانه غاضبا:

- من أجل خوف لا معنى له تركتم مجرما هاربا يقوم بما يحلو له!

نهضت المرأة أمامه وهي تصرخ في دفاع بالك:

- كنا نحمي بناتنا ونحامي عنهن، ولكن حرصنا لم يمنع قدرهن.. ما الذي يمكننا فعله أكثر من هذا؟

رد إبراهيم:

- عذر أقبح من ذنب!

قالت بنبرة تمانع شجوها:

- أنت لا تعلم ما الذي ينتظرهن إن انتشر الخبر، حياتهن تستحيل جحيما، ولا تتوقف الأعين من إلقاء بصرها المتهم ناحيتهن، ويُحرمن من أبسط حقوقهن حتى الزواج لن يرغب بهن أحد، حتى وإن عدن كما ذهبن دون أن يمسسن.

تحرك (إبراهيم) في يأس ثم جلس على مكتبه واستدعى مساعده نوافا:

- اذهب بالمرأة للمستشفى من أجل أن ترى ابنتها..

بعد أن غادرت المرأة وأغلق المساعد الباب وراءه تحدث (محمد) لـ (إبراهيم) الذي شرد تماما:

- ما رأيك؟

(إبراهيم): ذكرني كلامها بالأعمى العجوز أمام بيت (سامي).. أتذكر عندما سألنا إن كنا نريد أن نسمع الكلام الذي يقال عن ابنة (سامي) أم باقي البنات..

هذا الرجل يعلم الكثير ويجب أن أذهب للقائه..

هب (إبراهيم) من مكانه واقفا، ومعه (محمد) اتجها إلى المنطقة التي يسكن فيها (سامي)، هي ذاتها المنطقة التي يوجد بها بيت (فاطمة).. هناك أمر مريب في هذا المكان تحديدا ويجب عليه أن يقتفي أثره..

وصلا لبيت الرجل العجوز جار (سامي)، والذي يعرف بواصل، قبل أن يصلا إلى الباب وجدا بعض الصبية يرنون جرس بيته ويطرقون الباب بقوة ويهربون ولما وصلا كان محمد متقدما على إبراهيم جاء صراخ الحاج واصل ولما فتح الباب لوح بعصاه وهو يلقي بالشتائم: [4]

- يا أطفال يا أولاد الك... سوف آكل أكبادكم بعدما أشويها.

لكن الطريف في الأمر أن عصاه ضربت رأس محمد الذي كان في موقف لا يحسد عليه لكنه لم يجد بدا من تجاهل الأمر فخاطب العجوز:

- يا حاج... هذا أنا المحقق محمد الذي زرتك سابقا مع المحقق إبراهيم.

تنحنح العجوز بظهره المحني وخطوط وجه المتعرجة التي تحكي حكايات سنوات طوال، ويبدو أن هذه السنوات لم تؤثر كثيرا على ذاكرته؛ إذ قال في وقار:

- المحققان! أهلا بكما، تفضلا"1"...

دخلا فابتدر إبراهيم السؤال بلباقة: أشكرك سيدي.. لقد أتينا لسؤالك عن حوارنا الأخير.. أتذكر ما قلته لنا؟

تربع الرجل الهرم في بهو منزله على الأرض بعدما عد خطواته مستعينا بعصاه، كان البهو متواضعا قديما والأغراض متناثرة بطريقة شعبية، لكن النخلة التي احتلت المنتصف كانت جميلة وتبث في النفوس الطمأنينة.

جلس في تؤدة وبدأ يبربر نارجيلته الأثيرة ثم قال من بين دخانه المنتشر:

. - إبريق الشاي بجواركما، اخدما نفسيكما، فقط كي لا تقولا عني بخيلا.

صمت قليلا وهو يصيخ السمع ناحية محمد الذي بدأ يسكب لنفسه الشاي، وضع ثلاث معالق من السكر الصناعي وواصل يسمع خشخشة السكر قد طالت فعلم أنه يسرف في سكره، فلم يتمالك نفسه أن قال:

لقد استهلكت السكر يا ولدي، ألا تريد أن تصب لك الشاي في السكرية؟!

اعتذر محمد: آسف، أحب الشاي حلوا.

رد واصل: لا تهتم فقط أحببت تذكيرك أن السكر باهظ الثمن.

قال إبراهيم بنبرة غاضبة: دعوكما من السكر وأجب عن سؤالي.

رد واصل: أجل، كيف لا أتذكر.. أخبرني الجيران أنكم وجدتم ابنة (سامي) في قبر بعيد.. كانت البنت رقيقة ما كانت تستحق نهايتها هذه، فعلا قصتها حزينة.. لكن كيف حدث ذلك؟! أقدار الله.

جلس أمامه (إبراهيم) بينما ظل (محمد) على حاله واقفا

مسندا قدما على الجدار والأخرى في الأرض وهو يحتسي الشاي:

- هي أقدار الله كما قلت، لكن الله طلب منا أن نبتعد عن الهلاك، ومنذ مدة طويلة كان الهلاك يحيط بهذا الحي، ولم يحرك أحد ساكنا أو يقوم بتبليغ الشرطة..

نفخ الرجل في نارجيلته وقال بهدوء وقد فهم ما يرمي إليه (إبراهيم):

- لا تستطيع تغير عقول الناس بسهولة، العائلات تخاف من الفضائح أكثر من الموت نفسه.. يمكن يتغير هذا الشيء مع الوقت، لكن الآن هذا هو الحال..

تنفس (إبراهيم) بتثاقل وسأل بحزم:

- قلت لي مسبقا إن كلاما يدور حول بنات الحي، فما هو هذا الكلام؟

رد الرجل دون تفكير وكأنه يتوقع هذا السؤال تحديدا وقد أعد له إجابة مقتضبة:

- المستدرج!! سود الله وجهه.

أدار (إبراهيم) رأسه لـ (محمد) الذي رسم معالم عدم الفهم بدوره كان وجهه عبارة عن علامة استفهام كبيرة:

- من؟

نفخ الرجل دخانا كثيفا من أنفه وفمه وعاد ليقول:

- هذا لقبه في هذا الحي.. لأنه يستدرج بناتهم بأي طريقة ممكنة، ثم يرجعهن.. لا أحد يعرف من الذي يخطفهن ولا لماذا؟ والبنات كأنهن مقسمات بألا يتحدثن عن الموضوع أبدا.. وحتى لما يعرف الأهالي أن بناتهم ما زلن أبكارا!

شرد (إبراهيم) للحظات ثم سأل بتمعن: لا أحد يعرف من ولماذا؟

أومأ العجوز رأسه: صحيح، لكنني أعرف..

اتسعت عينا (محمد) وتحفز جسد (إبراهيم) للقادم فقال الرجل بهدوء:

- عبير ابنة ولدي وصديقتي الصغيرة كان من نصيبها للأسف أنها وقعت في يد أسود الوجه هذا.. أخبرتني كل الذي حدث معها بشرط ألا أخبر أحدا بهذا الكلام.. وأنا حتى اليوم كنت عند وعدي، حافظت على هذا السر إلى أن جئتما..

قال (محمد) بنفاد صبر:

- ها... وما الذي أخبرتك به؟

ترك العجوز ماسورة النارجيلة، وقال بقلب ثقيل:

- في العادة عبير لا تخرج وحدها، لكن هذه المرة كانت المرة الوحيدة التي قررت فيها الذهاب إلى منزل صديقتها.. كان الطريق إلى بيت صديقتها في هذا الوقت مخيفا، ويجعلنا نقلق، طريق وعر لا يمر منه لا إنسان ولا حيوان... أتعلمان من الذي يمر منه؟! فقط الجن والشياطين شياطين الإنس والجن... وهي ذهبت في هذا الطريق! أتت سيارة مسرعة، واقتربت منها ووقفت.. نزل منها رجل ملثم، لا ليس رجلا، بل شيطان من شياطين أبناء الحرام، قام بتخديرها فورا واختطفها، ولما استفاقت وجدت نفسها في قبو عطن..

لم تر وجهه أبدا، ظل يلتقط لها صورا بالكاميرا إلى أن أتت امرأة مسنة. تقول عبير بأنها صرخت في وجهه وقالت له:

- "أنت لن تهدأ حتى تأتي لنا بمصيبة أخرى، ألا يكفي الفتاة التي ماتت.. ليتك كنت نصف الرجل الذي كان عليه أخوك. أعدها الآن، وكف عن إحضار المزيد من الفتيات هنا أيها المريض".

ذهبت العجوز، واقترب الرجل ابن إبليس من ابنيتي عبير، ومعه جهاز غريب يبدو مخدرا! وضعه على فمها إنه حقير فعلا،

كنم به أنفاسها وحينما تنفست هذا الاكسجين غابت عن الوعي، وهو يقول لها:

- "كنت سأعيدك على أي حال، فأنت لست جميلة بالقدر الكافي".

عادت عبير، وقبل ما يرميها كان الوعي قد عاد لها فقال الملعون:

- إن نطقت بحرف واحد قتلت عائلتك أمام عينيك.

ومن هنا عرفت لماذا لا أحد يتكلم من البنات عن الذي يجري معهن.. مخوفات... مرتعبات... قلبهن واجف...

استمع كل من (إبراهيم) و(محمد) لحكاية الرجل دون مقاطعة، وبعد انتهائه سأله (إبراهيم):

- ما لون سيارته؟

ابتسم العجوز في وهن وقال:

- سألتها نفس السؤال، وكأنني سوف أمسك به من لون سيارته.. تقول زرقاء..

خاب أمل (إبراهيم)، كان يتمنى أن تكون سيارته سوداء، لكن من الواضح أن المجرم لن يربط نفسه بسيارة محددة، وإلا تعرفت على سيارته الفتيات اللاتي يخطفهن..

شكر (إبراهيم) و(محمد) العجوز وهما بالخروج، لكنه استوقفهما قائلا: ألا تريدان رطبا؟

تلفت محمد يمينا وشمالا يبحث عن الرطب ولعابه يسيل، لكنه لم يجد شيئا فقال: لكن أين الرطب؟

رد العجوز: حاضر، من الواضح أنك تعشق الطعام يا ولدي.

قال ذلك وقام ثم وضع ثوبه في فمه رافعا إياه ثم تحسس مكان النخلة بعصاه ولما ضربت العصا في جذعها تسلقها رغم طولها وبدأ يخرف منها تمر الرطب ويلقيه عليهما، ألقى أول

ART_OF_BOOK

ثمرة فلم يتمكن محمد من التقاطها سمع العجوز صوت وقوعها على الأرض فقال من بين الثوب الناشب في فمه:

- التقط جيدا... هل أنا الأعمى أم أنت؟

رد محمد: أنت قذفت بها بعيدا يا عم!

رد بصلف: خسئت.

تميز محمد غضبا إذ يرى هذا العجوز النزق يهدر كرامته بمناسبة وبدون مناسبة وهو على ما هو عليه محقق محترم لم يجرؤ أحد غير هذا المسن على الإساءة إليه دون أن تكون لديه القدرة على ردعه، فما الذي يمكنه فعله لعجوز مسن أعمى ليس لديه ما يخسره؟!

لكنه حاول قول شيء يدافع به عن نفسه:

- يبدو أنني سأودعك السجن أيها العجوز بتهمة إهانة رجل يمثل القانون.

رد بنفس العنجهية: لا يهمني تهديدك، لا تستطيع فعل شيء، ابن زوجتي المسنة هددني قبلك ولم يفعل شيئا، ولست بأحسن منه.

التقط محمد الرطب من الأرض محاولا تجاهل الإهانة، ولما نزل الرجل المسن خاطبه محمد: أين المغسلة يا عجوز؟

رد العجوز: ماذا تريد بالمغسلة؟

أجاب محمد: أريد غسل الرطب.

رد العجوز: كله دون غسيل.

أخذ العجوز حبة رطب وبدأ يفركها بثوبه المتسخ، ثم ازدردها دفعة واحدة.

خرجا محملين بالرطب الجني، يسيران حيث سيارتهما التي أوقفاها في المكان الظليل.. أخرج (إبراهيم) لفافة تبغ من جيبه ووضعها بين شفتيه.. استغرب (محمد) فعلته هذه:

- هل عدت للتدخين؟

قال (إبراهيم) في غير اكتراث: لقد تركتني من جعلتني أمنعه، فلماذا علي الانصياع لطلب إنسانة ما عادت موجودة في حياتي..

استنكر (محمد) حديثه هذا: اهتم بصحتك يا (إبراهيم)، ستعود إليك زوجتك وابنتك وتعيش بين عائلتك فاهتم بنفسك أكثر..

لوح (إبراهيم) بذراعه لإنهاء الحوار القائم:

- دعك من كل هذا، ما رأيك فيما يحدث في هذا الحي.. أظن أننا يجب أن نكثف فيه المراقبة، فما يحدث أمر جلل... أمر مهول، لا يرضى به أحد... فتيات تُخطف وتُعاد ونحن لا علم لنا بالأمر! ما الذي نفعله إذن؟! ما مهمتنا إن لم ننقذهن من ذلك البرثن؟! يجب أن نفعل شيئا، لا أريد لما حدث لابنتي أن يحدث لبنات أخريات!

قال (محمد) بغضب:

- ومع المراقبة أرجو أن نكثف حملات التوعية للعائلات التي تخاف الفضيحة، يجب افهامهن أن الفتاة التي تتعرض لأي أذى فإن ذلك عار على فاعله لا عليهن، وأنهن مجرد ضحايا لا ناقة لهن ولا جمل! العار الحقيقي على المجتمع إن تركهن دون حماية..

كان حديث (محمد) غاضبا وكان (إبراهيم) يتفهم غضبه هذا، فلقد كانت النار متأججة في روحه أكثر من صديقه. لكنه بخلاف (محمد) قادر على ضبط النفس في هذه اللحظة على الأقل..

مرت بجوارهما سيارة حمراء سريعة فتطلع كلاهما إلى السيارة التي انعطفت إلى شارع جانبي، قال (إبراهيم):

- تحتاج هذه المنطقة أيضا إلى شرطة مرور قوية..

صمتا هنيهة ثم قال (إبراهيم): اريد منك متابعة ملف السيارات المسروقة؛ لا شك وأن هذا المجرم يقوم بسرقة السيارات حتى يخفي أثاره ويموه على أجهزة الأمن.

(محمد): سوف أفعل.

تعالى رنين هاتف (إبراهيم)، أخرجه من جيبه، ورفعه إلى أذنه ليسمع صوت مساعده نواف وهو يقول:

- سيدي، لدي أخبار سيئة..

زفر (إبراهيم) في ضيق: قل ما لديك يا نواف..

قال المساعد بتلجلج: ذهبت بالمرأة لرؤية ابنتها، ولكن عند دخولنا الغرفة وجدنا الحارس والطبيب والفتاة قد قُتلوا!

تجمد (إبراهيم) في مكانه، ولم يتحرك وكأن الزمن قد توقف تماما، وكان عقله رافضا استيعاب الجملة التي قيلت منذ قليل..

توجس (محمد) خيفة بسبب تغير لون صديقه وهيئته، وعلم أن الأمر بالغ الخطورة، قال (إبراهيم) بإيجاز:

- سآتي حالا..

***

نقر الكابوس بقفازه الأسود على مقود السيارة أمامه وهو يبتسم من خلف قناعه.. لقد مر بجانب المحقق المخضرم وصديقه دون أن ينتبها له.. مر وزاد من سرعته خصيصا ليلتفتا إلى السيارة الحمراء بحيرة وغضب من السائق المتهور ولا علم لهما بأن من بداخل هذه السيارة أكثر من مجرد سائق أرعن لا يهتم بسلامة الطريق..

كان يراقب أحد المنازل لأسبوع كامل، ففي هذا البيت فتاة لفتت انتباهه وجذبتها إليها فقرر أن يحصل عليها مهما كان الثمن..

بيد أنها لم تكن تخرج وحدها مطلقا، دائما تخرج بصحبة

والدتها وأختها يذهبن للصالون الذي يديرونه.. يذهبن سويا ويغدن سويا.. ولكنه اليوم لن ينتظر أكثر، وسيصل إليها بطريقة أو بأخرى..

***

شعر (إبراهيم) وهو يقود سيارته بأقصى سرعة أن كل شيء ينهار من حوله، وكأن الخيط الوحيد الذي كان يمسك به لكشف هذا المجرم قد قُطع أمام عينيه..

- تبا... (فاطمة)!!

توقف (إبراهيم) أمام بوابة الطوارئ، نزل بسرعة، لم يهتم بإيقاف السيارة، فقط أعطى المفتاح لأحد حراس الأمن الذي كان يعرفه، وقال له بسرعة:

- "أوقفها في أي مكان، قريبا".

لم يسأل الحارس شيئا، فقط أخذ المفتاح وأومأ له، بينما كان (إبراهيم) يركض إلى الداخل.

اتجه إلى غرفة (فاطمة)...

تأكد من الواقع المرير عندما رأى مساعده (نوافا) واقفا في أسف بينما الأم المكلومة قد سقطت على الأرض القريبة تنتحب وتولول..

ذهب إلى (نواف) سريعا، وسأله بصوت ممتلئ بالغضب وخيبة الامل:

- أخبرني ماذا حدث؟!

رفع (نواف) يده محاولا تهدئته: تمهل سيدي واهدأ، سأخبرك بكل شيء.

رفع (نواف) نبرته الخافتة وهو يستعرض لقطات كاميرات المراقبة بالمستشفى:

- راجعت الكاميرات القريبة من هنا.. منذ أكثر من ساعة

حضر الطبيب ودخل مع الحارس، لأنك أمرت ألا يدخل أحد على (فاطمة) دون حراسة.. دخلا لغرفة (فاطمة) ولم يخرجا منها، أكثر من ساعة كاملة قد مرت قبل اكتشاف الجثث الثلاث..

فكر (إبراهيم) للحظة، ثم سأل: وهل تابعت الكاميرات قبل هذا الوقت..

أجاب (نواف) بثقة: نعم، لقد تأكدت بنفسي أن الحارس لم يغادر موقعه ولم يدخل على (فاطمة) أي شخص إلا مع وجود الحارس، رحمه الله لقد نفذ تعليمات سيادتكم بدقة ولم يتخل عن الفتاة ولم يتركها لحظة..

مسح (إبراهيم) على وجهه وهو يتمتم: والآن ماذا؟

فقال (محمد) سريعا: إبراهيم ارتدِ غطاء الأحذية والقفازات، ودعنا ندخل مسرح الجريمة قبل أن يأتي باقي الفريق ويزدحم المكان..

استحسن (إبراهيم) هذه الفكرة فسارع بتنفيذها، ودخلا إلى الغرفة حيث كانت الجثث الثلاث؛ جثة (فاطمة) النائمة على سريرها شحبت منها الحياة في سلام، أما جثتا الحارس والطبيب فكانتا الأكثر بشاعة..

أمام باب دورة المياه المفتوح كان الحارس ملقى على ظهره مع وجود نحر واضح في رقبته، وأما الطبيب فكان قريبا من باب الغرفة مطعونا في ظهره وكانت جثته ملقاة على وجهها..

تفحص المكان بدقة مرارا وتكرارا يحاول تجميع الخيوط المتاحة من خلال وضعيات الجثث وحالاتها والاحتمالات التي من الممكن أن تؤدي بها إلى هذا الشكل من الوضعيات، كانت أفكاره مركزة على المكان بكل تفاصيله أغمض عينيه وقد انتقش المسرح بتمامه في رأسه تمعن طويلا يفكر ويعصف ذهنه يحاول معرفة ما حدث في هذا المكان، فتح عينيه بعد دقائق كانت كافية ليستعرض (إبراهيم) في عقله كيف تمت

الجريمة لعله الاحتمال الأبرز الذي اقتدح في مخيلته..

تحرك لمنتصف الغرفة وهو ويقول:

- فاطمة قُتلت أثناء نومها، طبقا لشحوبها الواضح واللون الأزرق على وجنتيها فقد تم خنقها..

صمت إبراهيم قليلا يقلب بصره في مسرح الجريمة، ثم ألقى نظرة على جثة الفتاة وتمتم بصوت هامس: فاطمة... فاطمة!

أكمل جولته التفحصية بعينين نهمتين ثم طرقع بإصبعيه وقال:

- الفتاة الأولى اسمها فاطمة، والفتاة الثانية اسمها فاطمة أيضا... هل تظن أنه يستهدف الفتيات بنفس الاسم؟

تفكر محمد قليلا ثم قال: لا أعتقد... فاطمة الأولى قتلت على يد والدها سامي.

حينها أبعد إبراهيم الفكرة من عقله، لكنه ما زال يبحث في المكان وكأنه ينقب عن ثغرة تقوده إلى أي خيط.

أشار (إبراهيم) للوسادة الملقاة على الأرض. الطريقة التقليدية للخنق.. لا يحتاج الانسان أكثر من وسادة وثيرة ليقطع الأنفاس عن أعدائه..

ثم أشار للحارس وهو يقول:

- أما هذا فقد تمت مباغتته.. لقد شعر القاتل بأن أحدهم سيدخل للغرفة فاختبأ في دورة المياه، وعند سماعه وقع خطى قريبة فتح الباب وانقض على الحارس من الخلف ونحره من حلقه بشكل واضح..

انظر لشكل الجرح في حلقه، هذا ليس سكيناً عاديا.. هذا أثر واضح لخنجر.. الخنجر هي الأداء القادرة على إحداث جرح بهذا الشكل الغائر..

أما الطبيب فقد أصابه الذعر وحاول الهروب واتجه لباب

الغرفة غير أن القاتل لحق به وسدد إليه طعنة نافذة من نفس الخنجر كانت كفيلة بإسقاطه صريعا..

تأمل (محمد) أشكال الجثث الثلاث وظل يتابع (إبراهيم) حتى انتهى.. لقد رسم الأخير مشهدا كاملا وتفسيرا واضحا منطقيا لا يقبل الشك.. لولا صعوبة الموقف لكان صفق له انبهارا بتحليله الدقيق..

لكن (إبراهيم) كان يتجول في شرود يفكر في أمر هام.. أخرج صوته في سؤال واحد:

- كيف دخل القاتل إلى هنا؟ النافذة لا تُفتح من الخارج.. ولا مجال للدخول من الباب..

رفع (إبراهيم) رأسه للأعلى فكان هناك فتحة تهوية كجميع الغرف..

ضيق عينيه وهو يتأمل هذه الفتحة فسأله (محمد):

- أيعقل أن يكون قد أتى من هنا؟

هز (إبراهيم) رأسه في شك: لقد رأيت المشتبه به في المزرعة، إنه يملك جسدا ضخما، لو كان قد تحرك في فتحة التهوية تلك لكان تحركه بالغ الصعوبة..

نظر (إبراهيم) للأرض تحت هذه الفتحة فوجد بقعة دم صغيرة.. فأشار إليها:

- انظر.. هذه البقعة بعيدة عن بركة الدماء الخاصة بالحارس.. لو كان تفكيري صحيحا، فنقطة الدماء هذه ستكون مفيدة بشكل كبير..

لم ينتظر (إبراهيم) ردا من (محمد).. سحب كرسيا ووقف عليه وفك غطاء فتحة التهوية بالسقف، مد رأسه للداخل وأدار رأسه يتطلع لكل زاوية بتركيز حتى هلل منتصرا:

- وجدتها..

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

بيده التي كان قد ألبسها قفازا مطاطيا سحب قطعة صغيرة من قماش أسود..

نزل إلى الأرض وهو ويقول:

- كما أخبرتك، كان تحركه شديد الصعوبة، الطرف المدبب لفتحة التهوية قد مزق قطعة من ثيابه وجرحه..

نزل (إبراهيم) بجسده بجوار نقطة الدماء وهو يقول بشكل استعراضي:

- أقدم لك دماء القاتل..

ثم عاد لينظر للأعلى وهو يقول في إقرار:

- بالتأكيد قد هرب بنفس الطريقة؛ نحن نبحث عن مجرم يحسب خطواته بشكل جيد ومدروس.. لا يترك أمرا إلا وقتله بحثا..

وجه كلامه لـ (محمد): اتصل بالقسم الجنائي واستعجل حضورهم، ودعهم يفحصون الغرفة بالكامل، أشك أنهم سيجدون بصمة واحدة، قم بتنبيههم أنهم يجب أن يتحلوا بالحرص الكامل وهم يتعاملون مع نقطة الدماء الغالية هذه..

أخرج (محمد) هاتفه وبدأ اتصاله، بينما ظل (إبراهيم) يتفقد المكان بعيني صقر متربص، فجأ لمح ظرفا بنيا على المائدة بجوار جثة (فاطمة)، اتجه إليه سريعا وفتح الورقة بداخله.. إنه ذات الخط المنمق الذي رآه كثيرا في مثل هذه الظروف البنية الغريبة، قرأ ما فيه:

- "أنا أقرب إليك من خيالك.. ولكنك لا تراني.. فمن أنا؟".

اقترب (محمد) من (إبراهيم) وقرأ ما بداخل الورقة وتساءل:

- هل تعتقد أنه ما يزال في المستشفى؟

أجابه (إبراهيم): لا أظن، ومع ذلك يجب الاحتياط لهذا الأمر، سنبحث في كل مكان وبخاصة فتحات التهوية، والغرف التي لا

تُفتح كثيرا..

انطلق الجميع بحثا في هذا المستشفى الضخم، والهواء مشحون بالتوتر والصدمة، على أمل أن تقربهم كل خطوة من كشف الحقيقة وراء هذه الجريمة البشعة، أما (إبراهيم) فلم يشترك معهم في بحثهم الفضني، بل ظل يتأمل الرسالة التي علم منذ اللحظة الأولى أنها موجهة إليه..

إذ هو قريب.. بشكل كبير.. ولكنه لا يُرى.. من!! من يكون!!!

كان رجال البحث الجنائي قد وصلوا وطوقوا المنطقة كمسرح جريمة، وكل شيء فيها يعد دليلا ويمنع دخول غير المصرح لهم من غير المختصين، كان أحدهم يقوم برفع عينة الدم لتحليلها، سأله (إبراهيم) عن مدة ظهور النتائج فقد كان متلهفا لمعرفة لمن تعود تلك الدماء:

- كم من الوقت يستغرق التحليل وظهور النتائج المخبرية؟

أجاب الرجل دون أن يرفع رأسه؛ كي لا يهمل عمله: عدة أيام غالبا.

سأل مجددا: وماذا عن البقايا التي وجدناها في أظافر فاطمة؟

رد باقتضاب: ستخرج نتائجها قريبا.

كان مجموعة منهم يبحثون عن بصمات والبقية ينظرون في مسرح الجريمة يبحثون عن أي خيط يقود لأي شيء...

***

ظل الكابوس على جلسته وفي مكانه المترقب، أمسك بساعده وضغط عليه في ألم وهو يقول من بين أسنانه:

- تبا لفتحات التهوية الضيقة..

تم تحفز جسده بالكامل عندما وجد صبيا يخرج من البيت الذي يراقبه، وينضم لأصدقائه، ويشرع معهم في لعب طويل

بالكُرة.. ابتسم الكابوس ابتسامة جانبية وهو يتابع من بعيد كل ما يدور..

القسم الثاني

1

ربما ليس اليوم... ولا غدًا... ولكن سيحين ذلك الوقت لنصبح نجومًا يفتخر بنا الكون

***

تعالت أصوات الصبية في ذلك الحي الشعبي المتواضع، حيث كانت شمس المغيب تلقي بظلالها الدافئة على الشوارع التي شهدت الكثير. كانت حارات مدينة المبرز القديمة ضيقة لكنها مكتظة بالمارة الذين يغدون ويروحون طلبا للرزق أو قضا للحوائج، وبعض الرجال وقف على ناصية الشارع يتسكع مع أصدقائه يدخنون ويثرثرون بما لا طائل من ورائه، بعض الصبية تشاغلوا بلعبهم كرة القدم وغيرها من ألعاب شعبية...

وسط الضجيج، كان (قاسم) يركض بحماسة، محاولًا تسجيل هدف في مباراة كرة قدم حماسية تجمعه بأصدقائه، عندما سمع صوتًا مألوفًا يناديه:

- قاسم! قاسم!

التفت بسرعة؛ فرأى شقيقته واقفة عند باب المنزل، تلوح له بيدها.

توقف عن اللعب وأشار لأصدقائه بإيقاف المباراة للحظات، فامتثل الجميع، واقفين في أماكنهم وكأنهم في انتظار الحكم النهائي. سار (قاسم) إلى الداخل، ليجد والدته تقف عند المدخل، تنظر إليه بنظرةٍ يملؤها العتاب، خاطبته بحب:

- "هل أنهيت فروضك المدرسية؟".

أخفض (قاسم) رأسه قليلاً، وكأنه يعرف مسبقًا ما هو آت، ثم تمتم بصوتٍ منخفض:

- "لا... لكني أعدك أنني سأنهيها الليلة."

لم تبدُ والدته مقتنعة، فلطالما اعتادت على وعوده التي لا تتحقق خصوصا تلك التي تتعلق بالمدرسة؛ لذا قالت بحزم قاطع:

- "لا أريد نقاشًا. اعتذر من أصدقائك، وأخبرهم أنك ستكمل دروسك، لعل أحدهم يقتدي بك، ويعود لمنزله ليذاكر وينجح."

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتي (قاسم) عندما ذكرت والدته أصدقاءه، ثم علّق بسخرية رائقة:

- "لا أعتقد أن ذلك سيحدث يومًا ما."

خرج من المنزل ممتعضًا يروم الاعتذار من أصدقائه تلبية لرغبة والدته، بينما عادت والدته إلى المطبخ، حيث كانت (مشاعل) واقفة أمام الحوض، تدندن أغنية بصوتٍ ناعم وهي تغسل أطباق الغداء.

ابتسمت الأم وهي تراقبها، ثم قالت:

- (مشاعل)، عليكِ أن تُسرعي، يجب أن نذهب لفتح الصالون.

ردت (مشاعل) دون أن تلتفت، منشغلةً بما أمامها:

- اذهبي مع فاطمة، وسألحق بكما بعد أن أنتهي من هذه الحرب التي لا تريد أن تنتهي."

تنهدت الأم، وقالت وهي تهمّ بالمغادرة:

- أعانك الله... لكن لا تتأخري، فأنت مطلوبة أكثر منا هناك. وإذا عاد شقيقك (قاسم) ولم يبدأ المذاكرة، فلقنيه درسًا.

رفعت (مشاعل) رأسها بفخر مصطنع، ثم قالت وهي تتفحص أظافرها:

- ها أنت ذي قد قلتها، أنا مطلوبة أكثر منكما هناك. ولهذا السبب يجب أن تعتنوا بأناملي الناعمة، ولا تُغرقوني في الأعمال التي لا طائل منها.. فتاة رقيقة وجميلة مثلي لا يجب أن تُرهق هكذا!

. ضحكت الأم، والتفتت قبل أن تخرج قائلةً بمكر:

- عندما تتزوجين، اطلبي من زوجك أن يهتمّ بأناملك الرقيقة كما تزعمين، وليجلب لكِ ما يشاء من الخدم والحشم. أما هنا... فأنتِ في مملكتي، وتنفذين قوانيني.

عادت (مشاعل) إلى دندنتها وغادرت والدتها وشقيقتها فاطمة إلى الصالون.

بعد دقائق، انتهت من جلي الصحون، وتوجهت إلى الصالة، حيث وجدت (قاسما) مستلقيًا على الأريكة، غارقًا في متابعة التلفاز.

توقفت عند الباب، ثم قالت بلهجة غاضبة:

- لماذا لم تبدأ بإنجاز فروضك المدرسية؟!

تنهد (قاسم)، وكأنه كان يتوقع هذا الهجوم، ثم التقط جهاز التحكم عن بعد وأطفأ التلفاز ببطء:

- الان سأبدأ.

نهض بسرعة، واتجه إلى غرفته، لكن (مشاعل) لم تتركه وشأنه، فلحقته، ووقفت عند الباب قائلةً بجدية:

- متى ستصبح رجلاً وتبدأ بالاهتمام بمستقبلك؟! كل ما

نفعله، نفعله من أجلك!

رفع (قاسم) حاجبه بسخرية وهو يجلس إلى مكتبه، ثم قال:

- سأهتم بمستقبلي بعد أن تخرجي من الغرفة، أنت تشتتينني!

ابتسمت (مشاعل) بمرح، وقالت وهي تميل برأسها بمكر:

- هل تلبستك روح الطالب المجتهد فجأة؟

أشاح (قاسم) بوجهه عنها، وأشار بيده إلى الباب قائلاً بنبرة جادة:

- هيا، أغلقي الباب خلفك.

اقتربت منه (مشاعل) في مرح وهي تقول:

- سأجعلك تجلس من أجل دراستك في حماس أكبر من هذا.

انتبه لها (قاسم) ومال بجذعه إليها في إنصات:

- كيف؟

مدت (مشاعل) كفها في جيبها وأخرجت عملات نقدية وقالت له:

- هيا اذهب أحضر لنفسك الحلوى والعصائر من البقالة القريبة..

قفز (قاسم) في فرحة عارمة، واحتضن أخته، وقبّل وجنتها وهو يقول:

- أعظم مشاعل على وجه الكوكب أنتِ والله..

أبعدته وهي تمسح بقرف مصطنع قبلته المبتلة التي طبعها على وجهها:

- لا تلتصق بي كالذباب.. اذهب ولا تتأخر.. يجب أن ألحق بأمك للمشغل وإلا خرجت الأمور عن السيطرة..

وضع قدميه في نعليه وركض للخارج في حماسة وهو يصرخ بسعادة:

- لن أتأخر..

قطع وعدا على نفسه.. وعدا للأسف لن يستطيع أن يبر به مهما حاول.. فهناك خارج بيتهم من يتابع ويترقب وينتظر كل ليلة حتى تأتي اللحظة المناسبة..

وها قد أتت..

لمعت عيناه وهو يرى الغلام يتقافز أمامه ويركض في سعادة، فرفع هاتفه واتصل برقم ما، فرد الطرف الآخر سريعا:

- مرني سيدي..

قال الكابوس جملتين مقتضبتين:

- خرج الصبي وحده، افعل ما أمرتك به..

حينما دخلت (مشاعل) المشغل وجدت أمها في استقبالها خاطبتها بصوت هامس خفيض:

- لم تأخرتِ؟ ثمة فتاة وأمها تنتظرانك.

قالت (مشاعل): ها أنا ذي قد جئت هل سيطير العالم؟!

حثتها أمها على البدء بالعمل: اذهبي إلى العروس.

دخلت (مشاعل) الغرفة التي أشارت أمها إليها لكنها صدمت من منظر الفتاة! إنها فتاة صغيرة بالكاد دخلت سن الثامنة عشر فكيف لها أن تتزوج وهي طفلة؟! هذا ما تبادر إلى ذهن (مشاعل) أول الامر، لكن الأمر الذي صدمها أكثر ليس سن الفتاة الصغيرة بل ما شاهدته من كدمات على وجهها وساعدها، استقبلتها أم الفتاة بوجه متجهم سألت (مشاعل) الفتاة:

- ما الذي حل بك يا حبيبتي؟!

لكن تجهم أم الفتاة لم يشجع (مشاعل) على حديثها، ابتدرت

الأم الحديث بنفس التجهم:

- إنها قد تعرضت للضرب من أبيها، وزواجها الليلة أرجوك يا بنتي هلا أخفيت تلك الكدمات؟ فلا نريد لها أن تصبح مضغة الألسن في ليلة فرحها.

كانت (مشاعل) تشعر بالتناقض بين كلمة فرحها وما تبثه الأم من شعور كئيب! لكنها لم ترد قول شيء فوعدت الأم أن تفعل ما يمكنها فعله من أجل ابنتها:

- أعدكِ سأبذل ما بوسعي من أجلها.

قامت الأم شاكرة وقالت:

- أشكرك، لدي موعد هام يتعلق بزفاف ابنتي يجب أن أذهب، سأعود بعد ساعة، أرجوك يا (مشاعل) اعتبريها مثل أختك.

هزت (مشاعل) رأسها أن نعم، وغادرت المرأة، بدأت عملها في تزيين الفتاة لكن صوتا صدر من الفتاة حيرها حيث قالت بصوت خفيض:

- إنها تكذب، لم يضربني والدي.

لم تضف شيئا آخر رغم أن (مشاعل) حاولت حثها على الحديث بسؤالها الملح:

- إذن ما الذي حدث معكِ؟

لزمت الفتاة الصمت، وبدا التشنج واضحا عليها من خلال جلستها المضطربة والتصاق كفيها الصغيرين ببعضهما البعض...

ART_OF_BOOK

2

الضعف ليس أن تبكي، والقوة ليست أن تكتم دموعك. الضعف أن تسمح للخوف أن يوقفك، والقوة أن تتحرك رغم وجوده. بعض الناس يظنون أن النجاة تأتي من الصلابة فقط، لكن الحقيقة أن أحيانًا النجاة تأتي من المرونة... من قدرتك على الانحناء أمام العاصفة حتى تمر، بدلًا من أن تتكسر في منتصفها.

***

مد (قاسم) في خطواته الواحدة بعد الأخرى وهو يعد العملات النقدية التي أعطتها له (مشاعل).. واتجه إلى خارج الحي حتى وصل الشارع العام..

وفجأة...

ظهر أمامه شاب نحيف يرتدي توبا منزليا أحمر، قطع طريقه بابتسامة لزجة تلتصق بوجهه، نظر له (قاسم) بتوجس، وابتعد عنه خاصة وهو يشم رائحته العذرة..

لم يمكّنه الشاب النحيف من الابتعاد عندما عاد ليقف أمامه ويقول:

@ART_OF_BOOK

- ماذا تفعل هنا؟!

تجمد (قاسم) في مكانه، وشعر بخطورة الموقف ولم يرتح أبدا لهذا الكائن الذي يلبس ثوبا منزليا أحمر، فأجاب بصوتٍ مهتز:

- أنا... ذاهب للبقالة.

ضحك الشاب ملء شدقيه، فظهرت أسنانا شديدة الصفار، ثم غمز له بابتسامة ماكرة قبل أن يقترب أكثر:

- أتريد أن أريك شيئًا جميلاً؟

هزّ (قاسم) رأسه بسرعة وقال: لا، شكرًا!

تقدّم بخطوات سريعة محاولًا تجاوزه، لكن الشاب أمسكه بقوة من ذراعه، وشدّه نحوه وهو يقول:

- لا ترحل قبل أن ترى ما لدي أيها الجميل!

حاول (قاسم) التملّص، لكن قبضة الشاب كانت قوية، وبدا وكأنه على وشك سحبه إلى مكانٍ أكثر عزلة..

في تلك اللحظة توقّفت سيارة حمراء أمامهما، وصوت المحرّك المنخفض بثّ رهبة في المكان. فُتحت واحدة من النوافذ، وخرج صوت عميق لرجل لم تظهر ملامحه..

بصوتٍ حاد، قال الرجل بملامح باردة: اتركه.

نظر الشاب نحو السيارة بجرأة، ثم قال بسخرية: ومن أنت؟ ولي أمره؟.

لم يتغير تعبير الرجل، وكرّر بصوت أكثر حدة:

- قلت لك... أتركه. نزولي من السيارة لن يروق لك.

حدق الشاب في السيارة التي لا يظهر راكبها، قبل أن يترك يد (قاسم) بتردد، متراجعا خطوة إلى الخلف. لم ينتظر (قاسم) لحظة أخرى، بل أطلق ساقيه للريح، يركض نحو البقالة،

ودموع الخوف تخنقه.

لكنه شعر بوجود السيارة الحمراء تتحرك بجانبه، وكأنها تلاحقه.

سمع الرجل يسأله بنبرة هادئة لكن حازمة: هل أنت بخير؟.

أبطأ (قاسم) من وتيرة ركضه قليلاً، ومسح عرقه بكمه قبل أن يرد: نعم... شكرًا لك.

لم يستسلم قائد السيارة فقال له: تعال معي... سأوصلك إلى حيث تريد.

تردد (قاسم)، وأحسّ بالخوف يتسلّل إلى داخله مرة أخرى، فقال بتلعثم:

- "لا... شكرًا لك، لقد اقتربت بالفعل."

لكن الرجل لم ولن يستسلم فقال له: "انظرِ خلفك..."

استدار (قاسم) بحذر، وشعر بجسده يتصلّب فورًا.. الشاب القذر ذو الثوب الأحمر ما زال هناك، يتبعه وعيناه مسلطتان عليه وكأنه ينتظر فرصة مناسبة من أجل الفتك به...

عاد لينظر إلى السيارة ويستمع للرجل بداخلها:

- "لن يتركك وحدك... إن تركتك ستصبح فريسة له. الأفضل لك أن تركب معي."

شعر (قاسم) أن الخيارات أمامه تقلصت. لا يمكنه العودة، ولا يمكنه الهروب. ازدرد ريقه، ثم فتح باب السيارة بسرعة، وركب بجوار الرجل.

تحركت السيارة، مبتعدة عن الشاب المشبوه...

أدار (قاسم) رأسه لقائد السيارة حتى يشكره، لكنه لم يستطع إخراج كلمة واحدة.. تأمله (قاسم) من رأسه حتى أخمص قدميه.. كان قائد السيارة رجلا بهيئة سوداء لا يظهر منه شبر واحد، لكن قاسما كان متأكدا أنه لم يكن هكذا قبل ركوبه

السيارة؛ يجزم أنه رأى وجهه في حوارهما خارج السيارة، بيد أنه بمجرد ما ركب السيارة لم ير غير السواد! فخمن قاسم أنه ارتدى قناعه إبان ركوبه السيارة. الغريب في الأمر أنه لم يُبد ردة فعل صغيرة ولا كبيرة ولم يلتفت التفاتة واحدة إلى الصبي الذي جلس بجواره متجمدا من الموقف المريب الذي وضع نفسه فيه، بدأ القلق يساوره وينهش قلبه من منظر هذا الرجل الذي بدى وكأنه تمثال من رخام أسود قد ثبت ذراعيه على المقود، وأمامه هدف سهل لن يحيد عنه وصيد نفيس لن يفرط فيه..

قال الرجل أخيرا بصوت هادئ: "كيف حالك؟".

قال له (قاسم) بصوت متعب، لم يستطع إخفاء ارتجافه: "لست بخير."

تحرّكت السيارة في الشارع المظلم، بينما بقي (قاسم) يحدق في الطريق، محاولًا تهدئة أنفاسه المتوترة. سأله الرجل:

- إلى أين أنت ذاهب؟

قال (قاسم): إلى البقالة..

قال الرجل بصوت ودود: أنت محظوظ أنني كنت في الجوار.

صمت قليلا ثم أضاف: أنا لا أسكن هنا، لكني أتيت خصيصا من أجل أن أشتري طعاما من مطعم قريب.. أتعرف هذا المطعم، اسمه "لقمة وخبزة"..

تحمس (قاسم) قليلا عند سماعه الاسم المألوف وقال: "أمي تحب طعامهم".

ضحك الرجل بخبث وقال: "كذلك أمي... ما سرّ هذا المطعم يا ترى؟".

شعر (قاسم) أخيرا ببعض الراحة، فقد بدا الرجل عاديًا، بخلاف السواد الذي كان يرتديه، لا شيء يدعو للقلق كما يبدو... ابتسم بمزاج وقال:

- "ربما هناك سحر في الأكل."

ضحك الرجل وقال بموافقة: "ممكن... كل شيء جائز."

- "كم عمرك؟".

شعر (قاسم) بقشعريرة تجتاح جسده، عاد التوتر ليسيطر عليه وهو يجيب بصوتٍ منخفض:

- اثنا عشر عاما.

أمال الرجل رأسه قليلًا وكأنه يدرس ملامحه، ثم قال بلهجة غامضة:

. - أنت صغير جدًا.

في تلك اللحظة، استوعب (قاسم) أن الرجل انحرف عن الطريق المعتاد، وسلك طريقًا مختلفًا تمامًا. لم يكن هذا الطريق الذي يؤدي إلى البقالة.

بدأ قلبه ينبض بعنف، وتسارعت أنفاسه، شعر وكأن الهواء أصبح أثقل من أن يستنشقه.

قال (قاسم) بصوت مرتجف: "إلى أين نحن ذاهبان؟".

أجابه الرجل بنبرة هادئة، لكنها لم تبعث أي طمأنينة في نفس (قاسم) المتوترة:

- تذكرتُ أمرًا طارئًا في المزرعة، سأمرّ لأخذ شيء منها، ثم نذهب إلى وجهتك.

نظر (قاسم) إلى الساعة، كان الوقت متأخرًا بالنسبة لولد ذهب إلى البقالة، والحي الذي دخلوا إليه بدا معزولًا تمامًا، أصيب بحالة من الهياج، وبدأت أنفاسه تتسارع وهو يقول:

- "أعدني للمنزل... أرجوك" قالها بصوتٍ مخنوق.

شعر بيد الرجل تربت على رأسه برفق، وقال بنبرة منخفضة:

- "لا تخف... لن أفعل بك شيئًا."

لكن (قاسما) لم يصدق كلمة واحدة مما قال فقلبه قد أحس بالشر يقترب منه بل لعله يقتعد المقعد المجاور له!

شعر بجسده يبدأ في الارتعاش، امتلأت عيناه بالدموع، ثم تمتم:

- "أنا خائف... أرجوك، أعدني للمنزل."

تنهد الرجل، ثم قال بصوت خافت لكنه يحمل تهديدًا ضمنيًا:

- "لا تقلق... كل شيء سينتهي بسرعة. أعدك. لا تختبر صبري وإلا كنت الكابوس الأسود لك...."

عند هذه الجملة، تجمد الدم في عروق (قاسم)، وأطلق صرخة حادة، محاولةً منه لجذب انتباه أي شخص قد يكون قريبًا، وحاول أن يفتح الباب الذي بجانبه من أجل أن يقفز من السيارة المتحركة، غير أن الباب أبى أن يُفتح..

هنا الرجل انفجر غاضبًا وقال بصوتٍ حاد: توقف عن الصراخ!

لكن (قاسما) لم يتوقف، بل بدأ يصرخ بصوت أعلى، ولم تكف يداه عن محاولة فتح الباب أو كسر النافذة.. ولكن محاولاته جميعها فشلت..

داس الرجل على الفرامل بقوة، فتوقفت السيارة بعنف، التفت إليه بغضب، وأمسكه من شعره بقوة، شده نحوه بعنف، وصاح:

- قلت لك... توقف عن الصراخ!!

لكن (قاسما) لم يستسلم، بل استمر في البكاء والصراخ، جسده يرتجف، ونظراته تتوسل الرحمة.

عندها، مد الرجل يده إلى الزجاجة التي كانت بجانبه، ورفعها في الهواء، ثم هوى بها على رأس (قاسم) بقوة!

تكسر الزجاج على رأسه!

تراجع رأس (قاسم) بعنف للخلف، وارتطم بالمقعد. شعر بألم فظيع يخترق جمجمته، ثم... بدأت الرؤية تتلاشى بالتدريج..

3

هناك صمت يريحك، وهناك صمت يخنقك. الصمت الذي يأتي بعد الجريمة لا يشبه أي صمت آخر: هو خليط من الترقب والخوف، من الأسرار التي يعرفها الجميع ولا يتحدثون عنها. في هذا الصمت، حتى الأنفاس تتحول إلى اعترافات غير مسموعة، وحتى الطرقات الخفيفة على الباب تشبه طرقات القدر.

***

بعد وقت طويل استيقظ (قاسم) ببطء، ينبض رأسه بألم لا يحتمل. كان كل شيء ضبابيًا، واحتاج إلى لحظات حتى يستوعب أين هو؟! مذ يده المرتعشة إلى رأسه، ليشعر بجروحٍ ودماء جافة تلطخ جبينه. رفع رأسه ببطء، وبدأ ينظر حوله...

كان في غرفة ضيقة، لا نوافذ فيها، الجدران متسخة، والرائحة خانقة وعفنة. لم يكن هناك شيء... فقط أرضية خشبية قديمة، وباب حديدي مغلق.

أدرك أنه مخطوف مرتهن.

شعر بالرعب يسيطر عليه، وبدأ بالصراخ بأعلى صوته: "أخرجوني من هنا! أخرجوني!"

كرر جملته مرارًا وتكرارا، لكنه لم يسمع أي استجابة.

وفجأة...

فتح الباب.

دخل الرجل، كان جسده متشحا بالسواد بشكل مخيف..

شعر (قاسم) أن جسده بالكامل يرتجف، بالكاد استطاع أن يتحدث: "ماذا تريد مني؟".

قال الرجل بهدوء بارد:

- أنا؟... أنا لا أريد منك شيئًا.. وأنت لست ما أريد.. ولكنك وسيلتي.. فماذا أفعل؟

بكى (قاسم) وهو لا يفهم حرفا!

- وسيلتك إلى ماذا؟ أرجوك أعدني إلى بيتي.. أقسم أنني لن أخبر أحدا بما رأيته..

عقد الرجل ذراعيه أمام صدره ثم قال بتهكم:

- وما الذي رأيته؟ سيارة مسروقة! قبو لا تعرف عنه إلا رائحته! ليس لديك ما يقال يا (قاسم).. هذه المسألة لا تشغلني..

ازداد بكاء الصبي وهو يضرب بقدميه المكبلتين بوهن على الأرض من تحته:

- إذا ماذا تريد؟

رفع الكابوس الأسود كتفيه:

- لا شيء.. سوى رسالة صغيرة ستقوم بإيصالها إلى أختك الكبيرة.. أرأيت كم هو موضوع بسيط؟

انسحب عيسا (قاسم) وهز رأسه في فزع وهو يصرخ وثار العبرة تتأجج في حناياه

- لا، ذلك لن يحدث..

اندفع الكابوس نحوه وجذبه من شعره فصرخ (قاسم) من الألم عاليا.

همس له الكابوس:

- لماذا تتصرف وكأن الخيار بيدك؟! إن لم تفعل قتلت عائلتك، ولن يفلت أحد من بين قبضتي.. أتفهم؟ حرك رأسك لأعرف أنك فهمت كلماتي..

هز (قاسم) رأسه ببكاء متألما..

تركه الكابوس ونهض.. حل رباط (قاسم).. وساعده على الوقوف وهو يقول له بتهكم:

- هيا عزيزي لقد تأخرت على العودة إلى بيتك.. وخذ هذه..

وضع الكابوس ظرفا بنيا في جيب الصبي:

- لا تنس تسليمه لشقيقتك الكبيرة.

عض (قاسم) على شفتيه كمدا وهو يهز رأسه بنعم..

ركب (قاسم) بجوار الرجل الغامض المظلم، يكاد لا يتحمل ألم رأسه، ما يزال غارقا في خوفه، لا يعلم إن كان هذا هو مجرد كابوس، أم أنه قد دخل الجحيم الحقيقي؟!

اقتربت السيارة من الطريق العام، فأنزله الكابوس وهو يؤكد عليه:

- لا تنس يا عزيزي ما اتفقنا عليه، وإلا دفعت الثمن غاليا..

وقف (قاسم) مترنحا وهو يشاهد السيارة وهي تبتعد سريعا.. أمسك رأسه وشعر أنه في أي لحظة قد يفقد وعيه.. كان كل شيء مشوشا، الأصوات، الأضواء، وحتى الألم الذي ينهش جسده كان وكأنه بعيد عنه لكنه ما يزال يشعر به في أعماقه.

سار حتى عبر الشارع العمومي الأول وتبقى الثاني، وهنا وجد

ART_OF_BOOK

شقيقته... كانت تتلفت بفكر مشغول تبحث عنه يمينا ويسارا..

تكاد تبكي من فرط قلقها على (قاسم) الذي طالت غيبته على غير المعتاد..

حرك (قاسم) نفسه ليعبر الشارع حتى يصل إليها، ولكن توازنه اختل، وسقط وسط الشارع العمومي..

- آه!.

شعر برأسه يرتطم بالأرض بقوة، فتضخّم الألم في رأسه، وبدأ الدوار يشتد، كانت الدنيا تدور من حوله، أجساد مشوشة، وأصوات تتلاشى...

حاول النهوض، لكنه لم يستطع، كان جسده ثقيلًا، كأنه فقد السيطرة عليه تمامًا.

ومن مسافة .ليست ببعيدة... كانت هناك سيارة مسرعة، السائق منشغل بهاتفه، لم يكن منتبهًا لما أمامه.

رفع (قاسم) رأسه بصعوبة، وعيناه المتعبتان تراقبان السيارة القادمة نحوه بسرعة، بدأ قلبه ينبض بعنف، حاول الزحف بعيدًا بمرفقيه، لكن كل حركة كانت تعذبه أكثر.

- لا... لا... توقف!.

لكن السائق لم يره، لم يبطئ، لم يرفع رأسه عن الهاتف.

دوت صرخة صامتة في عقل (قاسم) وهو يرى المصابيح الأمامية تقترب منه... ثم...

عبرت السيارة من فوقه!

مرت العجلات فوق قدميه وكتفه، قبل أن تتابع طريقها دون أن يتوقف السائق، وكأنه لم ير شيئا، أو ربما اختار أن يهرب من الواقع

كان الألم الذي انفجر في جسده فوق الاحتمال. حاول البقاء واعيا، حاول أن يتنفس، لكن كل شيء كان ينهار من حوله.

في لحظة، شعر وكأن الدنيا بدأت تبتلع صوته، حتى لم يعد يسمع سوى صوت أنينه الضعيف.

ثم...

- "أبي!! تعال بسرعة!"

صوتها المألوف يقترب.. أخته الحنون المحبة، صوت حمل ذعر هذا العالم... (مشاعل)!

رفع رأسه قليلًا، ورآها منحنية أمامه، عيناها غارقتان بالدموع، وهي تحاول أن تستنجد بوالدها.

تمتم بكلمات غير مفهومة، لكن (مشاعل) أمسكت بوجهه، وهزته بلطف:

- "(قاسم)، قاوم! أبي قادم بالسيارة الآن!"

أدخل (قاسم) يده في جيبه وأخرج الظرف البني بصعوبة منقطعة النظير وكأنه يقوم بأصعب أمر على الإطلاق! انتبهت له (مشاعل)، وتناولت ما بيده، ثم قربت أذنيها من شفتيه اللتين تتحركان بوهن وسمعته يردد بهذيان:

- المستدرج.. المستدرج..

لم يعد يرى بوضوح، شعر بيد والده ترفع رأسه بحذر، ثم رآه يفتح باب السيارة بسرعة، غير مكترث بالقوانين، يقود عكس السير...

كانت (مشاعل) جالسة في الخلف، وضعت الظرف البني في جيبها واحتضنت رأس شقيقها بين يديها، دموعها لم تتوقف، تحاول أن تهدئه. شعر (قاسم) بالبرد يتسلل إلى جسده ببطء ويسحبه لعالم من العذاب البارد لم يعتد عليه..

نظر إليها والدها عبر المرآة وقال بصوت متهدج:

- "مشاعل... اتصلي بوالدتك، أخبريها أننا وجدناه".

أخرجت هاتفها بيد مرتجفة، بالكاد استطاعت فتحه، ثم اتصلت.

- "أمي! لقد وجدنا قاسما، نحن في طريقنا إلى المستشفى!"

كان صوت والدتها قلقًا، مضطربًا:

- هل هو بخير؟! دعيني أتحدث إليه!

نظرت (مشاعل) إلى شقيقها، لكنه لم يكن قادرًا حتى على فتح عينيه فضلا عن أن يتحدث عبر الهاتف النقال ويستوعب ما يقول وما يقال، فقالت بصوت متقطع:

- لا... إنه ليس بخير... أرجوك، تعالي إلى المستشفى!.

وفي اللحظة التي أنهت فيها الجملة، انطفأت شاشة هاتفها، نفدت البطارية. أعادته إلى حقيبتها بسرعة، ثم شدت ذراعيها حول (قاسم) وهي تبكي:

- اصمد، (قاسم)... أرجوك، اصمد... .

بعد طريق بدا وكأنه بلا نهاية، وصلوا إلى المستشفى. أوقف والدهما السيارة عند باب الطوارئ، ترجل بسرعة وهو يصرخ:

- ابني! تعالوا، ساعدوني!.

خرج المسعفون على الفور، رفعوا (قاسما) بحذر، ونقلوه بسرعة إلى داخل غرفة الطوارئ، تاركين عائلته في دوامة من القلق والرعب.

بعد ربع ساعة...

وصلت والدتهم وهي تلهث، هرعت إلى زوجها، وسألته بقلق شديد

- هل قاسم بخير؟!

تنهد والد (قاسم) وهو ينظر إلى باب غرفة الطوارئ المغلق، وقال بصوت منخفض:

- لا أعلم... لم يخرج الطبيب بعد..

غطت الأم وجهها بيديها، ودخلت في دوامة من البكاء المر، تتذكر ولدها الحبيب؛ فيزداد نحيبها. تدعو الله أن يحفظه ويرعاه:

- يا رب... يا رب احفظه لنا....

اقترب (أبو قاسم) من ابنته وهو يسأل:

- ماذا كان يقول لكِ قاسم؟ هل قال لكِ قاسم شيئا قبل وصولي؟

أجابت على الفور:

- نعم، قال المستدرج..

هنا تذكرت (مشاعل) الظرف الذي خبأته في جيبها، لكنها شعرت بأنه يجب عليها كتمان هذا الظرف تحديدا..

نفخ (أبو قاسم) في غضب وهو يخرج هاتفه: يجب أن أعلم الشرطة..

تحركت (مشاعل) ووقفت بجانب والدتها، احتضنتها، وبكت معها بصمت.. وهي مرتمية في أحضان أمها، تذكرت ذلك السيل الهادر من الأحداث والمواقف التي جمعتها بشقيقها الصغير (قاسم)؛ كانت بمثابة أم ثانية له، كانت ترعاه مذ كان رضيعا، لطالما حملته على ساعدها وألقمته رضاعته مقمطا، لطالما كانت تحممه وتلاعبه وتمشط شعره، تعد له الطعام، وتشتري له الحلوى والألعاب، وتلعب معه...

كان الولد الوحيد بين ابنتين؛ لذا فقد حظي بعنايتها وعناية شقيقتها فاطمة، لكن علاقتها به مختلفة جدا عن علاقة فاطمة به... كانا مقربين بطريقة مثالية، لم يكن (قاسم) ليغضب (مشاعل) أو يشاغبها كما يفعل مع فاطمة، بل كان يحترمها كأمه! حينما تلم به ملمة يذكر اسم (مشاعل) قبل الجميع، يلجأ إليها قبل أمه وأبيه، يبثها سره وتحفظه بطريقة مثالية،

ART_OF_BOOK

بل وتحل مشاكله، وتخفف عنه أعباءه الطفولية المتمثلة في شجار افتعله مع صديق في المدرسة، أو كرة قدم كان يلعب بها مع صبية الحي قُذف بها لتسقط في أحد المنازل المجاورة، أو تكسر زجاجة منزل ما، أو خلاف بينهم على الدراجات الهوائية الخاصة بهم أيها أجمل أو أسرع أو أغلى ثمنا؟!...

@ART_OF_BOOK

4

السر يشبه السم، قد يبقى في الجسد سنوات قبل أن يظهر أثره. بعض الأسرار تكبر داخلك حتى تتحول إلى عبء لا تستطيع حمله ولا التخلص منه. وكلما حاولت إخفاءها، ازدادت خطورتها، لأنك بذلك تمنحها الوقت لتجد الطريق المثالي لتدميرك... أو تدمير من تحب.

***

في مركز الشرطة جلس المحقق (إبراهيم) وأمامه (محمد)، كلاهما بدا عليه الإرهاق الشديد..

دخل (نواف) ومعه علب كرتونية لكاميرات مراقبة جديدة، وأعطاها المحقق (إبراهيم) قائلا:

- هذا ما طلبته سيدي، تفضل..

ضيق (محمد) بين حاجبيه وقال: ما هذا يا (إبراهيم)، هل تنوي مراقبة أحدهم؟

أومأ (إبراهيم) برأسه وهو يقول: نعم، سأراقبني..

عقد (محمد) ساعديه أمام صدره: لا أفهم..

أخرج (إبراهيم) واحدة من الكاميرات من علبتها يتفحصها:

- هذا المشتبه به الذي يسمي نفسه الكابوس الأسود أو المستدرج أو أيا كان اسمه يعلم تحديدا أين أسكن.. أرسل إليّ رسالة من قبل مع غلام صغير، وشيء ما يحدثني بأنه قد يعيد الكرة في أي وقت.. سأضع هذه الكاميرات خارج باب شقتي وخارج البناية أيضا..

زفر (محمد) بتعب: هذا جيد.. سأذهب الآن؛ لأنال قسطا من الراحة..

غادر (محمد)، وانشغل (إبراهيم) بفحص كاميراته، ثم دخل عليه (نواف) بلهفة ودون إذن:

- سيدي..

رفع (إبراهيم) حاجبيه بتوجس: ماذا هناك؟

رد (نواف): هناك فتى صغير تعرض لحادث سير.. اتصل والده، وقال بأن المشتبه به المعرف بـ المستدرج هو من فعل ذلك..

اتسعت عينا (إبراهيم) وهو ينهض: في أي منطقة؟

أجاب مساعده: هنا في الإحساء تحديدا مدينة المبرز..

ضرب (إبراهيم) بيده على الطاولة، واندفع خارجا لسيارته، أدار المحرك، وذهب على جناح السرعة إلى المستشفى حيث الصبي يتلقى الإسعاف اللازم..

***

مشى في الرواق ومن ورائه (نواف) حتى وصل إلى الباب الذي تقبع خلفه غرفة العمليات.. رأى عائلة (قاسم) ملهوفة عليه.. أما وفتاتين، والأب واقف بصمود مزيف بينهن..

تقدم (إبراهيم) إليهم في حذر.. واقترب من الأب الذي انتبه إليه وهو يقول:

- السلام عليكم أنا (إبراهيم) المحقق من مركز سرطة

الهفوف.

مد الرجل يده مصافحا: وعليكم السلام.. أشكرك لأنك تجشمت عناء الحضور فور اتصالي بكم..

- هذا واجبنا.. أخبرني ما الذي حدث تحديدا؟!

تنهد الرجل بألم وهو يقول:

- لا أعلم! غاب ابني، وتأخر خارج المنزل كثيرا.. أخبرتني أخته أنه في البقالة، ولكنه تأخر أكثر من اللازم.. عندما بحثنا عنه كان قد تعرض لحادث سير، وهرب المجرم الذي دهسه وتركه يصارع الموت وحيدا لولا أن شاهدته أخته فأسعفناه..

كانت النسوة في حالة من الحزن، لكن إحداهن كانت الأكثر تأثرا بينهن؛ كانت عيناها محمرتين جراء بكاء متصل، وكانت تمسح دموعها بمنديل في يدها.

هز (إبراهيم) رأسه بمواساة ثم سأل: وما دخل المشتبه به المعروف باسم المستدرج في الأمر؟

هنا حرك الرجل رأسه ونادى على ابنته: مشاعل.. مشاعل..

أتت الفتاة الشابة الباكية والتي احمر أنفها ووجنتاها، وتحول إلى لون الدماء، حث الرجل ابنته على الحديث مخاطبا إياها:

- أخبري المحقق عما قاله (قاسم) بعد الحادث الذي تعرض له..

فكرت (مشاعل) أن تخرج الظرف البني، غير أنها لسبب لا تعلمه قررت ألا تفعل ذلك، قالت باختصار:

- لم يقو على الكلام أبدا.. لكن عندما اقتربت من شفتيه كان يتمتم ويقول: المستدرج.. المستدرج..

اندهش (إبراهيم) كثيرا وقال: وهل لهذا المشتبه به في الحي عادة على خطف الصبية؟

هز الأب رأسه وقبل أن يجيب فتح الباب، وخرج الجميع،

كانت عيناه تحملان ظلًا من الحزن خلف نظاراته السميكة.

تقدم نحو والد (قاسم)، وقال بنبرة جادة: أنت والد الصبي؟

وقف والد (قاسم) كالصخرة، رغم الارتجاف الذي بدأ يتسلل إلى صدره، وأجاب بصوت متماسك:

- نعم، أنا والده... هل هو بخير؟.

أمسك الطبيب بيد الرجل بلطف، ثم سحبه بعيدًا قليلًا؛ فتقدم معه (إبراهيم) قبل أن يقول بصوت منخفض:

- أنت رجل مؤمن، وتعرف أن قضاء الله نافذ....

شعر والد (قاسم) أن الدنيا بدأت تضيق من حوله، وأن الهواء لم يعد كافيًا... لكنه أجاب بثبات رغم الدموع التي تجمعت في عينيه:

- ونعم بالله... لكن أخبرني... هل هو بخير؟.

أخذ الطبيب نفسًا عميقًا، ثم قال الكلمات التي كانت كسكين حادة اخترقت قلب الرجل وشقته نصفين:

- أعظم الله أجركم... ابنكم توفاه الله!.

تجمد أبو (قاسم) في مكانه، عيناه تحدقان في الفراغ، وكأن عقله رفض استيعاب ما سمعه للتو.

ثم... رفع يديه إلى رأسه، وأغمض عينيه بقوة، قبل أن يهمس بصوتٍ مختنق:

- "لا حول ولا قوة إلا بالله... إنا لله وإنا إليه راجعون.".

وقف (إبراهيم) بقلب يعتصره الألم وهو يرى بأم عينيه الوجع القاسي الذي يخلفه فقدان الابن..

رفع رأسه للسماء وهو يناجي ربه الذي لا ملاذ له من الدنيا إلا إليه.. وكل تفكيره منصب في يسر..

ومع أنه يتمنى عودتها اليوم قبل الغد إلا أنه لم يستطع دفع

نفسه من الشعور بأن الرجل المكلوم أمامه أوفر حظا منه.. على الأقل هو يعرف الآن أين ولده.. أما يسر فلا يعلم عنها معلومة واحدة يمكن لها أن تبثه السكينة حتى لو كانت تلك المعلومة تحسم أمر وفاتها.. أين مكانها.. كيف حالها.. كيف تأكل وكيف تنام؟ شعر (إبراهيم) برغبة جامحة في البكاء، لكنه استجمع شتات نفسه، وأبى أن يظهر ضعيفا أمام الناس رغم ضعفه الداخلي!

اكتفى (إبراهيم) بهذا المشهد وغادر المكان بعد أن قام بواجب العزاء للأب المنتحب.. رأى أن الحكمة تقتضي أن يسحب نفسه دون أن يفتح أي تحقيق في الوقت الراهن فمشاعر تلك العائلة أهم من أي تحقيق، فالتحقيقات يمكن أن تنتظر، وهو يفكر بذلك تعالى صوت الصراخ من عائلة (قاسم)، حينها أدرك (إبراهيم) أن الأب نقل لهم خبر وفاته، لم يستطع المحقق المرهف كبح جماح عاطفته فجرت دموعه الصامتة، لكنه مسحها سريعا وتمالك نفسه، شاهد (مشاعل) تخرج باكية بحالة شعثاء، كادت تموت من الكمد لم يكن بوسعه التدخل، أو فعل شيء، ففضل الانسحاب بصمت... استمرت (مشاعل) في البكاء بينما يتجه (إبراهيم) إلى بوابة المغادرة...

قاد المحقق (إبراهيم) سيارته بشعور شارد حتى وصل إلى بيته، أخذ معه كاميرات المراقبة الجديدة، وعندما صعد إلى باب شقته لم يبدل حتى ثيابه وشرع في تركيب الكاميرا الأولى في الزاوية القريبة..

خرج (حسان) على وقع الأصوات العالية لطرقات (إبراهيم) على الحائط..

- (إبراهيم) يا ولدي ماذا تفعل في هذه الساعة؟

التفت (إبراهيم) ولمح بسرعة يد حسان الملفوف بالشاش الطبي ثم قال في اعتذار:

- أعتذر منك يا عمي، أعلم جيدا أن الوقت غير مناسب

لاحداث جلبة، ولكن يجب أن أنتهي من هذا الموضوع اليوم قبل الغد.

صمتا قليلا فسأله: لماذا تلف يدك بهذا الشاش يا عمي؟

سكت (حسان) ووقف بجواره يدعم بيديه السلم الذي يقف عليه (إبراهيم).. تنهد حسان قبل أن يقول:

- لا تشغل بالك مجرد خدوش أحدثتها قطة التقطتها من إحدى المزارع حينما كنت أمشي حولها، ألا تعتقد أن وضعك لهذه الكاميرا ينتهك خصوصية سكان هذه العمارة؟

- لا يبدو أنها أليفة!

- أحيانا تخرج عن صمتها وتتحدث بمخالبها، ولكن لا تقلق إنها فتاة لطيفة ولن تكرر أفعالها.

رد إبراهيم دون أن ينكفئ عن عمله: بخصوص كاميرات المراقبة فلن تنتهك خصوصية أحد، بل لم أضعها إلا لحماية السكان.

صمت حسان قليلا ثم قال: أعتقد أنني لن أكون بأتم ارتياح وهي موجودة.

ولأن إبراهيم يحترم العم حسان فقد نزل عند رغبته حينما حرف اتجاه الكاميرا صوب باب شقته وقال:

- حسنا يا عم حسان لقد جعلت الأمر يدور لي وعني، إنها تراقب باب شقتي الآن وحسب...

ترجل إبراهيم من السلم وقال: أخبرني هل أنت راض الآن؟

هز حسان راسه أن نعم وأنشأ يقول: أشعر براحة أكثر، فلا احب كسر خصوصيتي من أي أحد، أرجو أن تعذرني يا بني.

بعد إتمام عمله دخل (إبراهيم) شقته ومن ورائه (حسان):

- أشعرتني بالقلق يا ولدي.. ما فائدة هذه الكاميرا هنا، هل أنت متوقع أن المجرم الذي تسعى وراءه قد يأتي هنا؟

شعر (إبراهيم) أن كلمات (حسان) خرجت مهتزة قلقة، من الواضح أن الرجل يشعر بالخوف، رجل مثله في هذه العمر بالتأكيد سيكون من أسوأ كوابيسه أن يصطدم بقاتل محترف ومجرم هارب.. فقال له مطمئنا:

- هذا فقط من أجل الأمان يا عمي، لا تقلق.. لا يجرؤ أي إنسان أن يهدد أمن هذه البناية طالما أسكن فيها.

ابتسم له (حسان) بفخر:

- وكأنني أرى ولدي الغالي رحمه الله أمامي.. أنت العوض على ما فقدت يا (إبراهيم) يا ولدي.. انتظرني ولا تنم.. لم تتناول عشاءك بعد..

خرج (حسان) سريعا قبل أن يحاول (إبراهيم) منعه.. هذا الرجل يثقله بالجمائل، ويغرقه في اهتمام هو حقا في أشد الحاجة إليه.. من بين جميع الكوارث التي تُحيطه لا يعلم كيف كانت ستكون أيامه دون إنسان يسانده ويدعمه ويهتم به ك (حسان)..

حضر (حسان) وتلك القطة تتبعه وهي تموء تعرب عن جوعها إزاء رائحة الطعام المنتشرة، ووضع أمامه الطعام ككل ليلة، حاولت القطة تناول بعض اللقيمات من الإناء فظهرت أمارات الضيق على إبراهيم منها، لكن حسانا تدارك الموقف بأن حملها وشرع يمسد جسمها المنتفش، ثم تحادثا طويلا حتى انتهى (إبراهيم) من عشائه وانصرف (حسان)، وعاد (إبراهيم) لوحدته القاتلة..

أجبر نفسه على النوم، فأيامه القادمة تتطلب منه تركيزا فائقا ويقظة عالية..

5

بعض الناس يموت قلبهم قبل أن يموت جسدهم. تراهم يبتسمون ويتحدثون ويشاركون الآخرين حياتهم، لكن بداخلهم فراغ بارد لا يصل إليه النور. هؤلاء يمكن أن يرتكبوا أبشع الجرائم دون أن تهتز أيديهم، لأنهم لم يعودوا يشعرون بأي فرق بين الخير والشر... كل ما يهمهم هو أن يملؤا الفراغ بأي طريقة.

***

في اليوم التالي تأخر (إبراهيم) قليلا عن موعده في مركز الشرطة فقد كان حريصا على تثبيت باقي الكاميرات خارج البناية وداخلها، وقد تأكد من سلامتها وقام بتوصيلها بهاتفه النقال.. حيث يكون قادرا على متابعة كل ما يدور وقتما يشاء وأينما يكون.. وقبل أن يذهب إلى عمله توجه إلى والدته غير مبال بكونه متأخر من الأساس فلا يمكنه العمل دون أن يطمئن عليها... قضى معها بعض الوقت اللطيف وكانت منشغلة بمشاهدة مسرحية ترفيهية من بطولة الممثل سمير غانم، فلم تكن منتبهة إليه كفاية فودعها وغادر. وفي السيارة فكر بأنه يرى والدته للمرة الأولى في مثل هذه السعادة واكتشف لأول مرة أنها تحب المسرحيات، لكنه فكر أيضا ربما كانت تلك الهواية لديها منذ القدم لكنه لا يعرفها بسبب قلة الوقت الذي

ART_OF_BOOK

يقضيه معها خصوصا بعدما أودعها دار الرعاية. وفي غمرة عاطفية أراد الحديث عن الموضوع فاتصل بخالته، حياها وحيته بطريقة عاطفية تشي عن شوق كبير ومحبة عميقة، ثم خاطبها:

- خالتي أريد أن أسألك عن أمر ما.

ردت: سل عما تشاء يا حبيبي.

- لقد شاهدت اليوم والدتي تشاهد عرضا مسرحيا وأحببت السؤال إن كانت تعشق المسرحيات منذ القدم.

صمتت قليلا ثم سألت: سمير ممدوح؟

صمت قليلا وقد علم ما يعبر عنه ذلك السؤال ثم قال: أجل.

قالت: إنها من أكبر محبيه.

صمت قليل ثم سألت: ما الذي تفكر فيه؟

قال: لا شيء فقط أحسست أنني لا أعرف أمي كفاية وشعرت بتأنيب الضمير لأنني غير متواجد قربها على الدوام.

صمتت أيضا، وبطريقة عميقة قالت: نحن الأمهات... لا يتم تقديرنا حتى نفارق الحياة، إنك معذور بعملك يا بني، لكن خذ نصيحتي ابذل جهدك في إسعادها.

تفكر مليا في قولها فأخبرها بأنه سيفعل ثم ودعها وأغلق الهاتف الجوال.

وصل؛ ليجد مساعده نوافا في استقباله، حياه نواف بالتحية الرسمية ثم قال إبراهيم: اسمعني جيدا يا نواف، جريمة جديدة حدثت، ولد صغير تم خطفه ثم دهسه،ومات، لقد سجلت لك اسم الأب في هذه الورقة أريد منك إجراء بعض التحريات له ولأفراد عائلته.

لبى نواف مجيبا وغادر.

دخل المحقق إبراهيم مكتب (محمد) فاستقبله الكاسكو

بصراخه "حرامي... حرامي".

زجره إبراهيم: حرامي أبوك.

وجد محمدا منكبا على أوراق عدة لتحقيقات سابقة يقوم بدراستها لجمع المعلومات والملاحظات.. هتف فيه قبل السلام: إن لم تأخذ هذا الطائر من هنا سأخنقه بكفي ثم سأنقعه في ماء ساخن وأنتف ريشه وأشق بطنه وأخلصه من فضلاته ثم أتبله وأقلبه على جمر هادئ وأقذفه إلى هرة تعرفت عليها مؤخرا وهي كما يبدو لم تتناول الطعام منذ فترة.

قال محمد دون أن يرفع رأسه عن الأوراق: سيعضك قبل أن تفعل شيئا من ذلك.

رد بغضب: إنه يتهمني باللصوصية!

- لست الوحيد، فلم يسلم منه حتى رئيس القسم. دعك منه إنه مجرد طائر ولا أخفيك أنني أفكر بأن أبيعه للحاج واصل.

- أقسم بالله أنه سيجعلك تدفع المال فوق البيعة كي يحتفظ به، وإن أزعجه بتلك الكلمة سوف يجعل منه وجبة خفيفة بعد الغداء.

- دعك من هذا، لقد تأخرت.. ظننتك لن تأتي!

تنفس (إبراهيم) الصعداء وهو يقول: لقد كانت ليلة عصيبة مساء أمس..

ترك (محمد) ما بيده وسأل: لماذا؟

أسند (إبراهيم) ظهره على الكرسي وهو يسرد ما حدث ليلة أمس.. حادث السير والغلام الذي مات، والأب المكلوم، ثم شهادته هو وابنته بأن الصغير قد ذكر اسم المستدرج..

اندهش (محمد) من المعلومة الجديدة:

- ماذا تقول؟ أتعني بأن المشتبه به الآن أصبح يختطف الصبية أيضا ولا يكتفي باختطاف الفتيات؟!

هز (إبراهيم) رأسه في حيرة ثم قال:

- لا أعلم.. ولكن ما أعلمه بشكل مؤكد أنه لا يضيع وقته.. لقد قتل فاطمة في صباح يوم أمس ليختطف صبيا في المساء.. ثم هناك أمر مريب لا أفهمه!

- ماذا؟

تطلع (إبراهيم) بشرود للحائط أمامه وكأنه لا يراه ثم قال:

- لماذا قتل فاطمة؟ إنه لم يقتل واحدة من الفتيات من قبل.. لماذا قتلها هي تحديدا مع أنه كان حريصا على ألا تراه ولو مرة..

رد عليه المحقق (محمد):

- إنه مختطف ومغتصب لماذا تستبعد عنه القتل؟

هز (إبراهيم) رأسه رفضا:

- ليس استبعادا للقتل.. ولكنه من أجل أن يقتل فاطمة تكبد عناءً كبيرا.. زحف في ممرات التهوية وعرض نفسه لخطر أن يتم ضبطه في أي لحظة.. أتعلم ما يعنيه هذا؟

فكر (محمد) في إجابة لسؤال (إبراهيم)، وقبل أن يجيب رد عنه (إبراهيم) قائلا:

- فاطمة لديها ما تعرفه عنه، وهو لا يريد أن تفصح عما لديها.. فبقتلها قتل معها أي خيط قد يقود إليه..

ظهر التجهم على وجه المحقق (محمد):

- وماذا يمكن أن يكون لدى فاطمة.. فهي لم تره أبدا..

هنا استقام (إبراهيم)، ولمعت عيناه وقد عرف ما الذي تملكه (فاطمة) ومن أجله قُتلت فقال:

- هي لم تره.. ولكنها لمسته.. هذا ما يريد المشتبه به إخفاءه.. إنها تعرف ملمس جسده خاصة ذراعه الأيسر وجانب وجهه..

وصفته (فاطمة) بجلد الثعابين المقزز..

نهض (محمد) من مكانه وهو يسأل: وماذا يكون هذا تحديدا؟

قال (إبراهيم) بتوهان: لا أعرف، ولكن قد يكون مرضا جلديا مثلا.. ولكنه بالتأكيد خيط مهم قد يقودنا لهذا المجرم الذي يظن نفسه في منأى عن قبضتنا..

***

خرج (إبراهيم) من مكتب المحقق (محمد) متجها لمكتبه..

طلب مساعده (نواف)؛ فحضر الرجل الذي وقف أمامه في أدب واستمع للتعليمات الصادرة من رئيسه:

- نواف، أريدك أن تقوم بالاتصال بأفضل أطباء الجلدية، وتقوم ببحث مفصل عن جميع الأمراض الجلدية التي قد تصيب جانب واحد من الانسان، تحديدا الذراع اليسرى وجانب الوجه الأيسر.. وهذا المرض الجلدي يعطي شعورا بملمس جلود الثعابين..

أومأ (نواف) بطاعة وهو يقول: أمرك..

هم بالخروج لكن إبراهيم أوقفه سائلا: ما الذي حدث معك بخصوص عائلة قاسم؟

عاد نواف مستدركا وقال: أرجو المعذرة نسيت أن أعطيك المعلومات.

أخرج بعض الأوراق من جيبه وفردها أمام إبراهيم فوق المكتب وقال: اسم الأب رامي، والأم فضة، أما الفتاتان فسناعل وفاطمه. يعمل في مشغل لتصفيف الشعر وتجهيز العرائس وهم عائله متوسطة الحال الأب موظف جكومي في قطاع التعليم، وفاطمه تدرس في المرحلة الجامعية جامعة الملك فيصل تخصص الحاسب الالي... قاسم كان في المرحله المتوسطه الصف الاول كان ولدا متوسطا في تحصيل الدراسه...

قاطعه إبراهيم: يكفي، سأقرأ الأوراق.

خرج نواف تاركا (إبراهيم) في محاولة لتنظيم الأحداث التي مرت، وتنظيم أفكاره معها.. ألقى نظرة فاحصة على الأوراق ووضع دائرة حول اسم فاطمة... وهو يتمتم فاطمة فاطمة فاطمة.

ولأول مرة منذ أن بدأ هذه المطاردة مع شبح المجرم اللعين هذا، يشعر بأنه قد اقترب من هدفه حتى ولو لخطوة واحدة للأمام.. لكنه كان منشغل التفكير بشيء واحد في هذه الدقيقة "فاطمة" اسم طالما تكرر، ورغم نفيهم السابق بأن يكون له علاقة بالقاتل وترجيحهم لأن يكون الأمر مجرد مصادفة، ولكن... هذه ثالث فتاة مرتبطة بالمجرم بنفس الاسم، من المستحيل أن تكون مصادفة هذا ما فكر به إبراهيم، ألقى نظرة على ملفات الفاطمات الثلاث وجد بعض التطابق، كلهن فتيات جامعيات بنفس التخصص حاسب آلي... ما زال الارتباك يخيم عليه، يقدم رجلا ويؤخر أخرى، يريد تثبيت استنتاجه، لكن لا دليل قطعي عليه، لكنه في قرارة نفسه يشعر باقتناع بما توصل إليه المجرم يتصيد الفتيات الجامعيات باسم واحد... فاطمة.

6

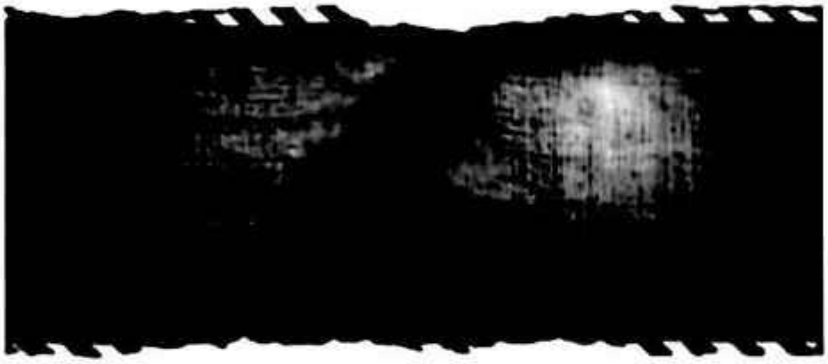

ART_OF_BOOK

البعض يرتكب الجرائم بدافع الحاجة أو الغضب، لكن هناك من يتعامل معها كما لو كانت فنًا. يخطط لها بدقة، يزين تفاصيلها كما يزين الرسام لوحته، ويقف بعد انتهائها ليتأملها في صمت وكبرياء. بالنسبة له، الدم ليس عيبًا، بل لون إضافي على اللوحة. والخوف الذي يزرعه في الآخرين ليس جريمة، بل توقيع يحمل اسمه. أخطر هؤلاء ليسوا من يُقبض عليهم، بل من يظلون أحرارًا؛ لأن كل فعل لهم يشبه الصدفة البريئة.

***

ازدحمت الدار بالمعزيين.. نواح هنا، وصراخ هناك.. بكاء لا ينقطع، وحزن لا يخفت في أعين الجميع.. مات (قاسم).. مات طفلا! مات تاركا كُتبه وفروضه وأصدقاء لن يعودوا للعب الكُرة من دونه..

مات تاركا أباه الذي كانت تملؤه الآمال الكبيرة بخصوص ولده، ومستقبله الذي تنبأ به بأن يكون مشرقا؛ فتحول إلى ظلام دامس، ومأساة حقيقية! كان يدخل معه في جدل طويل حول مستقبله وما الذي يجب أن يكون عليه عندما يكبر.. ما زال يتذكر صوت الصغير العنيد وهو يقول:

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

- "سأحترف لعبة كرة القدم.. قال لي المدرب بأن لي ساقين ذهبيتين".

ثم يتذكر بمرارة صوته الغاضب وهو يرد على ابنه الوحيد:

- "ساقاك الذهبيتان هاتان إن كسرتا؛ جلست عاطلا في البيت.. أنا لن أقبل إلا أن تدخل كلية الهندسة.. يجب أن تكبر لتكون مهندسا ماهرا.. أفهمت؟".

في وسط المعزيين لم يستطع الأب سوى أن يبتسم ساخرا.. الآن لا مانع لديه أن يحترف ولده لعب كرة القدم، فليفعل ما يشاء مادام سيكون بخير..

تبادل الرجال المحيطون بالأب النظرات فيما بينهم وهم يرون الابتسامة الساخرة تأكل وجهه.. ضرب بعضهم كفا على كف في أسف.. الرجل سيفقد عقله بسبب موت ابنه الوحيد!

ربت أحدهم على كتفه وهو يقترب منه ويقول له:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، ولدك الآن في مكان أفضل، إنه عند من خلقه.

أغلق الأب جفنيه، وهز رأسه موافقة، ثم عاد لابتسامته الساخرة..

فتح أبو قاسم عينيه ليتفاجأ من وجود وجه مألوف أمامه؛ إنه المحقق إبراهيم جاء كي يعزيه، لكن عينيه تشيان عما هو أكثر من تعزية ثمة كلام متململ فيهما يود الانعتاق، لم يخب ظن الرجل المكلوم؛ إذ بادره إبراهيم بطلبه الحديث معه على انفراد، اصطحبه لبهو المنزل حيث لا أحد يسمعهما من المعزين، ثم قال: قل ما لديك يا إبراهيم.

تنهد إبراهيم، ثم أنشأ يقول: أعلم أن الوقت قد يبدو غير جيد لمثل هذا الكلام، لكن بالنسبة لنا إنه الوقت الأنسب قبل أن يحدث المزيد.

تململ الأب المفجوع وقال: قل ما لديك سريعا ودون مقدمات

@ART_OF_BOOK

159 / 289 6 ٢٧١٠٧٤٠٩٥٣

فالمعزون بانتظاري.

قدر إبراهيم وضعه فقال: لا بأس، ثمة شكوك لدينا بأن القاتل يتقصد قتل فئة معينة من الفتيات... جامعيات وبتخصص متماثل الحاسب الآلي و... لهن اسم واحد... فاطمة!

فتح أبو قاسم عينيه متسعتين وهو يفكر في كلام إبراهيم، ثم قال بغضب: هل تلمح إلى أن المجرم ينوي أذية ابنتي فاطمة؟!

أعربت ملامح إبراهيم عن أسى وهو يقول: أخشى ذلك! لدينا دلائل تشير إلى هذا التكهن. لذا وجب عليكم أخذ الحيطة والحذر، وبدورنا سوف نضع دورية تراقب المنزل على مدار اليوم.

عاد أبو قاسم إلى الداخل مسرعا، دخل يبحث عن شي محدد، وجد ابنته مشاعل وسألها: مشاعل، أين فاطمة؟

استغربت حالته التي تدعو للخوف وقالت: هناك، مع النساء المعزيات.

- اطلبي قدومها.

غادرت مشاعل وجاءت فاطمة بعد قليل، فلما شاهدها قطعة واحدة تنهد بارتياح:

- هل طلبتني يا أبي؟

- أجل... أريد... هل أنت بخير؟

ألقت عليه نظرة حيرى ولم تجب.

***

في مجلس عزاء النساء كان الوضع مختلفا، فالأم غابت تماما عن المشهد.. تكومت على سريرها في غرفتها محاطة بأخواتها، تفيق لحظة لتدرك الوضع وأن (قاسما) ما عاد في هذه الدنيا؛ فتعود لإغمائها الذي يستمر لساعة أو أكثر. ثم تفيق ثانية،

وتتأكد بأن ما تعيشه هو واقع مرير، فتهرب من واقعها لإغماءة أخرى..

أما فاطمة الأخت الصغرى تتحرك بتشتت بين مجلس النساء وبين أمها الغائبة عن وعيها وعن العالم..

في وسط كل هؤلاء وقفت (مشاعل) تتابع المشهد من بعيد بعينين من جليد..

بيدها اليمنى الظرف البني الذي تلون بدماء شقيقها المقتول، وبيدها اليسرى التي خبأتها جيدا في عباءتها تقبض على سكين حادة وكبيرة..

انسلت لخارج البيت بهدوء.. لم تهتم أبدا أن يلاحظ غيابها أحد.. ولكنها ارتكزت على فرضية أن نساء المجلس سيعتقدن أنها مع أمها، وخالاتها سيعتقدن أنها مع نساء المجلس..

وسواء هذا أو ذاك هي لن تهتم.. فمهمتها القادمة ستدفع من أجلها عمرها كله..

عندما كانت في المستشفى ووصل لهم خبر موت (قاسم) أخيها الوحيد الحبيب؛ بكت حتى ما عادت تحتمل ألم عينيها، ثم تذكرت الظرف البني.. تحركت لزاوية بعيدة، وقرأت ما كُتب في الورقة بداخله، كان خطا بالغ الأناقة والإتقان..

- "سأنتظرك وحدك مساء الغد في الصالون الخاص بك.. كوني عاقلة وإلا كان الثمن رؤوس كل عائلتك".

عندما قرأت هذه الأسطر؛ شهقت بخفوت والتفتت بخوف لعائلتها الصغيرة التي غاب عنها (قاسم)، ولكنهم اجتمعوا ليتمسكوا ببعضهم بقوة.. أبوها وأمها وأختها الصغيرة.. كانت تشعر أنها مسؤولة عن (قاسم)، والآن باتت تشعر أنها مسؤولة عن الجميع، أمها وأبيها وشقيقتها... يجب عليها حمايتهم، يكفيها خسارة (قاسم)، لا تريد مزيدا من الخسائر... اكتفت من الهزائم وصار لزاما عليها أن تحقق انتصارا ولو واحدا

عادت لتنظر بحقد إلى الورقة المكتوبة بعناية.. إنه قاتل أخيها.. يحدد معها موعدا مساء الغد.. سيأتي بقدميه إليها.. وفوق كل هذا يملك الجرأة أن يهدد بقتل باقي عائلتها!

قبضت على الخطاب بقوة، وأعادته للظرف البني بتوعد وهي تهمس لنفسها:

- مساء الغد لنا لقاء.. أقسم أنني لن أترك ثأر أخي ولو كان هذا أخر ما أفعله في حياتي..

خرجت (مشاعل) من ذكرى ليلة أمس في المستشفى إلى هذه اللحظة حيث تحركت للصالون الذي طلب منها الكابوس الأسود الاتجاه إليه..

وقفت أمام الباب الذي كُتبت عليه يافطة "مغلق حتى إشعار أخر للحداد - نسألكم الدعاء".

أخذت نفسا ثقيلا وفتحت الباب على مصراعيه وتركته مفتوحا..

تحركت بخطوات ثابتة وجلست على الأريكة القريبة وهي تنظر للباب، وتنتظر في أي لحظة قدوم القاتل بقدميه.. وهي عازمة أن الليلة ستكون ليلته الأخيرة في هذه الدنيا.. وسيدفن تحت التراب كما فعل مع أخيها الصغير..

غير أن التراب الذي سيدفن تحته سيكون ترابا قذرا تملؤه القذارة بعكس التراب الذي يحتضن (قاسما) الآن.. فهذا تراب طاهر، تتخلله رائحة البساتين والجنان..

ظلت هكذا.. لا يتخللها خوف أو تردد.. تنتظره بلهفة لم تعرفها من قبل.. لكنها شهقت بقوة وهي تقفز من مكانها، وتستدير بجسدها حيث صوت الرجل الذي خرج عميقا وهو يقول:

- لقد أبهرتني يا (مشاعل).. تتركين عزاء أخيك فقط من أجل لقائي.. كم أنت فتاة مطيعة.. وكم أحب هذا؟

ازدردت (مشاعل) ريقها وهي تحاول تجاوز صدمتها.. لقد كان

القاتل بالداخل بالفعل.. كيف دخل؟

لا تعلم.. ولكنه الآن أمامها لا يظهر منه أي شيء سوى السواد..

كانت تريد رؤية عينيه وهو يتألم، كانت تريد رؤية التوسل فيهما وهي تطعنه بسكينها وتنهي حياته.. زفرت بقوة، ثم اندفعت وهي تُخرج يدها من تحت عباءتها، وتنطلق نحوه..

تراجع الكابوس خطوة للخلف وقد ضعق تماما من هذه التي تنطلق نحو قلبه بهذه السكين العملاقة.. حقا لم يتوقع أبدا أن تفعل هذا، في حياته لم يتعرض لمثل هذه المواجهة القريبة بينه وبين شخص لا يريد في هذه الدنيا سوى قتله..

تجاوزها بخفة، وتحرك ليقيد حركتها وهو يمسك ذراعها التي في كفها السكين طوقها من الخلف..

كان يظن أن جسدها الضئيل سيكون ضعيفا، غير أنها كانت بمنتهى الشراسة والقوة..

ظل يقاومها كثيرا، ولكنها استطاعت أن تُفلت ذراعها من قبضة يده وتوجه النصل الحاد إلى الخلف حيث يقف؛ وفجأة صدرت عنه صرخة متألمة.. وأكثر ما آلمه ليس النصل الذي شق جانبه، ولكن ما آلمه هو هزيمته أمامها، تلك الهزيمة التي لم يكن يتوقعها، ولم تكن على الخاطر أو البال! كيف يمكن لفتاة صغيرة أن تمرغ أنفه في التراب وتهزمه شر هزيمة وتمزق جسده شر ممزق؟! لكنه أبى الاستسلام وتحامل على نفسه رغم الألم، أخرج سريعا جهاز الأكسجين المنوم الذي أعده مسبقا بمادة مخدرة وكتم أنفاسها بغضب شديد، وما هي إلا لحظات حتى خارت قواها ووقعت كالصريعة بين ذراعيه من أثر المخدر.

حملها رغم الألم الذي ينهش جانبه الأيمن، وترك المكان على الفور إلى السيارة المسروقة التي تنتظره والتي كان لونها أبيض هذه المرة..

ثم انطلق.

7

ART_OF_BOOK

ليست كل الأكاذيب تكشف بسهولة. بعض الأكاذيب تبنى مثل المنازل، أساس فوق أساس، حتى تصير حقيقة بديلة يعيش فيها الجميع دون أن يسألوا عن أصلها. أخطر الكاذبين ليس من يكذب لحظة، بل من يصنع لك عالمًا كاملًا من الكذب، عالمًا لو حاولت أن تهدمه ستجد نفسك بلا مأوى. وحين تدرك الحقيقة، قد يكون الوقت قد فات؛ لأنك لم تعد تعرف أين ينتهي الكذب ويبدأ الواقع.

***

كان (إبراهيم) ينظر إلى البناية البيضاء على أضواء أنوار الشارع الليلية.. هذه البناية عندما دخلها أول مرة كان من أجل أن يتقدم لخطبة زينب.. عندما وضع يده في يد والدها - رحمه الله- كان يشعر بأنه ملك الدنيا وما عليها.. وكيف لا وزينب هي حبيبته التي لطالما كان يسعى لرضاها.. أيامه معها وحياته معها لم تكن سوى نغمات دافئة تحيط عالمه وقلبه ومحيطه..

مسح دمعة هربت سريعا من عينه، ثم تناول العلبة التي غلفت بعناية لتصبح هدية مبهرة.. أخذ قلما من جيبه، وكتب على البطاقة الملحقة بالهدية:

@ART_OF_BOOK

- "إنه يوم ميلاد ابنتنا الغالية نسر، احتفظي بها جيدا.. لأنني عندما أعود بابنتنا سأسأل عنها".

ترجل من السيارة ودخل البناية، وصعد للشقة التي يسكن فيها الآن احمد اخو زينب وزوجته وأولاده.. طرق الباب ففتحه أحمد الذي تمعر وجهه فور رؤية (إبراهيم) واقفا بالباب، أشاح (إبراهيم) بوجهه بعيدا وهو يعلم ان العلاقة بينه وبين أحمد أبدا لم تكن طيبة.. لكنه سيحتمل وقفته هذه أمامه فقط من أجل زينب وعائلته..

- كيف حالك يا أحمد؟

ظل أحمد على وقفته دون أن يدعوه للدخول:

- جيد، كنت سأسألك عن حالك غير أنني أرى أنك في أفضل حال..

زفر (إبراهيم) بضيق: ماذا تقصد بقولك هذا يا أحمد، هل تظن أن رجلا في موقفي هذا يمكن أن يقال عنه بأنه رجل في أفضل حال؟!

عقد أحمد ذراعيه أمام صدره:

- وما هو موقفك يا (إبراهيم)، لقد تخليت عن مسؤوليتك تجاه زوجتك وعائلتك وألقيت بهم علينا! وها نحن نحمل عنك أعباءهم!

غضب (إبراهيم) بشدة من كلام صهره، وعلا صوته وهو يقول:

- إنني أرسل لك المال من أجل احتياجات عائلتي بشكل دوري، ولم ألق بعائلتي على احد.. زينب هي من لجأت إليك وتركتني.. ولولا هذا ما كنت واقفا هنا أمامك في هذه الساعة..

امسك أحمد بطرف الباب قائلا بصلافة:

- اخفض صوتك.. وليست كل الأعباء أعباء مالية.. أنا قادر

على الانفاق على أختي وابنها.. فلا تظهر نفسك مظهر الرجل المسؤول.. أرجوك، لا تأت إلى هنا مرة أخرى..

كاد أن يغلق أحمد الباب غير أن (إبراهيم) أمسك بالباب بقوة:

- لن أدخل معك في عراك يا أحمد، من أجل زوجتي وعائلتي لن أفعل.. خذ هذه الهدية وأعطها لزينب..

أمسك أحمد الهدية التي غلفت بغلاف طفولي وقال ساخرا:

- ما هذه تحديدا؟

قال له (إبراهيم) بحزم: إنه يوم ميلاد يسر.. أنا لا أنسى عائلتي يا أحمد مهما ابتعدت.. أعطها زينب لتعلم أنني لا أفعل شيئا ليلا ونهارا إلا أن أسعى خلف يسر وقضيتها..

اقترب منه أحمد:

- سأعطيها الهدية غير أنها لا تتذكر يسر ولا أبا يسر..

ضيق (إبراهيم) بين حاجبيه وهو يقول:

- ماذا تعني؟

لكن أحمد دخل وأغلق الباب في وجهه قبل أن يمنعه (إبراهيم).. طرق الأخير الباب أمامه بقوة وهو يصرخ:

- ماذا تعني بقولك هذا.. اخرج يا أحمد وحادثني..

جاءه صوت أحمد من وراء الباب الموصد يشعل في نفسه النائرة:

- لن أقول المزيد فأنت لا تستحق أن تعرف أخبار أختي المسكينة.

استشاط إبراهيم غضبا وواصل طرق الباب وهو يردد: افتح الباب يا أحمد... افتح وإلا كسرته على رأسك...

توقف (إبراهيم) عن الطرقات الحاده عندما خرج له الجار في

آخر الرواق وهو يقول له:

- من فضلك.. كف عن الإزعاج..

نظر (إبراهيم) إليه بغضب، ثم حسم أمره، وغادر البناية وفي قلبه هم كبير، ولا يفهم تحديدا معنى قول أحمد، وعقله منشغل بزينب وخالد.. ودعائه لله أن يجد يُسر بأي شكل.. فإن وجدها عادت إليه حياته القديمة وأسرته الحبيبة..

***

استيقظت (مشاعل) لتجد نفسها مقيدة في كرسي صلب، لا تستطيع الحراك.. هزت جسدها بقوة يمينا ويسارا لكن الحبال حولها كانت شديدة الإحكام..

نظرت حولها تتأمل المكان الذي ما كان سوى قبو أو مخزن قديم.. لا نافذة فيه ولا شيء سوى حوائط قد طالها العفن، وأرض قذرة لم يتم تنظيفها أبدا، وباب حديدي أحاطه الصدأ من كل النواحي.. كما كان هناك سرير بعيد.. شعرت (مشاعل) بالغثيان فقط من منظره المتسخ بالغ القذارة..

فُتح الباب وأصدر صريرا عاليا فانتبهت حواس (مشاعل) وتهيأت لما هو قادم

إنه ذات الرجل الذي لا ترى منه شعرة واحدة..

- من أنت؟

قالتها بثبات وهي تقاوم صداع رأسها، وتنمل أطرافها من أثر المخدر..

ضحك الرجل وهو يقترب منها:

- هل هذه هي جلسة تعارف بيننا إذن؟

كانت خائفة من منظره الشنيع ونبرته المرعبة، لكنها استجمعت شتات نفسها وقالت:

- لا أريد معرفتك..

صمتت قليلا ثم سألت بتوتر: لماذا قتلت أخي؟ ماذا فعل لك أخي البريء؟!

ظل الكابوس على وقفته دون كلمة ثم قال:

- حسنا دعينا نقول إنك ستكونين أكثر طاعة لي حينما تجدينني قاتلا حقيقا.. أنت الآن تعرفين أنني رجل قادر على قتل عائلتك كلها من الألف إلى الياء..

لمعت الدموع في عيني (مشاعل) بشكل واضح غير أنها لم تبكي ولم تنطق..

ابتعد الكابوس قليلا ثم قال:

- ما رأيك في المكان؟

قالت بصلابة مفتعلة:

- مكان كصاحبه. لا يعيش في مثل هذه الأماكن غير الجرذان وزواحف المستنقعات.. أخرجني من هنا أيها القذر

تحرك نحوها الكابوس، وأخرج خنجرا من ملابسه وشهره في وجهها

- دعينا نتفق الآن أن نكون أكثر [illegible]

[illegible]

- [illegible]

[illegible]

(مشاعل).. [illegible] تنطق ولتنطق [illegible] الأولى لها كان [illegible] تكون هي ضحية [illegible] إلى غيرها كما كان [illegible]

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

سيفعله مع فتاة أخرى..

جلس نهاره وليله يتبع خطواتها من بيتها حتى عملها. حفظ مواعيدها ومواعيد إخوتها ووالديها..

وصبر كبير لم يختبره من قبل، انتظر الفرصة المناسبة..

كان في وضع الاستعداد هو ومساعده على أمل أن تتهيأ له الظروف..

وعندما تهيأت؛ انقض على الأخ الصغير واستغله.. وها قد أتت ثمار تخطيطه هذا وها هي الآن تقبع في سجنه الأبدي..

ولكن..

هناك حائط منيع يعزلها عنه ويمنعه منها.. لا يفهم كيف؟ وما شعوره هذا؟

قال بقوة وصوت غاضب:

- لو لم تتأدبي معي يا (مشاعل)؛ فقأت لك عينيك بخنجري هذا..

هزت رأسها وهي تقول:

- سأكون شاكرة لك إن فعلت.. فمنذ أتيت هنا وعيناي لا تريان إلا القذارة وأنت مجمع القذارة كلها

اضطرب [illegible]

[illegible]

شعرت (مشاعل) بطرف الخنجر وهو يلامس جسدها. شعرت بتوتر عظيم وهي لا تعلم ما الذي ينوي فعله هذا المجهول لها كتمت أنفاسها. ولم تفه معها بكلمة.

تمالكت نفسها وهي تشعر بأن الرجل قد تجمد وهو يوجه الخنجر لجسدها. ثم في لحظة ابتعد. أخذت نفسا عميقا تبدد به توترها.

أما الرجل فقد خرج من المكان سريعا دون كلمة أخرى وقد أغلق من خلفه الباب بإحكام..

سمحت (مشاعل) لنفسها بأن تبكي من الخوف والألم والتعب والحسرة.. لقد جاءت على أمل أن تنتقم لنفسها ولعائلتها ممن أساء لها، لكنها وقعت في قبضة الوغد الذي ترغب في أذيته وصارت عبئا جديدا يضاف إلى أعباء عائلتها، وسببا جديدا يضاف إلى الأسباب التي تشغل بال عائلتها! يا لها من عاثرة حظ!

انشغل قلبها على والديها وأختها. ماذا سيفعل الجميع إن علموا باختفائها؟ لا ينقصهم في هذه الظروف أن تجلب لهم مصيبة جديدة. لا تريد لهم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ART_OF_BOOK

ودعت في قلبها أن ينتهي ظلامها هذا على خير.. وأن يكون بعون عائلتها ويسكن نفوسهم الخائفة وقلوبهم الواجفة..

@ART_OF_BOOK

8

الوحدة ليست غياب الناس من حولك، بل غياب الفهم. أن تكون محاطا بألف شخص، لكن لا أحد يرى الألم الذي في داخلك، هو العزلة الحقيقية. هناك وحدة أشد قسوة من السجون: أن تعيش بين الوجوه التي تبتسم لك، وأنت تعرف أنهم لن يفهموا لو صرخت بأعلى صوتك. المجرمون يعرفون ذلك جيدا، يستغلون هذا الفراغ ليتسللوا إلى النفوس. فالوحدة التي لا تعاش بحذر... تتحول إلى باب مشرع للخراب.

***

اخترقت الشمس النافذة القريبة لتداعب وجه المحقق (إبراهيم) الذي كان في مكتبه يشعر بنورة لم يشعر بها من قبل.. ما زالت كلمات أحمد مساء أمس تتردد في عقله تشعل له صدره بغضب عارم.. وأكثر ما يغضبه أنه لا يعلم أبدا ما الذي يعنيه عندما قال إن زينب قد لا تتذكره أو تتذكر ابنته..

هناك ما يحدث لزوجته، ويجب أن يعلمه..

نهض من وراء مكتبه يزمع زيارة أمه، وقبل أن يخطو خطوة، دخل عليه رجل مفزوع وهو ويصرخ:

- ابنتي أيها المحقق..

وأختها.. مشروع عائلي كان يدر لنا دخلا..

أومأ (إبراهيم) برأسه متفهما، فقال الرجل:

- ذهبت هناك.. وجدت الباب مفتوحا وأنا أعلم أنه كان مغلقا من قبل. لقد وضعت بيدي عليه لافتة الحداد.. دخلته سريعا وأنا أتصور أنني سأجدها هناك.. لكن ما رأيته أكد لي أن شكي كان في محله.. وأنها خُطفت.. وأن هذا المستدرج هو سبب كل ما يحدث لنا..

مال (إبراهيم) بجذعه للأمام وهو يسأل باهتمام: ما الذي وجدته تحديدا؟

(أبو قاسم): لم أستطع أن أخطو للداخل كثيرا.. تجمدت وأنا أرى آثار معركة هائلة.. وكأن حربا ضروسا كانت في المكان.. أسقطت الكراسي في الأرض، وهناك طاولة كاملة تكسرت وتناثرت محتوياتها..

خِفت أن أدخل.. خِفت أن أجد جثتها.. فأتيت فورا إلى هنا:

- أرجوك تعال معي..

لم يكن (إبراهيم) لينتظر من الرجل أن يدعوه، نهض على فوره وخرج ومن ورائه أبو (قاسم) الباكي.

قابل (إبراهيم) (نوافا) فقال له:

- (نواف)، أريدك أن تتصل بفريق الجرائم الجنائية، خذ هذا العنوان واجعلهم يلحقون بي إليه..

تم تحرك لمكتب (محمد)، طرق طرقتين ثم فتح الباب ليجد المحقق (محمدا) منكبا على أعماله فقال له:

- أحتاجك معي.. هناك فتاة أخرى من المتوقع أن يكون قد خطفها المشتبه به.. ولكن هذه المرة ثمة مسرح للجريمة..

تحمس المحقق (محمد) عند سماعه هذه الكلمة..

مسرح للجريمة..

ART_OF_BOOK

وأختها. مشروع عائلي كان يدر لنا دخلا.

اومأ (إبراهيم) برأسه متفهما، فقال الرجل:

- ذهبت هناك.. وجدت الباب مفتوحا وأنا أعلم أنه كان مغلقا من قبل. لقد وضعت يدي عليه لافتة الحداد.. دخلته سريعا وأنا أتصور أنني سأجدها هناك.. لكن ما رأيته أكد لي أن شكي كان في محله.. وأنها لخطفت.. وأن هذا المستدرج هو سبب كل ما يحدث لنا.

مال (إبراهيم) بجذعه للأمام وهو يسأل باهتمام: ما الذي وجدته تحديدا؟

(أبو قاسم): لم أستطع أن أخطو للداخل كثيرا.. تجمدت وأنا أرى آثار معركة هائلة.. وكأن حربا ضروسا كانت في المكان.. أسقطت الكراسي في الأرض، وهناك طاولة كاملة تكسرت وتناثرت محتوياتها..

خفت أن أدخل.. خفت أن أجد جثتها.. فأتيت فورا إلى هنا:

- أرجوك تعال معي..

لم يكن (إبراهيم) لينتظر من الرجل أن يدعوه، نهض على فوره وخرج ومن ورائه أبو (قاسم) الباكي.

قابل (إبراهيم) (نوافا) فقال له:

- (نواف)، أريدك أن تتصل بفريق الجرائم الجنائية، خذ هذا العنوان واجعلهم يلحقون بي إليه..

ثم تحرك لمكتب (محمد)، طرق طرقتين ثم فتح الباب ليجد المحقق (محمدا) منكبا على أعماله فقال له:

- احتاجك معي هناك فتاة أخرى من المتوقع أن يكون قد خطفها المشتبه به. ولكن هذه المرة ثمة مسرح للجريمة

تحمس المحقق (محمد) عند سماعه هذه الكلمة

مسرح للجريمة

@ART_OF_BOOK

يعشق المحققون مسارح الجرائم.. عندما يوجد هناك مكان قد شهد جريمة ما؛ ففي أغلب الظن هناك أدلة.. ولو كانوا محظوظين بما يكفي فسيكون هناك الكثير من الأدلة..

***

بعد نصف ساعة أو أقل كان الجميع يقف أمام صالون التجميل الذي شهد معركة ما زالوا لا يعرفون عنها شيئا..

تجهز الرجال بارتداء القفازات والأقنعة وأغطية مناسبة للشعر وأغطية للأحذية.. فآخر ما يريدونه هو تخريب مسرح الجريمة بأي شكل من الأشكال..

كانت المعركة واضحة..

انتشر رجال التحقيق والبحث الجنائي في كل مكان.. وكان هناك من يصور أدق التفاصيل على الأرض وعلى الحائط.. حتى رأى (إبراهيم) آثار دماء متناثرة على الأرض..

أشار لأحد رجال البحث الجنائي وهو يقول:

- خذ عينة الدماء، هذه وقم بتحليلها..

قال (محمد): هل تظن أنه قتلها؟

رد (إبراهيم) بأسف: كل شيء جائز..

تحرك قليلا ثم وقعت عيناه على ظرف كالذي رآه كثيرا في الفترة السابقة.. ظرف بني.. لقد كره اللون البني بسبب هذه الظروف..

بيد أن هذا الظرف مجعد بشكل كبير كما أن به نقاط دماء جافة..

تناول (إبراهيم) الظرف وفضه بعناية ثم قرأ ما فيه:

- "سأنتظرك وحدك مساء الغد في الصالون الخاص بك.. كولي عاقلة وإلا كان الثمن رؤوس كل عائلتك".

إذا لهذا السبب كانت (مشاعل) هنا في هذا الوقت.. تركت العزاء من أجل مقابلة من يهدد عائلتها ظنا منها أنها تحميهم بهذا الشكل..

الساذجة!!! ألقت بنفسها في براثن من لا يرحم..

وضع (إبراهيم) الظرف في كيس بلاستيكي وسلمه إلى واحد من رجال البحث الجنائي:

- أريدك أن ترفع البصمات من هذا الظرف.. كما أن هناك دماء جافة أظن أنها قديمة بعض الشيء.. قم بتحليلها!

رد الرجل بأدب: حسنا..

وظل (إبراهيم) و(محمد) في المكان يمشيان فيه بحذر مع كل رجال البحث الجنائي..

ولم ينتهيا من البحث الشامل فيه إلا بعد ساعات..

***

في نفس الوقت الذي كان المحققان يعملان بجهد لكشف ملابسات الحادث وتحديد طريق الجاني، كان هناك في غرفة بسيطة في بيت بعيد رجل قد اتشح بالسواد من راسه حتى أخمص قدميه.. خطا بخطوات بطيئة بحذائه الثقيل نحو المرآة أمامه، ثم شرع في نزع قفازيه السوداوين..

ظهرت كفه اليسرى التي كان جلدها متآكلا بشكل عميق..

نزع الرجل ثيابه قطعة تلو الأخرى حتى وقف أخيرا ينظر إلى انعكاس وجهه..

تأمل التشوه الواضح في جانب وجهه وصدره الأيسر وذراعه اليسرى.. وانكمش جلده على نفسه ليترك في النهاية كائنا قد تحول تماما خارجه وداخله بعد هذا الحادث..

ظهر أمامه أثر حرق قديم في كفه، ندبة حمرا صغيرة، تلك الندبة كانت تؤلمه نفسيا فهي تحمل في طياتها ذكرى أليمة

حينما تعرض للحرق من أبيه الذي كان يطفئ السجائر في جسده، لم تكن أمه تعامله بطريقة أحسن، بل كانت الأسوأ بين والديه لطالما كانت تضربه في رأسه، ولطالما كانت تعنفه وتزجره وتتفنن في أذيته جسديا ونفسيا، تشده من أذنيه حتى تحمرا، وهي تصيح في وجهه:

- لديك أذنا حمار أيها الغبي، سبحان الله الذي لم يجعلك تشبهه فقط في الغباء بل حتى في الشكل، ليتك في نصف وسامة أخيك...

مسح دمعة انسابت من مقلته، أراد تجاهل منظره كما أراد تجاهل ذكرياته البشعة، حرك عينيه ليحدق في مكان الجرح السطحي الذي أحدثه سكين كبيرة كانت تعبث بها أنامل عنيدة..

ابتسم ساخرا وهو يمرر كفه على الجرح ويتلذذ بطعم الألم الذي يشعره به..

ثم تناول من الصيدلية المنزلية معقما، وعقم الجرح؛ فأشعره هذا بألم أكبر جعله يضحك من أعماق قلبه..

من المفترض ألا يسبب الألم كل هذا الضحك.. غير أنه ضحك وبقوة؛ لأنه للمرة الأولى يتحرك فيه شعور.. أي شعور على الإطلاق منذ فترة طويلة..

حتى لو كان هذا الشعور ألما..

فُتح الباب من ورائه فانقطعت ضحكاته والتفت بحدة للقادم..

كانت امرأة عجوزا سمراء تتشح بالسواد، وتنظر له بامتعاض واضح.. أسرع بستر نفسه بأقرب لحاف،

أحنى رأسه في خنوع وتراجع خطوة للوراء وهو يسمعها:

- أتضحك؟ لماذا؟ هل انتهى ثأر أخيك.. هل أخذت حقه.. هل انتقمت من قاتله؟

لم ينطق فظلت تحادثه وتعامله كحشرة لا معنى لها:

- لا يحق لك الضحك.. لا يحق لك العبث هنا وهناك.. لا يحق لك الاستمتاع بالحياة حتى تأخذ ثأر أخيك..

ثم صرخت به بصوت عال: أتفهم؟

استدارت وكادت تخرج، ولكنها تجمدت مكانها بعد أن قال: وبعدها؟

عادت لتدير له وجهها ثم مشت إليه ببطء: ماذا تقول؟

فقال بإصرار دون أن يرفع عينيه إليها:

- وبعدها؟ وبعد أن آخذ بثأر أخي. أي حياة هذه التي من الممكن أن أعيشها.. انظري إلي.. هل سترضى أي فتاة بالاقتران بي وأنا أبدو بهذا الشكل المسخوط.. من سترضى بي؟

قابلت المرأة بحقد وغل: أنت حقا تصيبني بالاشمئزاز، ليس بسبب شكلك ولكن بسبب كل ما يشغل بالك.. الفتيات..

ضربت على رأسه بقوة:

- هذا كل ما يدور في عقلك النجس.. ليتك كنت من مات لا هو.. لقد أخذوا مني ابني الأفضل وتركوك.. ليتهم كانوا قد أنهوك تماما وتركوه لي..

ثم عادت لتضرب رأسه من جديد:

- إن لم تأخذ بثأر أخيك عن قريب، فلا أم لك في هذه الدنيا أتفهم..

خرجت باندفاع، فتطلع إلى الباب الذي خرجت منه وهمس لنفسه:

- وكأنه كان لي أم من الأساس!

***

9

مشت لطيفة بعد أن خرجت من بيتها إلى بيت عمتها.. اختارت طريقا حيويا كما نبهتها أمها خاصة بعد اختطاف صديقتها (مشاعل) ومن قبلها قتل أخيها (قاسم)..

والحادثتان مرتبطتان بالمستدرج..

اسم المستدرج الذي ظنت عندما سمعته لأول مرة أنها مجرد حكاية أسطورية لوحش خيالي من نسيج عقول أبناء "ديرتها"..

سمعت كثيرا عن فتيات من الحي يتم اختطافهن ثم يغدن ولكنها أبدا لم تكن تصدق..

حتى أنها أخبرت (مشاعل) كثيرا بألا تصدق هذا الكلام..

ومع حادثة (فاطمة) شعرت بالرعب.. لقد كانت تعرف (فاطمة) جيدا.. كانت تشك في اختفائها عندما قال والداها إنها عند جدها وجدتها في أبها.. ولطيفة كانت أكثر من يعلم أن (فاطمة) كانت لتقتل نفسها قبل أن تعيش مع جديها..

كان غيابها يشعرها بالقلق.. لكنها أبدا لم تتخيل أن (فاطمة) حقا تم اختطافها ثم قتلها من قبل المستدرج..

وقتها المستدرج ما عاد مجرد قصة أسطورية خيالية

يتحاكاها البعض هنا وهناك..

أصبح واقعا حقيقيا..

بعد أن عرفت لطيفة أن المستدرج واقع حقيقي أصبحت تتعامل بحذر إلى حد كبير. ولكن ما جعل الحياة تنقلب رأسا على عقب اختطاف (مشاعل).. صديقتها القريبة الودود الجميلة..

شعرت لطيفة بالحزن والخوف والأسى. وبرغم كل هذا أيضا لم تكن تريد أن تصدق..

لم تنتبه لطيفة للسيارة الرمادية التي تسير خلفها ببطء عندما استدارت في شارع جانبي والذي في آخره بيت عمتها..

توقفت السيارة وترجل منها الكابوس الأسود..

سار خلف لطيفة الشاردة..

كانت شاردة في (مشاعل) وقلبها يدعو لها بالسلامة.. حتى سمعت صوت أقدام خلفها فانتبهت وتوقفت عن التقدم وخافت حتى أن تستدير.

سمعت من يقول بنبرة ساخرة: أنت صديقة مشاعل أليس كذلك؟

سقط قلبها ولكنها استدارت ببطء فوجدت هذا الرجل بشكله المظلم الأسود.

فقالت لطيفة بأحرف مهتزة: من أنت؟

سكت الرجل قليلا ثم قال: أنا سأكون كابوسك الأسود..

وقبل أن تصرخ وقبل أن تتحرك كان قد أطبق على أنفاسها بجهازه التنفسي الحاوي مادة مخدرة..

خلال ثوان كانت نائمة بداخل سيارته يقطع بها الشوارع والممرات حتى وصل إلى هدفه.

***

باتت تشعر (مشاعل) بالآلام تنتشر في جسدها من جلستها المقيدة هذه.. كانت تتململ بإرهاق وتعب وتحاول دون جدوى تحريك أطرافها..

لكن أطرافها تيبست تماما من طول الفترة التي جلستها في هذا الوضع المؤلم..

لا تعلم كم لبثت! فلا ترى شمسا ولا تشعر بالنجوم عندما تظهر في السماء.. إنها في قبر بالكاد تستطيع التنفس فيه!

هربت من لحظاتها في هذا المكان المنعزل بأن تسمح لذكرى أخيها (قاسم) أن تلازمها.. فبرغم الألم تتذكر عندما كانت تطارده في أروقة البيت من أجل أن يلملم ثيابه المتناثرة، أو من أجل فروضه التي لا ينهيها.. ينتهي شجارهما عادة بأن تُلقي عليه نعلها المنزلي أو تشد له أذنا من أجل أن ينصاع.. ثم قبل أن ينام يذوب الخلاف وينتهي الشجار ولا يتبقى بين جدران البيت سوى ضحكاتهم وأمسياتهم لبعض بنوم هانئ وأحلام سعيدة..

دمعت عيناها وهي تتذكر أنه الآن في نوم لن ينهض منه وأحلام لن تنتهي.. أما هي ففي كابوس مظلم لا تعرف إن كانت ستسلم منه أم ستكون من الهالكين..

فُتح الباب فاعتصرت جفنيها وهي حقا لا تريد أن يقع بصرها على أوشحته السوداء ووجوده الخانق..

لكنها فتحت عينيها سريعا وهي تسمع صوتا مألوفا لفتاة تقول بخفوت:

- مشاعل..

كان يمسك الكابوس بصديقتها لطيفة من ذراعها ثم سار بها للسرير القذر وألقاها عليه بعنف، فتأوهت بضعف وصرخت (مشاعل):

- لطيفة؟ ما الذي فعلته أيها المجرم.. ألا تنكفن عن إجرامك.. لماذا أتيت بها؟

ضحك الكابوس وهو يتقدم ليقف أمام (مشاعل):

- يجب أن تشكريني بأنني أتيت بها.. إنها صديقتك المقربة.. أظن وجودها لن يجعلك تشعرين بالملل..

حركت (مشاعل) كتفيها بعنف في محاولة يائسة للفكاك:

- اتركها، دعها تذهب.. أنا لا أريدها هنا أبدا.. لقد أرسلت في طلبي أنا مع (قاسم).. وها أنا ذي هنا.. لماذا تقحم الآخرين؟

اقترب منها الكابوس وانحنى ليجعل وجهه أمام أنفاسها ويقول:

- أمامك فرصة اختيار لن تتكرر.. تعقلي وأجيبي على سؤالي القادم، وتذكري بأنها فرصتك الأخيرة.. ماذا لو وضعت في يدك الاختيار؟ واحدة منكما سأدعها ترحل وتعود لأهلها، فمن ستختارين؟ أنت أم هي؟

بهتت (مشاعل) من سؤاله..

هل حقا يقوم بوضع هذا الاختيار بين يديها.. هل يفتح لها الباب ويدعها تذهب.. هل يطلق سراحها.. ولكن ما الثمن.. لطيفة؟ سيبقي على صديقتها وقد لا تراها أبدا.. سيؤذيها ولن يرحمها..

شحذت (مشاعل) قوتها وقالت: سأختارها هي، دعها تذهب..

لم ينطق ولم يتحرك.. الحقيقة أنه أبدا لم يكن ليتركها ترحل.. ولكنه كان يلعب لعبة انقلبت عليه.. كان يريد إعطاءها أمل الرحيل.. ثم سيسحبه من تحت قدميها بعنف ويتلذذ بيأسها المطلق..

كان سيفعل كل هذا..

ولكنها أنهت لعبته قبل أن يبدأها

ART_OF_BOOK

وألفت بالحرية التي كان يلوح بها في سلة القمامة..

لم يكن يتوقع إجابتها.. لم يتوقع أبدا ان تقدم حرية غيرها على حريتها! وتختار أن تبقى هنا معه.. لقد كان يختبر بوصلة أخلاقها وكله يقين بأنها ستفشل وستقدم نفسها على صديقتها، بيد أنها نجحت! نجحت وخيبت ظنه، ذلك الموقف منها كان مؤثرا في دواخله!

حرص على ألا يظهر تأثره أمامها، والقناع الذي كان متسربلا داخله كان خير معين له لإخفاء تأثره...

تساؤلات جمة راودته مؤداها: هل يعقل أن يكون ثمة أناس ما زالت تتمتع بمزية أخلاقية كالإيثار؟!

لا يعلم كنه الشعور الذي اجتاحه هل يعقل أن يكون معجبا بها؟! ما الذي يدفعه إلى إبقائها حية حتى الآن إن لم يكن الإعجاب! ولكن السؤال الأهم بالنسبة إليه هل يمكن لمثلها أن تعجب بمثله؟! كان الجواب واضحا بالنسبة إليه؛ فمن ناحية يراها فتاة جميلة ذات خلق رفيع وحياة مستقرة، ومن ناحية أخرى يقف على النقيض منها إنه مجرد وغد مشوه معتوه في نظر الجميع بمن فيهم أمه! والأهم إنه الشخص الذي تسبب بقتل أخيها! كان واضحا أن علاقته بها مجرد ضرب من ضروب الخيال المجنون والجنون الخيالي، لكن شيئا سرياليا جعله يعيش تلك الأخيلة ويتمثلها ويحاول إقناع عقله المخبول بأنها حقائق لا تقبل الدحض!

لعل عقله زين له الأمر! لعل عقله جعله يعيش أخيلة مجنحة بروح رومانسية، أخيلة خارجة عن طوق الواقع، أحلام لازوردية جميلة منقلة بروح الأمل والصبابة والحب والحياة المختلفة والعالم البديل! لعله ارتأى أن الاقتران بها سبيل رائع للهروب من واقعه، للهروب من ازدواجية شخصيته، للهروب من فتامة أفكاره، للهروب من بشاعة أفعاله، للهروب من أمه! ولعل ذكريات طفولية صاحبته متعلقة بذلك الفيلم الكرتوني الذي

@ART_OF_BOOK

شاهده مرارا وتكرارا والذي يحكي قصة الجميلة والوحش، لعله أراد إعادة الفيلم ولكن بكتابته وإخراجه وتمثيلها

عند فكرته الأخيرة شعر بلسعة في القلب لم يشعر بها من قبل..

يعلم أنها تمتعض منه ولا تطيق رؤيته..

لكن في هذا الاختيار تحديدا اختارت أن تبقى معه في مقابل أن تذهب صديقتها.. اختارته حتى وإن كانت مضطرة، خائفة، غاضبة..

اختارته كما لم يختره أي انسان في حياته.. حتى أمه لم تختره.. كانت أفكاره المجنحة تقوده لعالم الخيال، سلمها القياد وأخضع لواقع بديل، ذلك فستانها الذي كانت ترتديه عندما أحضرها إلى عالمه الأسود ففبشه اللون الوردي وامتزج بالسواد، حمل الفستان يراقصه ودموع الرومانسية الشفيفة تنساب من مقلتيه، وفي لحظات امتلأ الفستان بجسد مجرد، وفي لحظة أخرى تشكل الجسد النقي بشكل آدمي: برزت فيه عينان جميلتان، وأنف أخنس، وحواجب خفيفة، وأهداب طويلة، وتكون وجهه الملائكي وهو وجه مشاعل، ثم برزت أطراف الجسد الناعمة قدمان ويدان، وتكور ما تكور منه، وضمر ما ضمر منه، وانتفخ ما انتفخ منه، وتعرج ما تعرج منه لتتشكل تضاريس أنثى باسمة الثغر تعلوها صبغة خفيفة من مساحيق التجميل، قبلت جبينه بإجلال وتبجيل وهي تقول: كم أحبك يا سعدي.

فلم يجد نفسه إلا وهو يضمها إلى صدره على أنغام الموسيقى التي ملأت أذنيه إذ اعتلت كشلال هادر، وصخب المكان بأنوار طيفية تخزر العيون، وتبهج النفوس، ومن العدم انداح الجدار كاشفا عن جوقة غنائية يترأسها المايسترو الذي بفضله كسبت الأنغام نغمها، يحرك يده بالعصا السحرية، ويستجيب لها أفراد الجوقة، يهز رأسه في طرب ونشوة وما

طربه إلا مباركة لهذا العرس المخملي الذي أقيم في حجرة لا يعلم كيف اتسعت لتشمل كل هؤلاء القوم من رجال ونساء وأطفال...

وفي لحظة انطفأت الأنوار وعم الظلام ليدهش من سواد شمولي! تلفت فلم يجد أحدا من تلك الجمهرة! لكنه لم يأس على ما فاته فطالما مشاعل بين يديه فلا يهمه شيء من العالم، ولكن في لحظة أخرى شعر بمشاعل تنسرب من بين يديه، التفت إليها فلم يجد غير فستان خاوٍ وفي لحظة صغرت القاعة، وعادت حجرة مقيتة لا تتجاوز أمتارها العشرين مترا مربعا، وكأن ماء باردا سكب على رأسه أو جمرة متقدة وضعت في قلبه اقشعر بدنه وارفض جبينه وتغضنت أساريره فصرخ بجنون: كلا...

طرقات على الباب: هل جننت؟

صوت أمه أعاده للواقع، أجاب: إنني بخير.

يعلم أنه لو كان الخيار بيد أمه لاختارت أن يموت هو مقابل أن يعيش ابنها الأحب..

ترك (مشاعل) وتحرك اتجاه لطيفة التي بدأت تنتبه أكثر لكل ما يدور حولها..

رأته لطيفة وهو يتقدم تجاهها، بدأ قلبها ينبض بعنف، صارعت القيد الذي بيديها بكل ما تملك من قوة، لكن الكابوس كان يتقدم إليها ببطء، اقترب حتى أصبح أمامها مباشرةً.

شهقت، وأغمضت عينيها.

وعندما فتحتهما مجددا، رأت شيئا جعلها تكاد تفقد عقلها..

أخرج خنجره ومدها ناحية جبينها..

صرخت لطيفة في توسل: أرجوك... لا تفعل هذا، أرجوك!

لم يكن يستمع.

انحنى ببطء، حتى أصبح وجهه قريبا جدا من وجهها. كانت أنفاسه الساخنة تخرج من وراء وشاحه الأسود؛ لتلامس بشرتها المرتعشة.

حرك يده ببطء شديد، وكانت تحركاته تحركات من يريد أن يجعلها تتعذب بكل لحظة تمر.

توقف وقد خرج صوت (مشاعل) من خلفه وهي تقول بهلع:

- ابتعد عنها.. ابتعد عنها الآن.. ماذا تفعل؟ قلت لك اتركها وسأبقى أنا.. اتركها في سلام..

لم يرد، ولم يلتفت.. ولطيفة أمامه تحاول أن تبعد رأسها، لكنها لم تستطع، حاولت مقاومته، لكنه كان أقوى منها بأضعاف، وهو يحكم قبضته على عنقها لتثبيته.

صرخت، لكنها لم تتوقف عن المقاومة، ما جعله يترك الخنجر ويضغطها بعنف، لم تشعر إلا بالألم يمزق وجهها مع صفعته هذه.

تجاهل تماما صراخ (مشاعل) من ورائه، وصب كل غضبه على لطيفة التي كانت تصرخ، تبكي، تستنجد..

صرخ بها بنبرة متوعدة: اصمتي!

لكنها لم تتوقف، كانت تصرخ بحرقة: أنت تؤلمني! ابتعد عني! أرجوك!

صراخها لم يزد الكابوس إلا غضبا.

فسحب طرف غطاء السرير المتسخ، وحشره في فمها من أجل إخراسها تماما بطريقة صارخة وصلفة.

شهقت، ودموعها تنهمر بلا توقف، بينما عاد ليمسك الخنجر، وأعادها إلى جبينها، وأكمل ما كان يفعله.

كان الألم حارقا.. كانت تشعر أن وجهها يتمزق، لكن ما كان يحيفها أكثر أنه لم يكن يقتلها.. بل كان يتركها تتألم عمدا!

عندما انتهى، تحرك نحو الزاوية أمام عيني (مشاعل)

المذهولتين، حيث كانت هناك كاميرا قديمة على طاولة مكتب صغيرة..

أمسك بكاميرته، ثم عاد إلى لطيفة، رفع الكاميرا والتقط صورة لها، والدموع تسيل من عينيها وقد تلخبط الكحل وسال على وجنتيها.

كانت الكاميرا قديمة فلم تخرج الصورة إلا بعدما ضرب الكابوس الكاميرا عدة ضربات وهو يشتم الرجل الذي اشتراها منه في سوق الحراج، ثم أمسكها الكابوس، وقال بصوت هامس:

- إنها لأجله.. أرجو أن تنال صورتك رضا المحقق العظيم..

عاد للمكتب، وفتح درجه، وأخرج ظرفا بنيا.. وورقة بيضاء صغيرة..

أخرج قلما وانحنى لبكتب بعناية ما يريد كتابته..

ميزت (مشاعل) الظرف البني العميز الذي كان مع أخيها ظرف مثله، ويحمل لها رسالة..

لاحظت أن هناك كومة من مثل هذه الظروف في الدرج الذي فتحه..

انتهى من كتابة رسالته، ووضعها في الظرف بعناية ومعها صورة لطيفة التي ما زالت تنتحب في ألم واختناق بصوت مكتوم..

مشى ناحيتها، وأخرج طرف الغطاء من فمها وجذبها بعنف لتقف بترنح فشهقت (مشاعل) لما رأته على جبينها وما كتب فيه بخط واضح.. خط من دماء المسكينة..

قالت بألم متحشرج: أنت وحش.. سادي.. كيف لإنسان أن يفعل هذا؟! لماذا فعلت هذا بها؟!

رد الكابوس وهو ينحرك: اهدني عزيزتي إنها مجرد رسالة

صغيرة.. الرسائل التي تُكتب على الجبين دائما ما يكون لها أثر عظيم..

أخرج جهازه المعتاد غير مكترث بشيء، وكتم به أنفاس لطيفة فذهبت في إغماءة سريعة من أثر المخدر..

***

عاد (إبراهيم) إلى شقته وفتح الباب ودخل مرهقا، شعر بصوت ورقة قد سحقت تحت حذائه فرفع قدمه عن الأرض ثم اتسعت عيناه، بارحه الإرهاق وبدأت حواسه بالتحفز والانشداد، تنبه لما حوله بحساسية متوثبة..

تناول الظرف البني بغضب وفضه سريعا.. كان يتوقع ورقة مطوية وحيدة ككل مرة.. وجد الورقة غير أن معها هذه المرة صورة.. صورة من كاميرا فورية قديمة..

ضعق (إبراهيم) وهو يرى الصورة..

فتاة.. مكبلة، جسدها الهزيل يحمل آثار الضرب المبرح، كدمات زرقاء وسوداء متناثرة على ذراعيها ووجهها. كانت نائمة على فراش قذر، وكانت عيناها مغمضتين والكحل سائل منهما ما يدل على بكاء مر، وكأنها فقدت وعيها، أو.. رفضت رؤية ما يحدث لها..

لكن ذلك لم يكن أكثر ما أرعبه.

كان هناك شيء أخر، شيء جعل يده ترتعش، والصورة تكاد تسقط من بين أصابعه.

خفر على جبينها اسمه الذي ظهر بلون الدماء المرعب..

تسلل الخيوط الدامية على وجهها بكثرة غير أن ملامحها ما زالت واضحة..

تناول الورقة التي كُتبت كالعادة بخط فنان وقرأ ما فيها:

- "تأمل الفتاة التي سيظل اسمك محفورا على جبينها للأبد.

ستتذكر دائما المحقق الذي لم يحمها من الكابوس الأسود.. لقد فقدت مهارتك أيها المحقق الذكي".

أمسك (إبراهيم) بالصورة بقوة، وحدق فيها بعينين مشعتين، وأحس بدمائه تتجمد في عروقه.

شعر كأن العالم توقف للحظة، كأن جدران الغرفة بدأت تضيق عليه، وكأن الهواء صار أثقل من أن يتنفسه.

- ماذا...

تمتم بالكلمة بصوت بالكاد سمعه نفسه، بينما بقيت عيناه معلّقتين بالصورة.

لم يكن هذا مجرد تهديد... لم يكن مجرد تحذير.

كان هذا تحديًا.

- "لقد فقدت مهارتك أيها المحقق الذكي."

لم تكن مجرد كلمات... كانت دعوة نزال صريحة!

لم يدرك كم من الوقت ظلّ جالسًا هناك، محدقًا بالصورة وكأنها ستنطق فجأة وتخبره بما حدث.

رفع رأسه ببطء، نظراته أصبحت كالجمر، يداه قبضتا على الورقة حتى كادت تتمزق، ثم نهض. تذكر الكاميرات المثبتة..

انطلق إلى حاسوبه، فتح البرنامج ليتفحص الكاميرات بداخل البناية وخارجها..

ظل يتتبع اللقطات السريعة وقد فتح أمامه كل الشاشات التي تغطيها الكاميرات العلات..

حتى أوقف الحركة وهو يراه.. لقد حضر بنفسه.. ركن سيارة سوداء صغيرة وخرج منها بهيئته التي راه عليها قبلها في المزرعه كان هدا اليوم بعد الظهيره أي منذ ساعات..

دخل البنايه بهدوء، وكأنه يسكر فيها

غضب المحقق (إبراهيم) فقط من ثقته العالية بنفسه.. هذا الكابوس الهارب من العدالة والذي سيسقط قريبا في قبضتها..

همس لنفسه:

- أقسم أن أذيقك الويل أيها المجرم القذر.

ظل يتتبع خطواته حتى وصل باب شقته، وأخرج الظرف البني تم حشره تحت عتبة الباب لينسل إلى داخل الشقة..

واستدار لينزل السلالم..

ولكنه توقف عند السلمة الأولى، وفعل ما لم يتوقع (إبراهيم) أن يفعله..

لف رأسه اتجاه الكاميرا التي لم تكن ظاهرة، ولوح لها في سلام..

يكاد يقسم (إبراهيم) إنه يرى ابتسامته من وراء قناعه الأسود..

انتهى من تلويحه المستفز، ثم نزل على الدرج بشكل هادئ جدا ورزين..

تابع (إبراهيم) انطلاقه بالسيارة فسجل أرقامها وطلب (نوافا) على الهاتف..

رد الأخير:

- سيادة المحقق.. تفضل..

قال (إبراهيم) وهو يعرف أن الوقت متأخر، ولكنها حالة طارئة..

- نواف اطلب لي شرطة المرور على الفور.. سأعطيك أرقام سيارة سوداء صغيرة.. يجب أن يعثروا عليها.. الآن..

- أمرك سيدي..

***

جلس (إبراهيم) على الأريكة وهو يعلم أنه لا يوجد ما يفعله في هذه الليلة.. سينتظر نتائج البحث المروري مع أنه واثق بأن هذه السيارة لن تقوده إلى المجرم الذي يكني نفسه بالكابوس الأسود..

هذا الرجل أذكى من أن يقع في أخطاء تافهة..

ولكن الغرور قد تملكه، ووضع نفسه في تحدٍ سافر معه..

ما جعل فكرة واحدة تصول وتجول في عقله لا غير:

"سأجدك... وسأجعلك تندم أنك اخترتني خصما لك."

***

لم ينم (إبراهيم) لحظة مع أنه كان يحاول جاهدا أن يريح عقله ولو للحظات.. يعلم أن أمامه أيام طويلة.. تحتاج كل خطوة منه تركيزا كبيرا ويقظة عالية..

توضأ، وصلى فرضه، وتناول إفطاره سريعا.. فإن لم ينم فعلى الأقل يجب أن يأكل لقيمات تمده بالطاقة والقوة لمواجهة القادم..

خرج متجها إلى مركز الشرطة ووصل لمكتبه وهو يفكر ما الذي يمكن عمله بالصورة الفوتوغرافية التي هي الآن في حوزته؟ بعد لحظات دخل العامل وفي يده القهوة الساخنة، ومن ورائه (نواف) والذي يبدو أنه أيضا لم ينم أبدا مساء أمس!

- صباح الخير حضرة المحقق إبراهيم..

احتسى (إبراهيم) من القهوة أمامه وسأل (نوافا):

- ماذا فعلت بأمر السيارة؟

فقال (نواف) بإرهاق واضح:

- تم العثور عليها.. إنها سيارة مسروقة من منطقة النخيل.. عثرنا عليها وقد أغرقت في "صرف" زراعي قريب..

نهض (إبراهيم) من وراء مكتبه، وخرج و(نواف) يتبعه، ولكن (إبراهيم) استوقفه قائلا:

- سأنتظر نتائج البحث الجنائي عن السيارة، أما أنت فاذهب لبيتك، وخذ قسطا من الراحة.. قد أحتاجك في أي وقت لاحق..

تنفس (نواف) الصعداء، وقال بامتنان:

- شكرا.

مشى المحقق (إبراهيم) لمكتب المحقق (محمد)، وطرق بابه ثم دخل.

رفع المحقق (محمد) رأسه وقال بضجر لم يستطع إخفاءه:

- مع أنني أسعد لرؤيتك دائما يا (إبراهيم) غير أن زيارتك الصباحية هذه لا تحمل إلا معنى واحدا.. ستجعلني أترك عملي الذي أنا مكلف به؛ لأتبعك كظل في قضية مجرمك الأسود هذا..

أخرج (إبراهيم) الصورة من جيبه دون أن ينطق بكلمة، والقاها على مكتب المحقق (محمد).

ضيق الأخير بين حاجبيه، ونهض مفزوعا وهو يحمل بين يديه الصورة الفوتوغرافية:

- يا إلهي! أي مريض هذا الذي نتعامل معه؟ لقد حفر اسمك بنصل حاد على جبين المسكينة!

أومأ (إبراهيم) برأسه:

- أجل، وهناك أمر آخر.. هذه المسكينة التي أشرت إليها لم يحضر أحد ليبلغ عن اختفائها!

هز (محمد) رأسه أسفا:

- إنها حقا مسكينة! الناس تحتاج الكثير من حملات التوعية حقا..

وضع (إبراهيم) كفيه في جيبيه وقال:

- أخبرني هل ستأتي معي؟ أم أنك تفضل البقاء على مكتبك مع أكوام التحقيقات المتراكمة أمامك؟

نظر (محمد) لكومة الورق الكبيرة ثم قال:

- سأتي معك.. لم أخلق للجلوس خلف المكاتب..

***

ذهب (إبراهيم) للمنطقة التي بات الآن يعلم أنها محور الأحداث.. واتجه فورا لبيت أبي (قاسم)..

طرق الباب؛ ففتح الرجل الذي كبر أعواما في يومين فقط.. وعندما رآهما سألهما في لهفة:

- ابنتي (مشاعل) هل وجدتماها؟

هز (إبراهيم) رأسه بطريقة ديناميكية:

- ليس بعد سيدي.. لكن هناك من أريدك التعرف عليها..

أخرج (إبراهيم) الصورة من جيبه وأعطاها للرجل الذي تلقفها سريعا وهو يتطلع إليها بدقة ثم قال دون شك:

- لطيفة.. إنها لطيفة صديقة ابنتي.. يا لهي! ماذا حدث لها؟ يا الله!

- اهدأ يا أبا (قاسم)..

قالها (محمد) وأردف: أين تسكن لطيفة؟ أتعرف..

هز الرجل رأسه، وأغلق الباب وهو يتقدمهم في الشارع ويشير لآخره:

- هذا البيت هناك هو بيتها.. يا الله ارحمنا برحمتك..

مشى (إبراهيم) و(محمد) خلف الرجل حتى وصلا إلى البيت المذكور..

طرق أبو (قاسم) الباب وهو يدمدم بحسرة: ماذا سيقول والدها يا ترى؟ كيف أخبره؟

تبادل المحققان النظرات ثم قال (إبراهيم):

- هذه الصورة كانت على بابي مساء أمس.. ولم يقم أحد بإبلاغ الشرطة حتى الآن.. هذا يعني أن أغلب الظن أن والدها لن يندهش من إخباره بأن ابنته قد اختطفت..

نظر له أبو (قاسم) بذهول، ثم فتح الباب وكان والد لطيفة ينظر لثلاثتهم بتوجس

قال أبو (قاسم):

- يا أشهب صباح الخير.. هذان المحققان من مركز شرطة الهفوف.. يريدان التحدث معك..

توتر أشهب بشكل ملحوظ ثم قال:

- لا يوجد ما أقوله.. عن أي أمر تريدان الحديث؟ لم يحدث شيء.

كاد أن ينطق (محمد) غير أن (إبراهيم) سارع بقوله:

- الحقيقة أننا لا نريد الحديث معك.. التحقيق سيتم مع ابنتك لطيفة.. هل هي هنا؟

اهتزت حدقتا الرجل ثم قال بعد مدة:

- نعم، بالداخل.. لكنها مريضة..

استغرب إبراهيم من قوله فكيف يمكن لها أن تكون هنا وهي مخطوفة، لم يفكر سوى بأمر واحد وأن هذا الرجل كاذب، لكنه تماهى معه إذ قال: يجب الحديث معها!

قال أشهب بغضب: ألا تفهم إنها متعبة.

رد محمد

- لا بأس لن نطيل عليها . لكن يجب التحدث معها الآن..

بعد تردد تحرك الرجل ودعاهما إلى المجلس القريب..

فجلس ثلاثتهما بالمجلس وهم يتساءلون فيما بينهم هل حقا ستأتي لطيفة؟ أم أن الرجل يكذب؟

عاد أشهب ومعه فتاة ترتدي العباءة السوداء والنقاب:

يبدو على حركتها البطيئة الوهن والتعب!

جلس على الأرض ومد يده إليها برفق؛ فجلست إلى كتفه في احتماء..

أحاط الرجل ذراعه على كتف ابنته وهو يقول لها:

- هذان الرجلان محققان يا لطيفة.. يريدان سؤالك عن أمر ما..

قال (إبراهيم): أين كنت بالأمس..

نظرت لطيفة إلى والدها، ثم قالت بصوت خفيض: في المنزل..

عاد (إبراهيم) لسؤالها بشك: طوال اليوم؟

أومأت الفتاة برأسها دون رد..

أما والدها فلم يرفع رأسه أبدا وهو يربت برفق على كتف ابنته يؤازرها..

شعر (محمد) بالغضب من رد لطيفة، وهو يعلم أنها كاذبة؛ لأنه كان يحاول دوما توعية عوائل المختطفات بألا يسكتوا عن حقهم بحجة الفضيحة أو العار، تلك الأفكار يجب أن تتغير؛ فقال بصوت حاد:

- هل تعلمين عقوبة من يكذب على رجال الشرطة وفي تحقيق رسمي كهذا؟

انتفضت لطيفة من صوت (محمد) الجهوري، ومالت أكثر على والدها الذي أحاطها بقوة حامية وهو يطلق نظراته الحادة إلى

المحقق (محمد)..

مد (إبراهيم) كفه على ظهر المحقق (محمد) لتهدئته وقال:

- لطيفة لا تكذب أيها المحقق.. إنها خائفة.. كما أن عائلتها بالتأكيد تخاف على سمعتها وتحميها..

بهت أشهب من كلام (إبراهيم) الذي بدا واثقا من نفسه.. إنه يعلم أن لطيفة لم تكن بالبيت بالأمس، وأنها تعرضت للاختطاف والأذى..

قال (إبراهيم) بهدوء: هل من الممكن أن ترفعي نقابك يا لطيفة؟ أستميحك عذرا على طلبي هذا لكن شكوكا تراودني ويجب تجليتها.

التفتت لطيفة بحدة لوالدها الذي بلع ريقه بصعوبة، وبعدها قال في تردد:

- لطيفة تشعر بالحرج من الغرباء، ولا تحب رفع نقابها..

مال (إبراهيم) بجذعه وهو يقول:

- نحن نعلم ما هو أسفل النقاب يا سيد أشهب.. ولهذا نحن هنا.. أعلم تحديدا ماذا يوجد في جبينك.

عند سماعها جملة (إبراهيم) الأخيرة أجهشت لطيفة ببكاء شديد وعال، وتكورت على نفسها، وحاول والدها تهدئتها دون جدوى، ثم قال بنفاد صبر:

- ماذا تريد أيها المحقق تحديدا؟

أجاب المحقق (محمد) بحدة؛ لأنه استشعر أنه سؤال لا يجب أن يسأل، ما الذي قد يريده محققان من فتاة قد اختطفت بالأمس؟!

- نريد الحقيقة يا سيد أشهب.. أن تحكي لنا لطيفة ما تم بالتفصيل.. هذا ما أتينا من أجله..

ادار أشهب رأسه لابنه.

ART_OF_BOOK

- لطيفة ابنتي.. احكي لهم، ولا تخافي.. أريهم وجهك..

مسحت لطيفة وجهها بمنديل من تحت نقابها، ثم بتردد كشفت عن وجهها وجبينها على استحياء.. وقد كان مغطى بلفافة طبية، وقد استدار أبو قاسم ومحمد للناحية الأخرى تاركين مهمة النظر إلى وجه لطيفة لإبراهيم وحده.

تنفس (إبراهيم) بتثاقل:

اخلعي اللفافة رجاء.

فعلت لطيفة ما أمرها به المحقق بتردد، أخذت وقتها في فك اللفافة؛ ليظهر بوضوح اسم المحقق إبراهيم الذي حفر على جبينها غير أنه الآن يبدو باهتا بعد أن تم تنظيفه ووضع المطهرات والأدوية عليه..

فرك عينيه وسألها باقتضاب: ماذا حدث؟

رفعت كتفيها، ومسحت دموع عينيها التي تنساب بلا انقطاع:

- كنت ذاهبة إلى عمتي، وكنت أسير في شارع عمومي.. انحرفت فقط لأدخل للشارع المفضي إلى منزلها وهنا وقفت خلفي سيارة لم أنتبه لها، وخرج منها رجل ملثم قام بتخديري واختطافي..

- كيف تمت عملية التخدير؟

- كان معه جهاز تنفس وضعه على فمي بقوة وأحكم قبضته حتى أتنفسه.

حتها (إبراهيم) للاستمرار: وبعد؟

- وبعدها استيقظت وهو يجرجر قدمي باتجاه غرفة رائحتها عطنة، وأظنها تحت الأرض.. وهناك وجدت.. وجدت..

سكتت لطيفة ونظرت إلى أبي (قاسم) الذي كان يتابع باهتمام كامل كل كلمة تقولها

@ART_OF_BOOK

وعندما نظرت إليه فهم، فهب من مكانه واتجه إليها:

- وجدتِ ماذا يا بنتي.. وجدتِ مشاعل؟

أومأت لطيفة برأسها، وبكت بحرقة أكبر من بكائها الأول؛ فسقط قلبه فقام يهز كتفيها بعنف وهو يقول بقوة وقد خرج عن السيطرة:

- ماذا؟ لماذا تبكين؟ أليست بخير؟

دفع أشهب يدي أبي قاسم من ابنته بغضب ونظراته الزاجرة تشيء عن عدم ارتياح لوجوده: ابتعد عن ابنتي.

احتضن أشهب ابنته وأبعدها، أما المحققان فقاما ليبعدا أبا (قاسم)، و(محمد) يقول له:

- لحظة يا أبا (قاسم) سنفهم كل شيء.. اهدأ أرجوك..

سكنت لطيفة وقالت:

- إنها بخير يا عمي لا تقلق.. كانت مقيدة وكانت تدافع عني بقوة.. كانت تصرخ في وجه المستدرج، وتأمره بالابتعاد عني.. إنها قوية يا عمي لا تقلق عليها.

بكى أبو (قاسم) وهو يسمع كلماتها، وتبادل المحققان النظرات فيما بينهما..

أكملت لطيفة كلامها:

- لقد خير مشاعل بين أن تخرج هي أو أخرج أنا، كان جادا في ذلك.

صمتت لطيفة قليلا ونزلت منها بعض الدموع عرفانا لموقف مشاعل ثم أتبعت:

- وقد قدمتني على نفسها، جعلتني أغادر وبقيت هي في قبضته! ثم... تجمد المستدرج في مكانه، وصفن كالمجنون سارحا، وبعد لحظات بدأ يرقص ويتخيل أنه يراقص أحدا ما، ثم بدأ يحرك يديه وكأنه يقود فرقة موسيقية! إنه مجنون

حقيقيا ثم عاد إلى عالم الواقع فجأة وقد كانت ردة فعله تشي بأن شيئا ما أعاده للواقع كصوت عال أو ضربة في الرأس أو صفعة في الوجه... هناك أخرج الخنجر، وحفر ما حفره على جبيني، ثم عاد لتخديري؛ ووجدت نفسي على الأرض في شارع ضيق قريب من هنا..

نهض (إبراهيم) ومعه (محمد) وهما يمسكان بذراعي أبي (قاسم):

- حسنا لطيفة، سنتركك الآن لتستريحي.. وأرجوك إن كان هناك أي معلومة هامة أو شيء قد لاحظتيه حتى لو كان صغيرا أن تخبرينا به فورا.. أنت تريدين لـ (مشاعل) أن تعود أليس كذلك؟

هزت لطيفة راسها أن نعم: أكيد..

قال لها (إبراهيم) برفق: إذا أرجوك أن تتعاوني معنا أكثر من ذلك.. وسنأتي لك بصديقتك قريبا..

***

خرج (محمد) و(إبراهيم) سريعا لإيصال أبي (قاسم) الذي أبدا لم يكن في حالة جيدة..

الرجل منهار تماما، ومحطم بشكل لا يوصف!

أوصلوه إلى بيته فاستلمته ابنته فاطمة بين ذراعيها تحتويه، وشكرتهما ثم أغلقت الباب..

هنا قرر إبراهيم زيارة منزل العجوز الأعمى واصل فلم يتعاط محمد مع الفكرة بحماسة:

- هل أنت جاد في زيارة ذلك العجوز النزق؟

- نحن بحاجة إلى مزيد من التحقيقات.

نهد محمد حسنا كما تريد.

توجها إلى منزل واصل وعند الباب سمعا صوتا مريبا لشجار

بين رجل وامرأة وسمعا رجلا مسنا خمنا أن يكون الحاج واصل وهو يتألم ويتوجع والمرأة تعنفه بشدة! همس محمد: يبدو أن الوقت غير ملائم فواصل العجوز يتناول جرعته من الضرب! لم أتوقع أن يضرب هذا الرجل سليط اللسان! [5]

قال إبراهيم: فوق كل أفة أفة.

- دعنا نرحل ونعود لاحقا.

- كلا... أريد أن أراه في حالة الضعف، ولعلنا ننقذه من الموت المحقق.

- حسنا.

طرق محمد الباب بقوة ولما تناهى صوت الطرقات مسامع المسنين صمتا فجأة وكأن شيئا لم يكن قبل قليل، فتحت المرأة الباب وهي متشحة بالسواد: هل أنتم أطفال الحي المزعجون؟

رد إبراهيم: أنا المحقق إبراهيم وهذا المحقق محمد.

أحسا أنها انقبضت حينما علمت هويتهما وكأن خوفا خيم عليها، وحتى نبرتها الهجومية استحالت إلى الدفاع: ممم... محققان! و... وماذا تريدان؟

محمد: نريد الحديث مع الحاج واصل.

- ولماذا؟!

- هو يعرف الموضوع، رجاء أخبريه عن حضورنا.

هنا خرج واصل وأمارات الخوف بادية عليه وكأنه خرج للتو من معركة ضروس لكنه زمجر في وجه المرأة: انصرفي يا امرأة غادري إلى بيت أهلك وأريحينا منك، أو اذهبي عند ولدك.

غادرت المرأة وتوجه واصل بالحديث للرجلين: أهلا بكما تفضلا...

دخلا من خلفه وهما يخفيان ضحكهما، ولما استقروا في مجلسهم كان العجوز ينعم هذا الذي كان ينقصني، اسمعا أيها

المحققين أنا رجال غضوب وليس لدي نساء تفتح أبوابا الآن سأكسر قدميها فور مغادرتكما.

إبراهيم: لا داعي لهذه المسرحية يا حاج واصل لقد سمعنا الشجار الدائر بينكما وعلمنا أنها كانت المنتصرة.

حينها تغيرت ملامح واصل وعاد وديعا وهو يقول: خابت الظنون!

بدأ يبرر: كل الرجال يضربون من نسائهم.

محمد: كنا نظنه شجارا فقط هل ضربتك يا واصل؟

تلعثم واصل وهو يقول: ها! أجل، ليست المرة الأولى، لكن الحرب سجال يا ولدي وأنا ما أزال قويا، وسوف أردها لها إن شاء الله، ألم ترياني وأنا أطردها؟

محمد: سمعناك فعلا لكنها عادت للداخل ولم ترحل.

- يبدو أنكما تودان إحراجي وحسب! هذه يا ولدي امرأة سوء وكلها شر وأنا مثلما ترى رجل ضرير، وهي التي تطبخ لي وتنظف ملابسي ولا يمكنني الاستغناء عنها.

- أدام الله المحبة.

- محبة! خسئت، هذه الحيزبون لا تُحب؟! هذه بومة وليست امرأة، لكن إذا كانت حاجتك لدى الكلب أسمه يا عمي.. لديها ولد يعشق الشر، مثل أمه.

حينها دخل إبراهيم في صلب الموضوع إذ قال: لقد أتيناك كي نسألك عن المستدرج نريد الاستزادة بخصوصه ماذا تعرف عنه هل أخبرتك حفيدتك عنه بأشياء لم تخبرنا إياها؟

صمت واصل يستذكر ثم قال هذا ولد شاب يبحث عن البنات الصغار لولا الله سلم لكانت حفيدتي في خبر كان

- أهذا كل شيء؟

صمت مجددا ثم أجاب لا اعلم ما أقول لكما بصراحة.

ذاكرتي صارت متعبة!

فكر وأضاف: لا أعلم إن كانت هذه الحكاية ستفيدكما، لكن حفيدتي تقول إنه كان في سائق باص كان يراقبها أكثر من يوم، وبعدها خطفها المستدرج.

توقف إبراهيم عند هذه المعلومة: سوف تفيدنا بالتأكيد، هل تستطيع أن تصف لنا الرجل أو تصف حافلته؟

- أبيض.

- ماذا؟

- باصه أبيض، وفيه علامة "الرشيدان" مكتوبة بالخط العريض.

- هل هناك شيء آخر.

-.فقط.

قال إبراهيم: حسنا يا عم هل تريد شيئا.

رد: لا.

قال محمد مازحا: ألا تريد منا سجن امرأتك؟!

ضحك واصل وقال: سيكون عيدا، لكنها مفيدة لي.

عاد (محمد) و(إبراهيم) الى مركز الشرطة.. والآن أصبح جليا وواضحا أن الكابوس لا يريد سوى أن يلاعبهم وأن يجعلهم يدورون حول أنفسهم في دوائر مفرغة.. لكن (إبراهيم) لن يفعل ذلك لن يدور معه يمينا ويسارا، بل سيسير في طريق مستقيم حتى يصل إليه..

ولسبب ما يظن أن (متاعل) هي هذا الطريق المستقيم..

***

10

فتحت (مشاعل) عينيها بصعوبة تقاوم بشدة هذا الطرق الحاد في رأسها. ثمة ألم عظيم ينهش عينيها. حركت كتفيها فأدهشها حرية حركتهما. آخر ما تعرفه أنها كانت مقيدة بحبال غليظة لا تقوى فيها على الحراك.

تسللت الرؤية إلى عينيها شيئا فشيئا. حتى اتضحت معالم المكان حولها.

لقد تبدل القبو العفن بغرفة نظيفة.

فإما أنها الآن في حلم جميل، أو أن ما فات لم يكن سوى كابوس شيطاني قد استيقظت منه أخيرا.

استقامت تقاوم الألم الذي طوق رأسها وهي تدور بعينها إلى كل كبيرة وصغيرة بالمكان.

أرض نظيفة لامعة. يتوسطها بساط أحمر وبه نقوش هندسية سوداء.

السرير الذي كانت تنام عليه شراشفه وردية تفوح منه رائحة الصابون ومنعم المفروشات.

تتدلى من السقف ثريا لامعة تعكس الأضواء، وتنير لها الغرفة

بدفء غامر..

هناك أريكة أمامها طاولة.. كما أن هناك طبق قد ملئ بالفاكهة..

تحركت (مشاعل) حيث أشار اليها نداء بطنها.. فتناولت تفاحة وقضمت منها قضمة كبيرة بالكاد استطاعت بعدها ان تغلق فمها.. أغلقت جفنيها وهي تستشعر أخيرا عصارة التفاح وهي تنساب إلى حلقها الجاف..

بلعت ما كان في فمها فاستقبلته معدتها بفرحة مشتاق..

أكملت تفاحتها سريعا وقد شعرت ببعض الرضا من وجبتها الصغيرة..

كان هناك خزانة صغيرة في إحدى الأركان.. فتحتها وسقط فكها عندما وجدت أنها تحوي ملابس محتشمة ونظيفة وعباءات..

انتبهت إلى أن للغرفة بابين.. اتجهت لباب فيهما، وحاولت فتحه؛ ففتح خلافا لتوقعها.. لكنه كشف عن دورة مياه لا غير، إنها أنيقة ونظيفة وعطرة!

حاولت مع الباب الآخر فلعله يفتح وضعت يدها على مقبض الباب.. آخر ما تتذكره دخول الكابوس عليها في القبو بعد أن خرج ومعه لطيفة.. دخل عليها بعد ساعة وقام بتخديرها..

هل ألقاها في الشارع فالتقطتها عائلة رحيمة، والآن هي في بيتهم؟ شعرت (مشاعل) بالأمل مع هذا التصور والاعتقاد..

لقد تم إنقاذها بالتأكيد..

أحدهم أنقذها، والآن هي في أمان.. تريد الاتصال بوالدها ووالدتها.. أرادت إبلاغهما أنها الآن بخير.. أدارت مقبض الباب راجية أن يفتح، لكنه لم يفتح! يا للخيبة! جميع ظنونها بدأت بالتبخر، لكنها أصرت على التشبث بالأمل...

طرقت الباب بأدب.. لم يستجيب أحد.. فأعادت الطرق عليه

مرات أخرى بشكل أقوى..

أيضا لا مجيب...

اتجهت للستارة المسدلة على أحد الحوائط.. أزاحت الستارة، كان ثمة شباك أضاءه من الخارج نور الشمس الساطعة..

أغلقت عينها بقوة..

وكان دهرا كاملا مر منذ أن رأت الشمس آخر مرة..

مسحت على وجهها، وفركت عينيها بأناملها، ثم عادت لتفتحهما في مواجهة أشعة الشمس الساطعة..

حاولت فتح النافذة، لكنها كانت كباب الغرفة مغلقة ولا سبيل لفتحها..

كما أن خلف الزجاج الشفاف كانت هناك قضبان حديدية غليظة تسد المدخل تماما، ولا تسمح إلا بمرور الشمس، ولن تسمح بخروج أي مخلوق..

تراجعت (مشاعل) للوراء، وبدأ قلبها يحدثها أن شيئا غريبا في المكان وأنه ليس كما ظنت..

يبدو أنها تسرعت عندما تصورت أنه تم إنقاذها..

لا.. إنها مازالت حبيسة..

عادت إلى باب دورة المياه، فتحته على اتساعه..

كانت مفاجأة سارة لـ (مشاعل)..

كانت في حالة من الخوف والهياج والاضطراب فلا تعلم ما الذي سيفعله هذا المعتوه بها؟! لكنها أحست برغبة جامحة في الحصول على حمام ساخن يرخي عضلاتها المتشنجة جراء الحبس والتقييد، والأعصاب المشدودة التي كانت فيها طوال الفترة المنصرمة.

دخلت فورا، وأغلقت على نفسها الباب من الداخل، وما هي

إلا ثواني وكانت تتمتع بمرش الماء الدافئ على جسدها ينعشه، ويعيد فيه الحياة.. حاولت أن تسترخي بيد أن مستقبلها المظلم لم يمكنها من ذلك، وفي غمرة من الحزن العميق انهالت دموعها وهي في الماء، وأجهشت في بكاء مر لتختلط الدموع بالماء، لا تعلم على أي شيء تبكي تحديدا هل تبكي لاختطافها ووقوعها في براثن هذا الرجل اللعين، أم لمقتل (قاسم) وضياع دمه، أم لتفكرها في الحالة التي وصلت إليها عائلتها بعد مقتل (قاسم) واختطاف ابنتهم؟! كل تلك أمور تداعت في ذهنها بغتة واختلطت بعقلها مخلفة مختلف المشاعر الإنسانية البكائية والجنائزية!

وفي لحظة ودون سبب واضح تذكرت تلك الفتاة التي كانت في المشغل والتي كذبت أمها بخصوصها إذ ادعت أن والدها ضربها، تذكرت الحديث الذي قالته عن كذب أمها، تذكرت محاولتها المستميتة لجعلها تفصح عن حقيقة ما حدث لها، تذكرت كيف استعصمت بالصمت ولم تجد معها جميع المحاولات في جعلها تتحدث، حتى حينما أتمت تزيينها ألقت كلمة أخرى مقتضبة قبل أن تغادر إذ قالت: "هل تريدين معرفة من فعل بي هذا؟! إنه الكابوس.

لم تفهم حينها معنى حديثها المبهم لكنها الآن تضع احتمالا وربما يقينا بأن هذا الخبيث هو الشخص المعني بالكابوس خصوصا وأنه يُسر بتسمية نفسيه الكابوس الأسود!

ما زالت لا تعرف أين هي؟ وما الذي يحدث؟! ولكنها تعرف أنها الآن بحاجة قاتلة لأن ينعم جسدها ببعض الهدوء والاسترخاء..

***

أتمت حمامها الساخن وارتدت على الفور ثيابا وعباءة جديدة قد اختارتهم من الخزانة..

جلست على الأريكة في تفكير.

أين هي تحديدا؟

ولكن من يحبسها؟

وكيف انتقلت إلى هنا؟

أسئلة تبحث عن إجابات وأتت الإجابات سريعة لم تنتظر تخمينها وتوقعاتها..

سمعت المفتاح وهو يدور من خلف الباب الموصد؛ فتراجعت بتوجس، وترقب تتطلع لهذا الذي سيدخل عليها في أي لحظة..

وكانت الصاعقة..

إنه الكابوس بهيئته السوداء الكئيبة.. سقط قلبها تماما، وخاب أملها، وألقت بأحلامها إلى قاع المحيط.. تبخر كل شيء في لحظة! أو ربما لعلها كانت حالمة أكثر مما ينبغي حينما ظنت أنه خدرها كي يفك أسرها!

كان عقلها يملي عليها ما تريده ليحوله إلى أحلام خلابة! لكن الواقع ما زال مرا، ما زال مرعبا، ما زال سوداويا، وما زال هذا الجاثوم جاثما على صدرها يأبى التزحزح!

دخل الكابوس ومعه طبق كبير قد ملأه بالشطائر، ووضعه على المائدة بعد أن أحكم إغلاق الباب خلفه..

قال بنبرة ساخرة:

- الفتيات يحببن الشطائر، أرى أنك بدأت تعتادين المكان، وتتصرفين كمالكته..

لم ترد (مشاعل)، وعوضا عن هذا احتل عينيها الشرر المتطاير اللاهب الغاضب..

استدار لها الكابوس بعد أن وضع الطبق من يده، فلمح شرر الغضب المترامي تجاهه والممتزج بخيبة أمل عظيمة.. هز رأسه ثم قال بخفوت:

- هل وجدت الثياب مناسبة لك؟

ART_OF_BOOK

امسكت (مشاعل) بالعباءة وعصرتها بقبضتها، ودت أن تمزقها أمامه لولا أن هذا كان سيكشف سترها.. فعضت على شفتيها، واحتملت على مضض ملمس الثياب على جسدها وإن تحول إلى نار موقدة..

ثم قالت:

- لماذا تفعل كل هذا؟ لا أظن أنك كنت كريما بهذا الشكل مع كل فتاة تختطفها..

رد عليها:

- ومن أعلمك؟

فقالت بقهر:

- لقد رأيت ما فعلته بلطيفة..

أمسك برقبته ثم سحب كرسي بجوار الطاولة وجلس عليه:

- ما فعلته بلطيفة كان مقدرا أن أفعله بك..

سألته بحدة:

- ولماذا لم تفعله معي؟

حرك كفه التي يرتدي عليها القفازات السوداء، ونقر بها على الطاولة:

- لم أرغب تشويه وجهك يا (مشاعل).. خاصة بحفر اسم رجل غريب على جبينك..

شعرت (مشاعل) بالامتعاض وهي تقول:

- حقا؟ لقد قتلت أخي، واختطفتني، وحطمت عائلتي تماما.. لكنك لم ترد أن تقوم بتشويه وجهي!

هنا هب من مكانه واقفا:

- لم أقتل أخاك.. لم أفعل.. ما فعله كان حادث سير لا علاقة

@ART_OF_BOOK

لي به.

هزت (مشاعل) رأسها في غير تصديق

- لقد أخبرني باسمك قبل أن يموت، وكان يحمل رسالتك في قبضته.

زفر المستدرج، وجلس وهو ويقول:

- نعم، اختطفته من أجل أن أصل إليك، ثم أطلقت سراحه ليعود.. غير أنه تعرض لحادث سير. لم يكن ذلك ذنبي..

نهضت (مشاعل)، واقتربت منه ببطء وعلى وجهها زسم الإصرار والشجاعة.

تهدجت أنفاسه وهو يراها تقترب دون رهبة، دون تردد، دون حتى أدنى شعور بقلق.

فظل على جلسته يقاوم ضربات قلبه المتسارعة، ويحافظ على هيئته الباردة أمامها..

توقفت.. وقالت:

- لم يكن هذا ذنبك؟! وماذا تعرف أنت عن الذنوب؟ أنت قاتل.. خاطف.. مغتصب.. أنت لا شيء وكل شيء؛ لا شيء يذكر كإنسان وكل شيء يذكر كمجرم.. أنت لا تستحق الحياة.. أنت بريء من دم (قاسم) إذن؟! كلا أنت من سفك دمه لو لم تخطفه لما تعرض لحادث.

إنه الآن يدرك جيدا أنه من المستحيل أن تنظر إليه كبريء من دم (قاسم) مهما حاول التملص أو التبرير، ظل على جلسته لحظات قبل أن ينهض بعنف أوقع الكرسي من ورائه، وترك لها الغرفة تماما.

اهتزت تقاسيم وجهها ارتعاشا من التوتر الذي حبسته حتى لا تظهر أمامه ضعفها..

وعادت لتجلس على الأريكة وهي لا تفهم..

لماذا أتى بها إلى هنا؟

قدم لها الثياب والطعام..

لم يقترب منها، ولم يؤذها..

أتى بغيرها من أجل أن تكون فداء لها..

وفوق كل ذلك يقدم لها دفاعا عن نفسه بأنه لم يقتل أخاها..

ما الذي يعنيه كل هذا الأمر؟

اتسعت عيناها في إدراك متأخر. كل هذا لا يعني إلا شيئا واحدا..

شيء مثير للغثيان بالنسبة لها بقدر ما يثير الوله بالنسبة له.. شيء مرفوض مكروه بقدر بعد السماء عن الأرض.

المستدرج.. يسترضيها.. إنه يحمل لها عاطفة خاصة كما يبدو! يا للقرف! إنه مريض! واهم! يعتقد أنها ستقع في حبه بعد الذي فعله!

في مرة وقبل أن يحضرها إلى هذه الغرفة الأنيقة أخبرها أنه في البداية أراد أن يحرق وجهها إذ قال:

- كنت أرغب بحرق وجهك في البداية، لكنني أعرضت عن الفكرة فمثل هذا الوجه لم يخلق للحرق.

تأكد لها جنونه، لكنها سايرته بقولها: لماذا ترغب بذلك؟

صمت قليلا ولم يجب، لكنها رأت الدموع تنساب من عينيه حاول إخفاء دموعه ثم هم بالانصراف لكن صوتها نزل عليه كالصاعقة إذ قالت بعدما فهمت شيئا كان يحاول إخفاءه:

- ألهذا السبب تضع هذه الأقنعة؟

التفت إليها بألم، فأضافت: من الذي أحرق وجهك؟!

لم يجب لكنه أحس أنه مكشوف أمامها، علم أنها أذكى مما تصور فقد اكتشفت أن وجهه كان محروقا من معلومة قالها،

قوة الربط والاستنتاج لديها عظيمة هذا ما جعله يزداد حبا ويزداد تعلقا بها، بات واضحا بالنسبة إليه أنه من المستحيل أن يؤذيها إنها... فعلت معه فعل الساحرة! إنه الآن على أهبة الاستعداد لأن يضحي بنفسه لأجلها ليس لأنها كشفت ماضيه المؤلم، بل بسبب تلك النبرة التي خاطبته بها نبرة مشفقة حانية! غير أنه لم يعلم أن براعتها في الاستنتاج لا تضاهي براعتها في التمثيل لقام بقتلها فورا!

***

جلس المحقق (إبراهيم) وراء مكتبه ومعه المحقق (محمد)، يتشاوران بحدة حول خطواتهما القادمة.

قال (إبراهيم) بنفاد صبر:

- أعلم أن ما أطلبه قد يكون صعبا بعض الشيء، ولكنه ضروري.. الكابوس يتحرك بأريحية في الشوارع الفرعية بسياراته التي يسرقها ويتخلص منها، إن قمنا بوضع اللجان التفتيشية بداخل هذه الشوارع سنصل إليه سريعا..

مسح المحقق (محمد) على وجهه بنفاد صبر:

- والله أعلم يا (إبراهيم).. ولكن هذا لن يكون صعبا.. هذا مستحيل.. أتدري لماذا؟ لا نملك الأعداد الكافية من رجال الأمن المتفرغين لهذه المهمة.. أن تغطي منطقة كالإحساء بلجان تفتيشية في جميع الشوارع الفرعية فأنت بهذا تتحدث عن خيال علمي.. لا واقع..

تراجع (إبراهيم) بظهره وهو يعلم أن ما يطلبه بالغ التعقيد وأن القيادات لن تسمح له بتركيز جميع قوات الأمن في منطقة واحدة.. غير أن يأسه قد بلغ الحلقوم.. وما عاد يريد إلا أن يضع قبضته على المشتبه به وينتهي كابوسه هذا..

طرق الباب فأجاب المحقق (إبراهيم) بقوة:

- ادخل

دخل (نواف) المساعد النشط وألقى التحية ثم وضع على مكتب المحقق (إبراهيم) ملفا:

- حضرة المحقق هذه نتائج التحليل الجنائي لبقعة الدماء التي تم العثور عليها في صالون التجميل حيث واقعة اختطاف (مشاعل)..

فتح (إبراهيم) الملف واشرأب عنقه في محاولة لقراءة ما يمكن قراءته من مكانه.

ضيق (إبراهيم) بين حاجبيه وهو يميل بجذعه أكثر تجاه التقرير يلاحق الكلمات التي كُتبت بوضوح بنهم جم..

ثم نظر لـ(محمد) بحدة.

فقال الأخير بتوجس:

- ماذا يا (إبراهيم)؟ ماذا كُتب؟

هز (إبراهيم) رأسه يمينا ويسارا وهو يقول:

- لن تُصدق!

قال (محمد) بنفاد صبر وهو لا يحب هذه الألاعيب التي تضغط على أعصابه:

- أصدق أو لا أصدق.. فقط قل لي ماذا هناك..

مد (محمد) يده يتناول الملف بعنف من أمام (إبراهيم) ويقرأ بنفسه ما كُتب فيه..

ثم تجهم وجهه وهو يقول:

- ماذا يعني هذا؟ الدماء بالصالون جاءت نتيجتها نفس نتيجة تحليل نقطة الدماء التي وجدناها بالمستشفى..

أخذ (إبراهيم) نفسا عميقا وهو يشرح لصديقه:

- ما يعنيه أنه بما أن دماء المستشفى كانت للقاتل، فمن أصيب في الصالون ليست (مشاعل).. لدينا الآن قاتل لا يملك

فقط جرحا صغيرا من رحمه في ممرات النهوية.. بل يملك أيضا جرحا غائرا من ضربة السكين الذي وجدناه في مسرح الجريمة..

أدار (إبراهيم) رأسه ل(نواف) وقال:

- هل أحضرت لي هويته؟

تنهد نواف وقال: عفوا سيدي الأمر يحتاج بعض الوقت وقد أحضرت لك التقرير قبل وضوح هوية المجرم بسبب رغبتك الملحة في معرفة النتائج.

قال برغبة كبيرة في اصطياد المجرم وربما لأنه يظن أن له يدا في اختطاف يسر:

- لن أنتظر خروج النتائج النهائية فذلك مضيعة للوقت، ابحث لي في كل أقسام الطوارئ بالمستشفيات عن رجل قد جاء بجرح عميق..

- تحت أمرك.. بالإذن منك..

خرج (نواف) من المكتب فاستدار المحقق (محمد) يواجه (إبراهيم) ويسأله متشككا:

- هل تظن أنك بحثك بالمستشفيات سيسفر عن شيء؟

ابتسم له (إبراهيم) وهو يقول:

- بل أنا واثق أنني لن أجد تقريرا واحدا من أي مستشفى يفيد بوجود هذا الرجل، ولكن.. يجب أن أتبع كل الإجراءات ولا أترك ثغرة واحدة في هذا التحقيق.. هذا المجرم رجل ذكي.. للأسف.. لن يذهب بنفسه إلى الطوارئ حتى لو كان يحتضر فعليا.. لن يرتكب هذا الخطأ..

قال (محمد):

- إذا أنت تضيع وقت (نواف) ليس إلا..

هز المحقق (إبراهيم) رأسه نفيا:

- اسمعني يا (محمد).. وتذكر ما أقوله هذا جيدا.. الإنسان مهما بلغ ذكاؤه سيأتي اليوم الذي يرتكب فيه الأخطاء ولو حتى خطأ واحد..

أنا أسعى خلف هذا المجرم ولا أدخر جهدا لهذا الهدف.. ولكن أيضا أنا أنتظر بفارغ الصبر أن يقوم بالخطأ الذي سيتسبب في الإيقاع به..

***

سمعت (مشاعل) الطرقات على بابها هذه المرة قبل أن يفتح الباب ويدخل منه الكابوس..

هذه المرة يطرق الباب.. غريب

كانت تجلس بحذر وهي تراه يدخل دون كلمة، ويحمل طبقا آخر به الأرز واللحم والخضار..

نظر لطبق الشطائر الذي لم تمسه (مشاعل)، ثم وضع بجانبه الطبق الآخر:

- لماذا لم تأكلي؟

سألها باقتضاب.

كانت سترد عليه ردا عنيفا غير أنها آثرت أن تتبع معه سياسة جديدة.. ستكون أهدأ..

ستجيب بحذر.

فقالت:

- أخاف أن أقرب هذا الطعام..

أدار وجهه لها وجلس على الكرسي باسترخاء وسأل:

- لماذا؟

هزت كتفيها، وقالت في تردد:

- أخاف أن يكون مسموماً. أو لا أثق بك.

سكت الكابوس قليلاً، ثم دون إنذار انفجر ضاحكاً. ضحكاته هزت الغرفة وما فيها. ضحك كثيراً وطويلاً.

صدمت (مشاعل) في بادئ الأمر، ثم قررت أن تظل على هدوئها غير أن ناراً اشتعلت في أعماقها.

كيف لإنسان أن يموت به الضمير بهذا الشكل؟

يضحك من القلب على كلمة تافهة بينما كان السبب الأول والرئيس لموت أحبها. ومن قبله اختطف واغتصب وقتل. ضمير ميت. ونفس لا تلومه ولا تخشى الله.

ابتلعت ريقها دون كلمة. انتظرت حتى انتهى من ضحكاته.

ثم قال لها:

- تخافين يا (مشاعل) أن يكون الطعام مسموماً. لماذا؟ هل أنا غير قادر على قتلك بكل طرق القتل المتاحة في الدنيا فألجأ لأضعفها. من يضع السم في الطعام لأحدهم لا يكون إلا إنساناً جباناً. لا يحب إظهار نفسه.

سحبت (مشاعل) نفساً عميقاً وهي تراجع ما تريد قوله. ما ستقوله الآن لا تعلم ماذا سيكون رد فعل الكابوس عليه.

ولكنها قالت ما بنفسها وسلمت أمرها لله

- أنت أيضاً لا تظهر نفسك. أتعتبر نفسك شجاعاً أم جباناً؟

كتمت أنفاسها تماماً بعد جملتها الأخيرة. بينما عاد ليسكت وقد سلط وجهه الملثم ناحيتها. مرت دقائق ثقيلة من صمت مطبق.

تخيلت في كل لحظة أنه سينقض عليها ليقطع لها لساناً أو رقبة.

فأخرجت نفساً بطيئاً مع توترها المسحوق. ثم عادت لتكتم أنفاسها عندما أشاح بوجهه بعيداً

- انا لا اخفي نفسي جبنا يا (مشاعل).. فقط أكره نظرة الناس الى وجهي ليس إلا.. لقد فعلت أشياء كثيرة لا يجدر بإنسان فعلها خطفت قتلت، و... تاجرت بفلذة كبدي.

قرأ أمارات التعجب على وجهها فأضاف: إمي اللئيمة فاطمة باعته بنفسها، جلبت المشتري وقبضت نصف المبلغ، وأنا النصف الاخر.

تضاعفت علامات التعجب على محياها فزادها بقوله: أجل أنا فعلت ذلك ولم أشعر بندم... فعلتها بقلب لا يتضعضع... وما هذه الشقة الأنيقة إلا من ثمن قبضته من تلك المرأة التي اشترت ولدي، أنا كل ذلك لكنني لست بجبان.

عقدت (مشاعل) حاجبيها وهي تسأل بفضول حقيقي:

- لماذا فعلت كل ذلك؟ بسبب الحرق؟ هل تخليت عن إنسانيتك لذلك السبب؟

ها هي تخاطبه وكأن الحرق بات مسلما بالنسبة لها! على كل حال أحب تعاطفها معه رغم أنه لم يثبت ولم ينف تلك المسألة.

فأجاب بصدق:

- لا يحب أحد النظر إلي.. يفزعون مني.. تخيلي.. وكأنهم ملائكة لن يمسهم سوء أبدا.. وأنا بينهم الملعون الوحيد!

علمت (مشاعل) أن ماضيا مؤلما ينطوي تحت هذا القناع، لعله تعرض للضرب أو ربما للاغتصاب! تعلم أن طفولته لم تكن سوية! هذا ما أوصله إلى الإجرام، ورغم تعاطفها معه لكنها لا تبرر له أفعاله.

أعملت (مشاعل) عقلها.. من الجيد أنه يتحدث إليها بأريحية.. ستدخل عرينه بإرادتها من أجل أن تفتك به في الوقت المناسب تريد قتله من الداخل قبل السيطرة على جسده..

فقالت له بنبرة متأنية:

- لا يستحق إنسان أن نعامل بهذه الطريقة.. ولا يوجد سبب يجعل من حولك يفزعون من رؤيتك.. إلا لو تقصدت أنت إفزاعهم.

كانت تضرب عدة أوتار في آن واحد؛ تظهر عطفها ناحيته، وتستدر عطفه ناحيتها حتى تؤاتيها الفرصة للتخلص منه أو الهروب من براثنه.

نهض الكابوس، وتقدم إليها فارتعبت غير أنها لم تُظهر له خوفها.

نزع من كفه الأيسر القفاز الأسود وظهرت بشرته من تحتها..

ومد كفه تجاه ناظرها فرأته..

كف قد ذاب جلده تماما وتجعد على نفسه.. كف من الواضح أنه تعرض لحريق شديد.. لا تفسير آخر..

كان يتوقع أن تعود (مشاعل) للوراء وتغمض عيناها.. إلا أنها ظلت على جلستها تتأمل الكف المشوه أمامها دون حتى أن ترمش..

ثم رفعت نظرها إلى وجهه المخبأ في السواد.

وقالت ببرود:

- وإذا؟

كانت صدمته بقولها لا توصف، صدمة أرجعته خطوتين للخلف..

استدار يرتدي في عجالة قفازه، وظل على وقفته مولياً لها ظهره..

تشجعت وقالت من ورائه.

- إذا لقد تعرضت يوما للحريق كما استنتجت -طبقا لاستنتاجي- لم يطل كفك فقط بل وصل إلى وجهك فأحرقه.. حسنا.. هل أنت الوحيد في هذا العالم الذي تعرض لحريق؟

هل الحريق الذي شعرت به يوما وأذاك سبب كاف لأن تؤذي غيرك؟

قال دون أن يستدير.

- وماذا تعرفين أنت عن هذا الشعور؟

قالت بصلابة:

- الكثير.. أنا أيضا تعرضت يوما لحريق..

أيضا لم يستدر، ولكنه أدار وجهه يمينا وقد أثار كلامها اهتمامه..

قالت له وهي تتذكر:

- كنت في العاشرة تقريبا.. غير أنني أذكر الألم الذي لم يكن له مثيل.. ألم لا يوصف.. خليط مؤلم ومرعب من المشاعر.. أظن أنه لو كانت هناك أنياب فهد تنغرز في قدمي لكان الألم أخف وأهدأ..

استدار ببطء، وجلس على الكرسي، وفرد ظهره وهو يستمع إليها:

- صرخاتي المفزعة قد تجمع عليها ليس فقط كل من بالبيت بل أيضا كل من بالحي.. ما زلت أذكر الطرقات المحمومة على الباب وأهلي لم يكن لديهم الوقت ليجيبوها.. فلقد تجمعوا جميعا حولي من أجل إطفاء الحريق ولفي بالأغطية..

أبي وأمي وأختي الصغرى..

كانت أمي وقتها حبلى بـ(قاسم)، ومع ذلك كانت تريد حملي على كتفها لتركض بي إلى المستشفى..

أطفئ الحريق، وعالجوني، ولكني عدت إلى البيت بنفس الألم! لم يهدأ ولو قليلا وكأن النار ما زالت تمسك بي، ولكن لا يراها مخلوق سواي..

ART_OF_BOOK

أنا فقط من كنت أشعر بها..

ونعم، خلّف هذا تشوها واضحا في رجلي..

ولكن نفسي ظلت نقية لا تشوه فيها.. حتى وأنا أسمع بأذني الجارات وهن يقلن بأنني لن أجد زوجا يرضى بي مطلقا.. ومن سيرضى بالزواج من فتاة مشوهة محترقة؟!

بالرغم من كلماتهن هذه. إلا أنني لم أهتم..

تحرك الكابوس واتجه ناحيتها ثم في حركة لم تتوقعها أنزل الوشاح من على وجهه وظهرت أخيرا ملامحه..

جانب وجه الأيسر كان محترقا بالفعل، وجانب وجهه الأيمن أظهر أنه في يوم من الأيام كان إنسانا وسيما..

ظلت (مشاعل) تحدق فيه.. جاهدت على إخفاء تعابير وجهها المشمئزة منه.. بدت كمن لم تهتم بالاحتراق الذي طال جانب وجهه إطلاقا.. بل كل ما كان يهمها.. أن هذا هو الوجه الحقيقي لقاتل أخيها.. تمكنت أخيرا من استدراج المستدرج وجعله يكشف هويته أمامها تعلم أنه الآن بات في لحظة ضعف عاطفية.

تملت وجهه العينان السوداوان اللتان تحدقان فيها هي نفسهما اللتان تريدان أن تريا بهما الذل والهوان وتذيق صاحبهما الألم الحقيق انتقاما لموت شقيقها الأصغر..

لقد رأت وجه القاتل أخيرا..

هذا ليس له إلا معنى واحد..

الآن لا أمل لها في الخروج إلا قاتلة أو مقتولة..

لو كان ينوي من قبل أن يلقي بها كما فعل مع الأخريات... فالآن لن يفرط أبدا فيها وإلا افتضح تماما..

لم ننطق بحرف واحد.. أعاد لف الوشاح على وجهه ثم غادر المكان..

@ART_OF_BOOK

أما هي فأمسكت برأسها تغالب الصداع الذي اجتاحه.. يجب أن تفكر كيف ستتخلص منه.. يجب أن تفعل هذا سريعا..

***

طرق (نواف) باب المحقق (إبراهيم)، ودخل بأدبه المعتاد:

- سيادة المحقق إبراهيم، معي الدكتور خليل التونسي دكتور الأمراض الجلدية يرغب في الحديث معك.. هذا بخصوص البحث الذي طلبته مني عن الأمراض الجلدية التي تسبب ملمس جلد التعابين..

نهض (إبراهيم) من مكانه وهو يقول:

- دعه يتفضل.

خرج (نواف) ثم بعد لحظات دخل رجل خمسيني بزي أنيق ووجه بشوش..

مد المحقق (إبراهيم) يده مسلما وهو يقول:

- يشرفني قدومك أيها الطبيب.. تفضل.

جلس الرجل، وقال بعد أن تنحنح:

- لقد أخبرني مساعدك عن رغبتك في معرفة بعض الأشياء عن ظواهر جلدية معينة.. فارتأيت أن آتي بنفسي من أجل إفادتكم بشكل أكبر.

ابتسم له (إبراهيم)، وطلب له القهوة ثم قال:

- يسعدني قدومك سيدي.. حسنا سؤالي بسيط: هل هناك مرض جلدي ينتشر على جانب واحد من الجسد.. مثل الجانب الأيسر.. ليس الجسد فقط بل الجسد والوجه معا؟

ويكون له ملمس التعابين على حد قول من وصفه؟

فكر الطبيب للحظات ثم قال:

- ومن وصف هذا الوصف تحديدا؟

قال (إبراهيم):

- فتاة. للأسف قد ماتت ولم نتمكن من إنقاذها. ولكننا نحث عن قاتلها. هي لم تره ولكنها لمست جسده.. وكان هذا هو وصفها. أن له ملمس جلد الثعابين.

تنفس الطبيب وهو يقول:

- حسنا.. لا أظن بأن هذه الفتاة قد لمست يوما ثعبانا.. فالثعابين جلدها ناعم وجاف ولا يختلف كثيرا عن بشرة طفل صغير.

رفع (إبراهيم) نظره للسماء.. يبدو منطقيا أنها لا تعرف بالطبع ما هو ملمس جلد الثعابين.. فقال:

- حسنا يا طبيب.. دعنا نقول إنها تتصور أن جلد الثعابين خشن وممتلأ بالتعرجات كما يظهر في أشكال جلودها.

أومأ الطبيب باتفاق:

- نعم، نعم.. أظن أن هذا سيكون أقرب للواقع.. حسنا.. لدينا الكثير من الأمراض التي قد تسبب جلدا خشنا أو متعرجا أو لزجا ومليئا بالقيح.. ولكن ما لفت نظري في هذا الأمر تحديدا.. شيئان:

أولهما أن الرجل المطلوب كما قال مساعدك لي هو رجل ملتثم طوال الوقت ولا يظهر من جلده أي شيء، وثانيهما الوصف الذي قالت عنه الفتاة بأنه انتشر في جانب وجهه وجسده.. أليس كذلك؟

قال (إبراهيم):

- بلى. هو كذلك.

طرق العامل الباب، ودخلت القهوة. شكر الطبيب العامل بابتسامة، وتناول قهوته، وارتشف منها تحت نظر (إبراهيم) الذي لا يطيق صبرا ويريد معرفة ما لدى الرجل من إفادة

هنا قال الطبيب:

- حسنا.. في معظم الأمراض الجلدية لا يحتمل الشخص التغطية الكاملة لجسده خصوصا في هذه الدرجات العالية من الحرارة.. فمن الواضح أنه لا يتألم من هذا المرض الجلدي الذي هو مصاب به..

كما أن الأمراض الجلدية لا تختار جانبا واحدا من الجسد لتنتشر فيه. يختار المرض الجلدي أي مكان في الجسد للعدوى.. لكن أن يقتصر هذا على جانب واحد وليس جانبا صغيرا بل أنت تتحدث عن الجانب الأيسر بأكمله تقريبا..

هذه المعلومة مع معلومة أنه يغطي كامل جسده ولا يظهره لا يجعلني أفكر إلا في احتمال واحد..

هنا تحفز (إبراهيم) بترقب، ارتشف الطبيب رشفة أخرى بتمهل أذابت أعصاب المحقق ثم قال له بعد أن سعل مرتين:

- ما أفكر فيه أن يكون هذا ليس مرضا جلديا، بل هو تشوه ناتج عن احتراق من نار فعلية أو احتراق بمادة كيماوية حارقة..

اتسعت عينا (إبراهيم) استيعابا.. يبدو كلام الرجل منطقيا.. إذا فالمشتبه به يملك نصف جسد محترق...

عند هذا تذكر أمرا ما..

الحريق الذي حدث منذ عام ونصف تقريبا في غرفة السجناء..

هناك من مات وهناك من عاش محترقا.. وتذكر أيضا أنه السبب الرئيس في كل ما جرى، وبدأت فكرة جديدة تظهر أمامه: لماذا هذا المجرم كان يتقصده بصورة شخصية؟! هل لهذا علاقة بذلك الحريق؟!

***

11

مشاعل

جلس المحقق (إبراهيم) بنفسه على الحاسوب الخاص بالمعلومات السرية المحفوظة المتعلقة بمركز الشرطة.. كتب التاريخ الذي يحفظه عن ظهر قلب.. فظهرت جميع الملفات التي تم رفعها على الذاكرة الالكترونية للجهاز..

ضغط الزر الخاص بالطباعة.. فأصدرت الطابعة أزيزا تعلن فيه عن خروج الورقات منها الواحدة بعد الأخرى.. و(إبراهيم) ينتظر انتهاء طباعة الورقات بفارغ الصبر وهو يهز قدميه بعصبية..

تناول الأوراق بعد انتهاء طباعتها وألقى نظرة فاحصة على الأسماء التي كُتبت بها..

إنه الملف الخاص بحريق زنزانة السجناء.. يوم لا يُنسى.. كان يوما أليما.. هناك من مات احتراقا أو اختناقا، وهناك من أصيب.. ليس فقط السجناء من تضرر ولكن أيضا بعض من رجال الشرطة الذين حاولوا إنقاذهم..

يتذكر هذا اليوم جيدا.. عقب سيجارة ألقاها نتج عنها حريق

ART_OF_BOOK

عظيما حريق يتفاقم دون قدرة أحدهم على السيطرة عليه واحتوائه، وعندما تمت السيطرة أخيرا.. كان للأسف قد تأذى من تأذى، ومات من مات.. ما زال يلوم نفسه، بل يأكله الندم من الأعماق؛ فرغم تبرئته في نهاية الأمر لكنه يدرك في قرارة نفسه أنه تسبب في تلك المأساة بسبب إهماله وعدم حمله كلام السجناء بوجود رائحة غاز محمل الجد.

نقر المحقق (إبراهيم) على الأوراق أمامه.. ثم استدعى (نوافا) الذي أتى على الفور:

- نعم حضرة المحقق..

قال (إبراهيم) وهو يناوله الملف الذي قام بطباعة أوراقه:

- خذ يا (نواف)، أريدك أن تقوم لي ببحث شامل عن هؤلاء.. من مات فيهم ومن عاش.. أريد بحثا كاملا كما أريد الاستدعاء للتحقيق الذين ما زالوا على قيد الحياة في هذه القائمة..

هز (نواف) رأسه وقال باحترام:

- فورا حضرة المحقق..

نهض المحقق (إبراهيم) من مكانه ذاهبا لمكتب المحقق (محمد) ودخل عليه بعد طرقتين خفيفتين:

- هل أنت منشغل؟

رفع (محمد) رأسه بإرهاق تجاه (إبراهيم):

- ماذا ترى؟

قال (إبراهيم) وهو يجلس أمامه:

- أرى أنك تحتاج لدقائق تريح فيها عينيك..

زفر المحقق (محمد) بضيق قبل أن يستحسن هذه الفكرة ويبعد الملفات تماما من أمامه ثم يريح ظهره في تعب واضح وهو يقول:

- هات ما لديك..

سأله (إبراهيم):

- أتذكر يوم الحريق؟

عقد (محمد) حاجبيه وهو يقول:

- بالتأكيد.. وهل هذا يوم ينسى؟

سأله (إبراهيم):

- وماذا تذكر تحديدا؟

هز (محمد) رأسه وكأنه يطرد ذكرى شديدة السوء عن عقله:

- والله يا (إبراهيم) أنا أكثر ما أذكره الصراخ المتألم للرجال بالحبس.. كان أمرا مفزعا حقا حتى على أعتى الرجال أن تشوى حيا ليس بالأمر الهين فالصراخ كان مرعبا..

ولكن ما الذي جعلك تتذكر ذلك اليوم المشؤوم؟

فكر (إبراهيم) ثم قرر الإفصاح عن شكوكه:

- كنت أجلس الآن مع أحد أطباء الأمراض الجلدية، من أجل أن أسأله عن ملمس بشرة القاتل الذي وصفته (فاطمة).. هذا الطبيب يرجح أن القاتل لا يعاني مرضا جلديا.. بل هو حريق قد طال جانب وجهه وجسده..

تحفز جسد (محمد):

- أنت تقول إنه من الممكن أن يكون واحدا من السجناء في هذا اليوم..

هز (إبراهيم) رأسه.

- إنه احتمال قائم.. نعم..

***

فتح باب غرفة (سناء)؛ فاستفاقت على الفور من نومها

ART_OF_BOOK

وانتبهت..

لم يدخل الكابوس.. ولم يدخل أحد.. فقط ظل الباب مواربا جزئيا دون أن يظهر منه مخلوق..

انتظرت قليلا قبل أن تتحرك بتردد تجاه الباب..

فتحته فتصلبت كفاها على المقبض وهي ترى الكابوس يتحرك أمامها بحرية في صالة صغيرة.. الجديد أنه الآن قرر التخلي عن وشاحه وقفازيه.. كان ما زال يتشح بالسواد غير أنه ما عاد هناك ما يُرغمه على استمرار إخفاء وجهه..

لم تبدي ردة فعل واحدة.. وفكرت أن تتراجع إلى حيث الغرفة التي حُجزت فيها..

الآن فقط تبدو غرفتها هذه أكثر أمانا من الخارج..

لكنها فكرت، ثم أقدمت على الخروج..

كان يوليها ظهره وهو يقوم بتركيب بعض الأسلاك خلف تلفاز كبير، ثم يقوم بتوصيله بقابس الكهرباء..

أبعدت عينيها عنه لتدرس المحيط الجديد الذي خرجت إليه من سجنها.. صالة قد تم تنظيمها بعناية.. بها عدد من الأرائك، وطاولات جانبية، وطاولة كبيرة منخفضة في المنتصف..

ثم هناك هذا التلفاز الذي انشغل الكابوس بتجهيزه، وهناك باب يظهر منه أنه مطبخ، وأخر يظهر أنه غرفة أخرى وبجانبها دورة مياه..

ولكن الأهم من كل هذا هناك باب مختلف أكبر قليلا.. به عين سحرية.. إنه باب الشقة..

باب الخلاص.. باب الحرية..

خرجت من أفكارها وتحديقها للباب الحتمي بسبب صوت تحرك الكابوس للخلف..

بيده أمسك جهاز التحكم عن بعد، ثم قام يقلب القنوات حتى

777 / 289 11

استقر على قناة خاصة بالأطفال..

ثم استدار إليها واقترب منها في بطء.. فلزمت مكانها بقوة.. وهي تنظر إليه بتحدٍ..

مد كفه اليسرى إليها مقدما لها جهاز التحكم عن بعد؛ فتناولته بصمت، فقال لها:

- هذا من أجل ألا تملي جلوسك هنا.

نظرت إلى عينه السليمة، ثم نظرت إلى عينه الأخرى التي ذاب·شعر رموشها وحاجبها وهي تقول:

- وهل ستطول فترة جلوسي هنا؟

ضحك الكابوس وهو يدير عنها وجهه ويتحرك نحو الأريكة القريبة:

-.أرى أنك مللتِ بالفعل يا (مشاعل)! كنت أظنك أقوى من هذا!

زفرت (مشاعل) بغضب، وأغلقت التلفاز الذي يعرض برنامجا من مسلسلات الأطفال الكارتونية القديمة.. ألقت جهاز التحكم، وتحركت نحو الأريكة التي تقابل الأريكة التي اقتعدها.

كان يتابعها بعينين مترقبتين ودون تعبير حقيقي لم تره يبتسم أو يضحك مطلقا، وحتى قبل أن يخلع القناع كانت عيناه تعبران عن حزن عميق وظلمة ساطيه! وعندما جلست أمامه أولته كل تركيزها، وحدثته بنبرة هادئة وهي تسأله:

- لماذا أنا تحديدا؟ لقد أرسلت إليّ رسالة مع (قاسم) -رحمه الله- من أجل أن ألقاك.. لماذا؟

كان يتوقع سؤالها هذا، ولكنه لم يستعد له.. لا يعرف بم يجيبها؟! لقد تعرى أمامها من كل ما هو ساتر له.. كشف لها وجهه الحقيقي. هل يكشف أيضا كل ما يدور في قلبه فور أن راها. لا يعلم ما الذي يحل به كلما التقى بها؟ حذره الشديد

يزول بمجرد رؤيتها! كيف لا وقد خلع قناعه أمامها وهو الذي لم يفعل ذلك مع أي فتاة أخرى! خصوصا وأن خلع القناع بالنسبة له يعد مثل انكشاف سوأته! بدا دون قناعه كرجل عار تماما تقرؤه كصفحة مفتوحة بارزة الخطوط، ملونة الرسوم!

تدرك أنه لن يكشف جميع أوراقه ولن يتحدث عن كل ما فعله في الماضي.. ستلفظه تماما، وإن فعلت ربما قتلها على الفور فحينما تنفر منه لن يكون لديه سبب لإبقائها حية بعد انكشاف وجهه..

قال لها بعد فترة:

- أنت عملة نادرة يا (مشاعل).. وتستطيعين القول بأنني أهوى جمع العملات النادرة..

هزت (مشاعل) رأسها في غير فهم:

- وما هو النادر فيّ؟ ألست فتاة كباقي الفتيات..

قال على الفور:

- لا.. لست كالبقية.. فأنت لك عينان سكنت النار مقلتيهما.. أنت تحاربين حروبا أكبر منك، ولكنك لا تهابين شيئا.. أنت الفتاة التي لم أجدها رغم البحث عنها لسنوات.. وعندما وجدتك كان يجب أن أحصل عليك مهما كان الثمن..

كلمته الأخيرة أصابتها بالغثيان وهي تقول:

- وكان الثمن باهظا.. روح أخي الصغير الغالي!

ضرب الكابوس على مسند الأريكة بسخط فهو لا يعلم لم تحشر أخاها بكل شيء لطيف يقوله! قال بنبرة حادة وحاسمة:

- لم أقتله.. ولم يكن هذا الثمن الذي أقصده.. بل الثمن أدفعه أنا لا أنت..

ظلت تحدق فيه طويلا وهو يرسل لها ذبذباته الغاضبة، وتفكرت في كلماته..

- ما الثمن الذي تدفعه أنت؟

هنا سمعت طرقا عاليا على باب الشقة.. ومحاولات لفتحه بالمفتاح، ولكن الباب كان موصدا من الداخل بترباس كبير.

انتفض الكابوس، وتقدم نحو (مشاعل) التي نهضت بدورها.

قال لها أمرا:

- ادخلي غرفتك الآن..

دون مناقشة قامت (مشاعل) بتنفيذ أمره هذا، وأغلقت الباب بعد أن دخلت الغرفة.. وما زالت تسمع الطرقات اللحوحة على باب الشقة..

فُتح باب الشقة، وسمعت صوت سيدة كبيرة في السن وهي تقول بغضب:

- أين أنت كل هذا الوقت؟ أين اختفيت يا عمار؟

همست (مشاعل) لنفسها:

- عمار؟ هذا هو اسمه إذن!

سمعت الكابوس وهو يقول:

- أختفي أو لا أختفي.. لا دخل لك بمكاني.. انشغلي بالرجل العجوز الذي في بيتك واتركيني وشأني.

شهقت السيدة، ومن الواضح أنها لم تستعد لمثل هذا الرد:

- ماذا؟ لا دخل لي؟! أحقا ما تقول؟! تم تعيرني بذلك العجوز، اعلم أننا لم نكن لنتمكن من إخفائك بهذه الطريقة المحكمة لولا وجوده، لولاه لما تمكنا من رشوة أولئك الرجال الذين غيروا والدك وعائلتك في الأوراق الرسمية لتصبح ابن هذا العجوز.

ثم علا صراخها الغاضب:

- أنا أملكك وأملك وقتك وكل ما لك.. أتفهم.. أتعتقد أنك ذكي! إذا إليك هذا الخبر لعله ينبهك لما هو قادم ولو قليلا..

المحقق (إبراهيم) الذي نسعى خلفه أرسل من يبحث عنك..

ضعق الكابوس من المعلومة الجديدة التي لم يتوقعها أبدا:

- ماذا؟؟ كيف؟

قالت أمه:

- أتى من يحقق في أمرك وقال لي إنك مطلوب للتحقيق في أمر الحريق القديم.. كيف عثروا على هذا الخيط يا ثرى؟ أقول لك كيف.. لأنك إنسان نجس لا يلهث إلا وراء قذارته.. الفتيات اللاتي تخطفهن يمينا ويسارا بالتأكيد هناك من أخبره بأمر الحريق في جسدك المشوه.. ليتك كنت مت في هذا الحريق واسترحنا منك.. ليتني ما كنت أنجبتك وأتيت بك لهذه الدنيا من الأساس!

صرخ الكابوس وهو يتراجع للخلف:

- يكفي. يكفي.. ما عدت أتحمل توبيخك المستمر وإهاناتك الموجهة لي والتي لا تنتهي.. سأتخلص من هذا المحقق وأقتله.. يكفي تلاعبا به حتى هذه اللحظة.

- لا

قالتها أمه بحزم..

- لا تقتله قبل أن تحرق قلبه.. هذا كان اتفاقنا من البداية..

اقتل ابنه الصغير كما قتل ابني الغالي.. أحرق هذا الطفل تماما كما تفحم فهد في تلك الزنزانة التي سجنه فيها..

شهقت (مشاعل) بقوة عند سماعها جملة الأم الأخيرة.. فانتبهت السيدة للباب المغلق والشهقة التي أتت من ورائه..

قال الكابوس سريعا:

- ادهبي الان يا أمي..

لكن السيدة العجوز لم تسمع كلمة من كلامه وهي تتجه ببطء

ART_OF_BOOK

للباب الذي تقف خلفه (مشاعل) وهي تضع كفيها على فمها بذعر- تلعن نفسها مائة مرة أنها أخرجت صوتا- فلو كان من حجزها هو رجل لا ضمير له. فالسيدة التي أنجبته قد أتت من الجحيم ذاتها.. ولن تتراجع في إحداث الأذى حتى لو على طفل صغير..

حاول الكابوس ثني والدته عن التقدم تجاه الغرفة التي تختبئ فيها (مشاعل)، ولكن أمه دفعت ذراعه بعيدا. وفتحت الباب دفعة واحدة وبعنف شديد حتى إنه ارتطم برأس (مشاعل) التي أخرجت صوتا متألما وهي تمسك برأسها وتبتعد..

ضعفت المرأة من وجود (مشاعل)، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تمسكها من حجابها، وتسحبها سحبا لخارج الغرفة- شعرت (مشاعل) بأن روحها تخرج من بصيلات شعرها فصرخت تستغيث بقوة..

غضب الكابوس لصراخ (مشاعل)؛ فصرخ بأمه وهو ينزع كفها عن الفتاة:

- اتركيها الآن..

اتسعت عينا المرأة وهي تشعر بتبدل جذري في سلوك ابنها الذي كانت تحركه بخنصرها دون أن يبدي اعتراضا.. ولكنه الآن.. ها هو ذا يقف أمامها ينزع قبضتها من حجاب الفتاة وشعرها من تحته..

تراجعت للخلف خطوتين وهي تقول له:

- كيف تجرؤ- كيف تسحب يدي عنها؟

قال بنفاد صبر:

- لانك لا تسمعينني.. لا علاقة لك بالفتاة.. سأقوم بما تريدينه.. سأنتقم لك من المحقق (إبراهيم) هذه الليلة.. ولكن لا تمسيها بأذى..

ابتسمت له بشر يتطاير من بين ثناياها المنخورة وهي تقول:

- إذا ما خفت منه قد حدث.. أنت أيها المشوه تكن مشاعرا لهذه الفتاة.. ستضيعنا وتضيع تعب أكثر من عام كامل من التخطيط للانتقام بغبائك اللامحدود هذا..

ثار الكابوس مرة واحدة:

- قلت يكفي.. الآن ستخرجين.. ولا تعودي مرة أخرى.. أنا لا أم لي..

شهقت المرأة وهي تضع كفها على صدرها ثم في حركة مفاجئة أخرجت سكينا من بين عطفات ثيابها وحركت ذراعها في مهاجمة (مشاعل)، غير أن ابنها لحقها، لكنه تأخر قليلا ما أسفر عن جرح سطحي من طرف النصل قد رسم خطا من الدماء على خد (مشاعل) الأيسر..

تراجعت (مشاعل) صارخة فوقعت على الطاولة الجانبية الصغيرة..

سقطت الطاولة وفتح درج؛ فخرجت منها العديد من الظروف البنية التي تعرفها (مشاعل) وتحفظها عن ظهر قلب..

دفع الكابوس أمه وهو يخرجها بالقوة من البيت وهي تقول بهذيان:

- هذه الفتاة ستكتب نهايتك يا غبي.. هذه الفتاة ستلعننا جميعا.. ليتك كنت أنت من مت في هذا الحريق لا أخوك.. كان ذكيا قويا.. لكن أنت ضعيف وغبي..

فتح الكابوس الباب وأخرج المرأة دفعا وهو يصرخ: عودي إلى زوجك الأعمى.

ثم أغلق الباب بقوة وهو في حالة هياج عظيمة..

وسكت كل شيء في لحظة

استدار ملهوفا، وأسرع تجاه (مشاعل) التي كانت ما تزال في

جلستها أرضا تضع كفها الأيسر على خدها ومن حولها عشرات الظروف البنية المتناثرة من الطاولة التي سقطت منذ قليل..

- (مشاعل)، هل أنت بخير؟

هزت (مشاعل) رأسها نفيا، ثم انفجرت في بكاء شديد:

- لا لست بخير.. أمك كانت ستقتلني.. انظر.

أنزلت كفها فظهر خدها الذي أصيب بجرح قطعي واضح..

تحرك ناحية المطبخ، دلف بهدوء، هبت (مشاعل) مسرعة إلى ألباب الخارجي للشقة تحاول فتحه؛ كي تهرب، لكن آمالها خابت حيث كان مقفلا بالمفتاح، لم ترد إشعاره بما فعلت، فعادت بسرعة إلى مكانها السابق قبل أن يخرج، وظهر في لحظات وهو يحمل بيده حقيبة للإسعافات الأولية.

جلس بجانبها أرضا..

مد كفه بالقطن الذي سكب فوقه المعقم، ولكنها أشاحت بوجهها، وتناولت من يده القطن، ومررته على خدها..

ظل يتأمل شعورها المتألم من ملمس المطهرات اللاسعة على جرحها القطعي..

ثم قال:

- آسف..

توقفت يدها عن تطبيب جرحها، واتسعت عيناها مع همسه المعتذر..

ثم تحولت ملامحها للامتنان وهي تقول برفق:

- لا تعتذر.. أنت لم تفعل شيئا.. أنت أنقذتني، وحميتني من أمك.. كانت ستقتلني.. أشكرك..

ذابت نظراته وهي تتحدث إليه بصوت حان لم يتوقع أن يسمعه منها بهذه الطريقه

ثم قالت بشكل مفاجئ:

- أنا جائعة.

تراجع في دهشة، ثم ابتسم لها وقال متلعثما:

- سآتي لك بالطعام.. لحظة..

دخل إلى المطبخ سريعا.. ينزل الأطباق من مكانها ويفتح الثلاجة.. ويخرج ما بها... وبدورها لم تفوت الفرصة التي غاب فيها عنها في البحث عن مخرج؛ فحاولت فتح النافذة لكنها وجدتها مغلقة بشباك حديدي! أرادت إعلام من بالخارج بوجودها لكنها وجدت النافذة الوحيدة في غرفة المعيشة لا تطل على شارع، وخشيت أن تتعرض للقتل من هذا المجنون إن صرخت مستنجدة، وبالمجمل لم يكن أمامها الكثير من الوقت حتى أحست بحركة تشير إلى عودته من المطبخ. عاد سريعا ووضع كل الطعام الذي وجده أمامها على الأرض.

نظرت له بإحباط ثم قالت:

- أنا لا آكل هذا الطعام.. آسفة.

قال سريعا:

- لا بأس، فقط أخبريني ماذا تريدين؟

حينما وجدته لينا معها، بل محبا رسمت في بالها مخططا عله يجدي نفعا ويؤتي أكلا يانعة، أملته اسم مطعم لا تأكل إلا من عنده "لقمة وخبزة"..

فأخرج هاتفه وطلب لها ما تشتهيه..

نهضت من مكانها، وتوجهت إلى غرفتها وهي تقول:

- سأغتسل، وأبدل ثيابي.. لقد لطختها الدماء..

سألها الكابوس بقلق:

- هل أنت بخير؟

استدارت له وقالت:

نعم..

ثم مضت لغرفتها، وأغلقت الباب من خلفها..

شعر الكابوس بالسعادة من تبدلها.. يبدو أنها بدأت تعتاد وجودها معه.. ليس هذا فقط.. ولكن أيضا بدأت تشعر بأنه الحامي لها من أي سوء وشر..

***

دخل (نواف) إلى المحقق (إبراهيم) وهو يقول له:

- فعلت ما طلبت مني... وبحثت عن جميع من كانوا بالحريق يوم الحادث.. ذهبت إلى بيوتهم وقد استدعيت المتوفر منهم للتحقيق..

ولقد أتوا جميعا معي.. وهم بالخارج الآن..

أخذ (إبراهيم) نفسا عميقا وهو يقول:

- إذا استطعت أن تحصل عليهم جميعا..

أجاب (نواف):

- نعم، جميع قائمة المصابين متواجدون بالخارج.. ما عدا اثنين منهم؛ أحدهما مات في المستشفى، والثاني ذهبت لبيته.. قابلني والده واصل وأخبرني أنه ليس ابنه وأنه غير موجود في المنزل، لكنه مسجل في الورق الرسمي باسم واصل.

قال إبراهيم: كيف ذلك؟! لا بد من وجود سبب يجعله ينكر ولده، هل سألت عن مكانه؟

رد نواف: أجل، لكنه ادعى أنه لا يعلم عنه شيئا.

صمت قليلا ثم قال إبراهيم: ربما يكذب.

رد نواف يبدو رجلا بسيطا وهو بالمناسبة ضرير لا يبصر.

هنا توقف إبراهيم قليلا يتذكر بعض الأحداث ثم قال: واصل

و... أعمى! هل هو صاحبنا الذي يهزئ محمدا دوما؟!

رد نواف: لا أعلم.

قال إبراهيم: لا بأس سأتحقق بنفسي، بعد انتهاء التحقيق مع الرجال سوف أزور واصل، هل عنوانه مسجل؟

رد نواف: أجل سيدي.

- سألقي نظرة على العنوان لاحقا.

ضيق المحقق (إبراهيم) بين حاجبيه وهو يتمعن تقرير المستشفى التي نُقل إليها جميع المصابين.. لم يُذكر أن من بينهم من قد خرج في حالة حرجة للعاصمة..

سأله (إبراهيم):

- ما اسم هذا الشخص؟

قال (نواف): عمار الرشيد.

بحث المحقق (إبراهيم) في الأوراق أمامه وكان هناك اسم عمار..

فتح التقرير الذي كان للأسف قد كُتب في عجالة، ويفتقر إلى المهنية والتفصيل..

لكن كُتب إنه قد تلقى علاجا لأكثر من شهر ونصف.. خرج بعد أن تم علاجه بصحة جيدة، عاد إلى السجن ولما انتهت محكوميته تم الإفراج عنه.

نقر على الأوراق أمامه ثم قال ل(نواف):

- أريدك أن تبحث أكثر في أمر عمار الرشيد..

وقم بإدخال الرجال للتحقيق.. كل واحد على حدة..

جلس المحقق (إبراهيم) خلف مكتبه، استقبل الرجال الذين كانت تتباين إصابتهم وكان حريصا على كشف أجسادهم من اجل فحص أكثر دقة بما أن التقارير الطبية للأسف لم تذكر

التفاصيل لحالاتهم.. لكن أحدهم كان يبدو عليه الغضب طوال التحقيق، ولما انتهى التحقيق قال معربا عن سر غضبه:

- إنني أعرفك جيدا؛ أنت الذي تسببت لنا بهذه الحروق... كنت حاضرا حينما ألقيت عقب السيجارة بكل تهور وكأنك ولد صغير! أسأل الله أن ينتقم لنا منك أيها الخبيث.

هم (إبراهيم) بالبطش به، لكنه انكفأ حينما تفكر في كلام الرجل، وأدرك أنه محق، وضع نفسه مكان الرجل الحانق وأدرك أنه كان ليغضب كما غضب، حاول امتصاص سخطه واستبدل نبرته بنبرة لينة معتذرة إذ قال:

- إنني متأسف لكل ذلك، أعترف أنني كنت متهورا لكنني...

قاطعه الرجل: لقد خرجت منها كما تخرج الشعرة من العجين بسبب الواسطة والمحسوبية، ولكن أنى لك الهروب من الله... من العدالة الحقيقية؟!

حار (إبراهيم) جوابا ولم يجد غير أن يشير له بالانصراف؛ فانصرف وهو يتمتم بكلمات لاعنة.

وبعد أن انتهى منهم جميعا زفر في قنوط.. لم يكن واحدا منهم يملك هذا التشوه في جانب وجهه الأيسر وجسده..

فعاد مرة أخرى لنقطة الصفر..

حينما خلا بنفسه أتيحت له الفرصة كي يفكر مليا بكلام الرجل الساخط؛ فلم يجد نفسه إلا منساقا للمشاعر، فبكى بحرقة جراء الأرواح التي تسبب في إزهاقها والبشر الذين تسبب في تشوههم.

[6]قرر الذهاب دون محمد هذه المرة واكتفى باصطحاب نواف معه، وقف على الباب يتملى المنزل، استنشق بعمق، ثم أشار لنواف؛ فطرق الباب

بعد هنيهة فتح واصل وأطل عصاه قبله، هتف بصوت صاحب، من عند الباب؟

رد نواف: نحن رجلا التحقيق، هذا المحقق إبراهيم وأنا مساعده نواف.

رحب بهما ودعاهما للدخول: أهلا وسهلا، تفضلا، ادخلا بيمينكما وتعوذوا من الشيطان.

دخلا بهدوء، كان المنزل هادئا هذه المرة، جلس واصل فجلسا، قال إبراهيم:

- معذرة على الإزعاج لقد أتينا لظهور بعض المستجدات لقد...

قاطعه واصل: ادخل في صلب الموضوع، ماذا تريد؟

رد إبراهيم: لقد زارك نواف سابقا وسألك عن ابنك عمار، لكنك نفيت ذلك!

رد بغضب: ما بكم أيها القوم! ليس لدي أولاد، زوجتي الأولى توفت وما أنجبت إلا بنتا واحدة هي أم حفيدتي اللي خطفها المستدرج، أما الولد الثاني فاسمه جعفر وليس عمارا، وهو ولد زوجتي الثانية وليس ولدي. هل فهمتما أم أعيد؟

هنا تدخل نواف قائلا: الأوراق الرسمية تثبت أنه لديك ولد اسمه عمار.

رد بصلافة: هذا الذي سيجعلني أطرده من بيتي، قلنا لك ليس لدي عمار ولا طعمار، ابنتي الوحيدة سارة.

تدخل إبراهيم وقال: حسنا اهدأ يا عمي، أخبرني هل وقعت على أية أوراق في الاونة الأخيرة؟

ضحك العجوز وقال: زوجتي الثانية كانت تعطيني القلم وتجعلني أنخبط كثيرا، وتسميها توقيعات لا أدري ما تلك التوقيعات! لكنني أحببت المسألة، وصرت كلما أحضرت لي ورقا أنخبط فيها

بدت علامات التعجب على وجه المحقق وقال

- ذلك لا يصح يا عمي واصل، التوقيع أمر خطير ولا ينبغي لك التوقيع إلا على أوراق تعلم ما فيها. هنا نحن نشك في قصة تزوير، وإن صحت فربما تجلب لك مشكلات أنت في غنى عنها.

- وما الذي يمكن أن يحدث؟

- أشياء كثيرة، ربما تودع السجن.

ازدرد واصل ريقه: سجن مرة واحدة؟ كلا، أنت تبالغ يا ولدي لا أظنك تسجن رجلا بعمر أبيك؟!

- أنا لا أعرفك يا واصل، وستتحمل مسؤولية أفعالك والقانون لا يحمي المغفلين.

- أنت المغفل لا تسبني في بيتي، اسجني ولا تسبني.

- وهذا ما سأفعله لن تكون بمعزل عن السجن.

-.ماذا! أو تفعلها؟! حسنا وهل يوجد في السجن أراجيل؟!

***

جلس عمار على الأريكة في انتظار الطعام الذي طلبه لـ(مشاعل).. سيستقبل هذا الطعام ثم يذهب لطريقه.. هناك ما يجب أن يقوم به وينتهي منه تماما..

رن جرس الباب فخبأ نصف وجهه المشوه بشكل جانبي ونهض ليفتح..

فتح عمار لعامل التوصيل، وأخذ منه الطعام..

خرجت (مشاعل) من غرفتها.. وقفت في انتظار حقيبة الطعام..

أغلق عمار الباب وتقدم إليها ليناولها الحقيبة الورقية منقوشا عليها اسم المطعم "لقمة وحبزة" فاستلمتها بابتسامة مقتضبة..

قال لها:

- لحظة، سأحاسب الرجل وأعود لنأكل سويا.

ابتعد عمار بعد أن أخذ المال من الطاولة، وقبل أن يفتح الباب كانت (مشاعل) تقول بغضب:

- لا ليس هذا ما طلبته.. لن آكله.. أعده إليه..

عاد عمار لها بدهشة وهو لا يفهم سر غضبها، ولكنها قالت بثورة:

- أعده إليه الآن.. يجب أن يحاسبوا على إهمالهم في إرسال طلب مخالف غير الذي طلبته.. ألق هذا في وجهه..

ألقى عمار نظرة فاحصة على محتوى الطعام وقال: أعتقد أنه نفس الطلب.

قالت بمرح مصطنع: ألم تلاحظ؟ إنه خال من البطاطا المقلية.

قال عمار: لكننا لم نطلب البطاطا المقلية.

قالت: ألم تطلبها؟ هل نسيت طلبي؟

عمار: لم تطلبي البطاطا المقلية من الأساس.

أجابت: ذلك مستحيل، فأنا لا آكل هذا الطعام دون البطاطا المقلية، أرجوك أعده لا أريده.

زفر عمار بضيق.. وتناول منها الحقيبة الورقية، وبالفعل أعادها لعامل التوصيل، ولم ينس أن يصرخ بوجهه:

- اذهب من هنا ولا تعد وإلا كسرت عظامك..

تناول العامل الحقيبة وهو يتراجع برهبة أمام صوت عمار الجهوري المرعب وتهديده اللامنطقي.. ولم ينطق كلمة واحدة، ونزل من الدرج هربا منه..

التفت ل(مشاعل) التي قالت بإرهاق:

- أنا آسفة يا عمار.. سأذهب للنوم أشعر بالإرهاق..

اسم عمار الذي خرج من فمها ألجمه.. لم يسمع أحدا منذ زمن

ART_OF_BOOK

بناديه بهذه الوداعة!

تحركت أمامه ودخلت غرفتها وأغلقت الباب..

مسح على رأسه ثم أغلق باب غرفتها من الخارج بالمفتاح.. وبدل ثيابه وارتدى قفازيه وخرج موصدا وراءه باب الشقة بإحكام..

وذهب إلى هدفه..

***

تلقى المحقق (إبراهيم) رسالة على هاتفه ففتحها.. كان الرقم مجهولا. لكن الرسالة جعلته ينهض من مكانه في فزع:

"أيها المحقق (إبراهيم)... عد إلى منزلك. هناك ستجد زوجتك في انتظارك حية أو ميتة.".

نزل بسرعة، خرج من المبنى، قفز إلى سيارته القريبة.. أدارها وطار بها يسابق الريح..

كل ثانية قد تعني الكثير..

زينب في البيت.. حية أو ميتة!

كان الطريق مزدحمًا، لكنه كان يضغط على بوق التنبيه بلا توقف، وقد بدأت السيارات تفسح له الطريق.

كل ما يهم الآن...

هو أن يصل قبل فوات الأوان.

عندما وصل، ركن السيارة بطريقة مسرعة وغير آمنة، خرج منها واندفع نحو الباب، فتحه بمفتاحه ودخل.

كانت الصالة فارغة

والمنزل هادئا

كل شيء يبدو كما تركه

@ART_OF_BOOK

"زينب؟!".

صوته كان يرتجف قليلًا...

لم يأت أي رد.

ثم...

خرج ابنه خالد من إحدى الغرف، كان يبكي.

ركض إليه (إبراهيم)، رفعه بين ذراعيه. قلبه يكاد ينفجر من الخوف:

"خالد، كيف وصلت إلى هنا؟ أين أمك؟!".

لم يتوقف الصغير عن البكاء..

مر (إبراهيم) بجميع الغرف وهو يفتحها ويتفحصها.. كانت الغرف خالية تماما..

تلقى (إبراهيم) مكالمة هاتفية؛ فأجاب وهو يحمل طفله..

كان صوت الرجل في الطرف الآخر هادئًا، باردًا، وكأنه يعرف تمامًا ما الذي يفعله:

- هل عثرت على زوجتك أيها المحقق؟

قبض (إبراهيم) على الهاتف بيده المرتعشة، وقال بصوت مبحوح:

- أين زوجتي؟.

ضحكة خافتة خرجت من السماعة، ثم قال الرجل بصوت متلاعب:

"مهلًا... هل ما تزال زوجتك؟ ألم تنفصلا؟ هل يحدث شيء دون أن أعلم؟!"

انفجر الغضب داخل (إبراهيم).

صرخ وهو يضغط على الهاتف بقوة:

- أين هي؟!!.

لكن الرد جاء أكثر بروذا مما توقعه.

- ألم تكتفِ بابنك؟.

نظر (إبراهيم) إلى خالد الذي كان يقف عند الباب، عيناه مليئتان بالخوف، الدموع تتجمع عند أطرافهما، وكأنه شعر أن والده على وشك الانهيار.

قال بصوت مكسور:

- إنه يحتاج والدته أكثر مني..

- لقد تأترت...

قالها الكابوس بصوت ساخر، وكأنه يستمتع بتحطيمه.

لم يعد (إبراهيم) قادرًا على التحمل، قال بصوت متوسل:

- ماذا تريد مني؟.

كان يعلم أن هذه الجملة ستجعله يبدو ضعيفًا، لكنه لم يهتم.

ضحك الرجل مرة أخرى، ثم قال بنبرة أكثر جدية:

- أريدك أن تتوقف... لا تأتِ في أحلامي، ولا في عقلي. أصبحت أراك في كل مكان، أخبروني أنه إذا قتلتك، ستختفي مني..

ارتجف صوت (إبراهيم) وهو يقول:

- إذا كنت تريد قتلي، سأسمح لك بذلك... لكن دع زينب وشأنها..

ساد صمت للحظة.

ثم قال الكابوس بصوت يحمل نبرة انتصار:

- حسنا، سأفعل.. ولكن هناك حساب قديم يجب أن ننتهي منه. وهذا الحساب لن ينتهي إلا بالدماء. ولقد اخترت دماءها

هي.. يجب أن تكون ممتنا أنني لم أختر ابنك.. لقد كان هو المرشح الأول..

رد (إبراهيم) وهو ينظر لابنه المرعوب:

- اقتص مني أنا.. لا هو لا وهي..

قال الكابوس:

- تأخر الوقت.. ونهايتها قد كُتبت:

"3... 2... 1..."

ثم دوى صوت طلق ناري من خلال السماعة.

صرخ (إبراهيم) من كل قلبه:

"لاااااااااا!!!"

بعد دقيقة صمت قضاها (إبراهيم) في بكاء صامت قال المستدرج ببرود:

"ستجد الجثة في مزرعتك... وهناك، ستجد الرسالة للقاء الأخير بيننا. كن بخير، أيها المحقق؛ لأنني لم أنتهِ بعد... زوجتك زينب ما زالت تنتظرك".

ثم انقطع الاتصال.

وقع الهاتف من يد (إبراهيم)، كانت ضربات قلبه تصم أذنيه.

لم يستطع تحريك جسده للحظات، ثم... نظر إلى خالد المرتعد الباكي.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم أخرجه ببطء.

لم يكن هناك وقت للانهيار.

تقدم بهدوء، حمل خالد بين ذراعيه، ثم انحنى ليأخذ الهاتف من الأرض.

طرق باب (حسان)، ففتح الأخير، وعندما وقعت عيناه على

خالد تهلل فرحا، وحمله بين يديه:

- حبيبي الصغير أهلا بك.. شرفت المكان كله؟

نظر إليه (إبراهيم) بعينين ممتلئتين بالإرهاق واليأس، ثم قال:

- أحتاجك يا عمي.. سأدع خالدا معك، وسأذهب أنا لأقوم بأمر هام..

ربت (حسان) على كتف (إبراهيم) في مؤازرة:

- أذهب يا ولدي.. ابنك أمانة في رقبتي.. إنه الغالي وابن الغالي.

لكن فور أن ابتعد (إبراهيم)، بدأ خالد بالبكاء، شد يديه الصغيرتين نحوه، وكأنه يعلم أن فراقه هذه المرة لن يكون عاديًا.

حاول (حسان) تهدئته، لكن خالدا لم يتوقف عن البكاء.

قال بحزم لكن بحنان:

"(إبراهيم)، ارحل. لن يتوقف عن البكاء طالما أنت هنا. أعدك بأنه سيكون بخير معي.".

نظر (إبراهيم) إلى خالد للمرة الأخيرة، ثم قال بصوت خافت:

"شكرًا لك. سأعود قريبًا... أعدك.".

ثم استدار، وخرج من المنزل دون أن ينظر خلفه.

رحل مبتعدا وهو يسمع بكاء ابنه، قلبه يتحطم مع كل خطوة يخطوها مبتعدا عن المنزل، لكنه لم يكن يستطيع الالتفات... لا يمكنه التراجع الآن.

ركب السيارة، وضع يديه على المقود، لكنه لم يدر المحرك على الفور

أخذ نفسا عميقا، لم زفره ببطء.

كان يعلم أن الخطوة التالية ستحدد كل شيء.. إما أن يجد زينب، أو أن يفقد اخر أمل له.

أدار المحرك، وانطلق.

كلما اقترب من المزرعة، كانت دقات قلبه تتسارع.

لم يكن جاهزًا لرؤية جثة زينب، لم يكن مستعدًا لتقبل الحقيقة بأن ابنه سيكبر يتيم الأم، لكنه رغم ذلك كان مستعدًا للموت إن كان ذلك الثمن لإعادتها.

أوقف السيارة على بعد خمس دقائق مشيًا من المزرعة.

لم يكن يريد أن يلفت الانتباه بصوت المحرك.. إن كان المجرم هناك، فإنه سيقبض عليه هذه المرة.. بل لعله يقتله انتقامًا مما فعله به.

ترجل بهدوء، سلاحه في يده، يضغط عليه كأنه امتداد لجسده.

دخل إلى المزرعة، لم يكن هناك أي شيء غريب.

كانت البوابة مفتوحة كما تركها سابقًا.

تحرك بحذر، يبحث عن أي أثر للجثة، بدأ بالمسبح حيث وجد (فاطمة) سابقًا.

دخل عبر نفس المدخل، كان المكان خاليًا.

خاليًا تمامًا.

خرج، انتقل إلى المجلس المخصص للضيوف، فتح الباب، وفجأة..

صوت حركة!

تجمد في مكانه، رفع سلاحه، عيناه تبحثان في الظلام عن أي شيء..

تقدم بحذر، قلبه ينبض بقوة في صدره، صوت أنفاسه أصبح

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

ثقيلاً.

ثم... شيء طار أمام وجهه بسرعة!

أطلق طلقة فورية، تراجع خطوة للخلف، ثم سمع صوت ارتطام على الأرض.

نظر للأسفل، كانت مجرد حمامة، جناحها ملطخ بالدماء، ترفرف بصعوبة...

تنفس بعمق، حاول طرد التوتر الذي اجتاح جسده.

خرج من المجلس، أكمل البحث.

اتجه نحو غرفة التخزين، كان الباب مفتوحًا.

الأرضية ملطخة بالدماء.

دون تردد، دخل...

كانت هناك جثة مغطاة بعباءة سوداء.

الدموع بدأت تنساب من عينيه، رغمًا عنه، رغمًا عن قوته، رغمًا عن كل شيء.

هذه هي زينب.

تقدم إليها، يداه ترتجفان.

لم يكن يريد أن يرى وجهها بهذه الحالة، لكنه اضطر لذلك، كاد ينهار من الموقف الصعب الذي وضع فيه، لم يكن يتخيل يوما أن يرى جثة زوجته! لطالما تمنى أن يموت قبلها ولم يتصور أن يعيش دونها لحظة واحدة! كانت دموعه تنساب على وجهه كيفما اتفق، يتذكر اللحظات الجميلة حينما كانت تعيش معه في المنزل قبل أن تتهاوى حياته معها بهذه الطريقة، لطالما كانا يتضاحكان بسعادة غامرة، أتفه الأسباب كانت تنشر حولهما الحبور والبهجة، يكفيه أن يقدم لها وردة كي تعانقه وتبكي، كانت بتلك الرقة والمشاعر الحاضرة، وكانت بدورها لا تبخل عليه بعطفها؛ تتفقده كل يوم، وتسأل عن حالته النفسية

والجسدية، حتى انتهى كل ذلك في لحظة!

يتذكر لقاءهما الأول كانت صديقة لإحدى أخواته وكانت ترتاد منزله كثيرا بحجة زيارة صديقتها، التقت عيناهما أول مرة بالصدفة حينما كان خارجا من غرفته نحو صالة المعيشة وكانت زينب واقفة تنتظر صديقتها وحكت تلك النظرات الكثير من الأشياء أحس أنها الفتاة التي يريد أن يعيش معها، كما أحس أنها ترغب بما يرغب، وحينما خلا بنفسه تلك الليلة لم يستطع النوم، كان ساهما يفكر فيها وفي عينيها اللتين أوقعتاه في أسرها، وحينها عقد العزم على أن تكون له ويكون لها؛ فحاول المستحيل، وخاض الصعاب حتى ظفر بها زوجة وحبيبة ولم تخب ظنونه فلقد أسرته بهدوئها ورقتها وجمالها… كل ما يريده الآن أن تعود تلك اللحظات ولكن هيهات فها هو ذا يقف على جثتها!

أمسك العباءة، وأبعدها عن وجهها وهو مغمض عينيه بقوة، غير قادر على تحمل المشهد.

مرت لحظات طويلة… ثم فتح عينيه أخيرًا.

ما رآه جعله يتجمد في مكانه.

هذه… لم تكن زينب.

كانت امرأة أخرى..

امرأة كبيرة في السن، في قلبها طعنة غادرة أودت بحياتها..

لأول مرة يشعر إبراهيم بالسعادة منذ مدة، ورغم أن الأمر ينطوي عن جريمة قتل لكنها رغم كل شيء أسعدته؛ لأنه علم أن زوجته بخير، أو هذا ما أراد تصوره في تلك اللحظة. لا يهمه الآن من يموت إن سلمت عائلته.

لم يكن إبراهيم في هذه اللحظة مهيئا ليتولى هذه القضية فقد كان مشغول البال بزوجته فاتصل على نواف وأخبره عن الجثة وطلب منه تولي القضية رفقة محمد. ثم غادر مسرح

الجريمة مسرحها.

صفحات ٩١ ٣٨٩ / ٣٩٨ م٢٠٢٣

12

الحقيقة

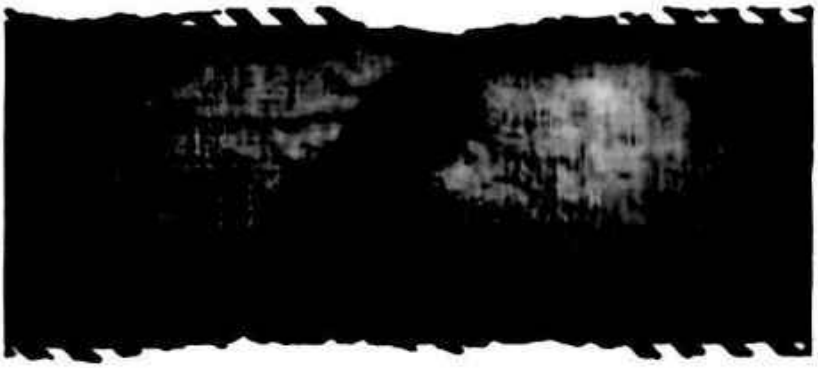

تحرك المحقق (إبراهيم) على الفور إلى البناية البيضاء.. البناية التي كان يزورها ليلقي عليها نظرة من بعيد ثم يبتعد.. البناية التي تحوي قلبه وعقله.. حيث زوجته وطفله..

الآن يقتحم البناية ويصعد السلالم في سرعة قاتلة.. طرق الباب بعنف حتى كاد يكسره..

فتح له أحمد أخو زينب.. فاقتحم (إبراهيم) الشقة وهو ينادي على زوجته..

صعد أحمد بقوة وهو يدفعه صارخا:

- ماذا تظن نفسك فاعلا في هذا الوقت وهذا المكان؟!

استدار له (إبراهيم) بشرر، وقرر إنه لا مجال اليوم لضبط النفس فقال له:

- أين خالد يا أحمد؟ أين ابني؟ أين الأمانة التي من المفترض أن تحموها؟

ارتبك أحمد وبلع ريقه، ثم قال بسرعة حاول أن يجعلها عنيفة:

- كان يلعب أمام البيت مع الجيران لم نره. أبلغنا الشرطة وبحثنا عنه وسنجده..

ثم قال بصوت أعلى:

- أو من الممكن أن أعدائك قد خطفوه مثلما حدث مع (يسر).. أنت السبب في كل هذا لا نحن. لا تلق بحمائلك علينا.

رفع (إبراهيم) كفيه وقبض بهما على ياقة قميص أحمد:

- طفل في هذا العمر تتركه وحده بهذا الشكل! لماذا لم تترك أطفالك معه.. أين زينب؟

سمع (إبراهيم) من ورائه بابا يفتح، وخرجت زوجة أحمد وهي تسحب ورائها زينب وقد ألبستها عباءتها السوداء، وبيدها الأخرى تحمل حقيبة كبيرة وهي تقول بحدة:

- يا سيد (إبراهيم).. لماذا جئت تحرجنا بهذا الشكل. ألا يكفي اهتمامنا الشهور السابقة بزوجتك وابنك.. لا تحملنا أعباءك أكثر من هذا.. إنك -مع الاحترام لك- لكنك لا تقدر ما فعلناه لأجلك ولأجل عائلتك؛ لو لم نحتوها لتاهت في الشوارع! لقد تحملناها رغم أن وجودها يضيق علينا رحب الحياة، ويضعنا في مواقف محرجة فلا نستطيع الذهاب والعودة بحرية؛ لأننا كنا نرعاها وبدورها كانت لا تحب الخروج كثيرا من المنزل الأمر الذي جعلنا حبيسي الدار، كما أن عقلها الصغير بات يسبب لنا الكثير من الإحراجات؛ فكلما رأت فتاة صغيرة في المرات التي تخرج فيها معنا كانت تحتضنها وتبكي وهي تردد اسم يسر لطالما أوقعتنا في الحرج مع عوائل أمثال تلك الفتاة! خذ هذه هي زوجتك واذهب لتبحث عن طفلك في مكان غير هذا أرجوك ارحمنا ودع حياتنا تسير بطريقة طبيعية.

تنحنح أحمد بحرج من موقف زوجته إلا أنه لم ينبس ببنت شفة، وآثر الصمت التام.

أما (إبراهيم) فلم يهتم إلا برؤية وجه زينب الذي غاب عنه

لشهور..

كم نحل جسدها الذي كان غضا ريان؟! ذبلت عيناها واختفى اللون الأحمر من على خديها..

اقترب منها فتطلعت إليه بفضول:

- زينب.. حبيبتي.

همس بها قريبا من وجهها.

فشهقت وهي تبتعد خطوة وتسأله باستنكار:

- من أنت؟

اتسعت عيناه رعبا من سؤالها، والتفت بحدة إلى أحمد الذي وقف يتابع المشهد في صمت..

مع التفافه الحاد قرأ أحمد الأسئلة التي تقفز من عيني صهره فأجابه قائلا:

- ألم أخبرك من قبل أنها لن تتذكرك لا أنت ولا (يُسر)..

لم يرد عليه (إبراهيم) غير أن كانت له رغبة قوية في تحطيم أنفه وفكه وعظامه..

عاد لينظر إلى زينب ثم حمل الحقيبة التي تركتها زوجة أحمد أرضا وانصرفت..

ثم أمسك بيد زينب يسحبها معه برفق..

حاولت أن تقاوم غير أنه قال لها بصوت هادئ:

- لا تقلقي أنا معك.. أنا زوجك وحبيبك..

نظرت إليه نظرات متشككة ثم نظرت إلى أخيها الذي أومأ لها بالذهاب معه، فتقدمت معه دون كلمة..

مشت معه وكأنها فقدت تحكمها على جسدها بشكل كامل!

وأصبحت ترضى بأي كان المصير مع أي كان الشخص الذي

أمامها..

أخرجها من المنزل الأبيض وقادها إلى السيارة، وضع حاجياتها واقتادها للمقعد، كانت صامتة لم تبدي أي ردة فعل، قاد السيارة وتحدث معها يعرب عن سعادته الغامرة بعودتها... وصلا شقتهما الخاصة، ركن سيارته، وقادها نحو الشقة، لكن شيئا لفت نظره في الشارع المقابل لبنايتهم؛ إذ وجد حافلة صغيرة تحمل اسم "الرشيدان"، وفي لحظة تذكر كلام واصل عن تلك الحافلة وذلك الاسم...

دعاه حسه الحذر من الاقتراب من السيارة فطلب من زوجته الانتظار قليلا، ولما بدأ بالاقتراب لمحه سائق الحافلة من خلال المرأة؛ فغادر مسرعا، تمكن إبراهيم من حفظ أرقام لوحة الحافلة فاتصل على رقم الشرطة وأخبرهم أنه المحقق إبراهيم وطلب منهم ملاحقة تلك الحافلة والتحفظ على السائق للتحقيق معه كونه مشتبها به في قضية كبيرة.

***

عاد (إبراهيم) لشقته، وأدخل زينب إلى حجرتها فجلست على فراشهما ونظرت إليه بعينين متسائلتين قبل أن تقول:

- أين أنا؟ ومن أنت؟

قاوم (إبراهيم) دموع عينيه، واستطاع أن يفهم الحالة التي وصلت إليها.. فقط هو لا يصدق..

إنه يعلم أنها تعزل عقلها عن الحياة.. فقدان يسر بهذه الطريقة لم ولن يكون سهلا على كليهما..

لكن زينب بالتحديد كانت الأكثر تأثرا.. هي الأم الرؤوم والحانية وصاحبة القلب الرقيق. لم تحتمل أن تكون واعية في عالم فقدت فيه ابنتها غدرا.

اقترب وانحنى ليرتكز على ركبته اليمنى أرضا وهو يقول وكأنه يعلم طفلا صغيرا أسماء الأشياء من حوله:

ART_OF_BOOK

- أنا (إبراهيم).. وأنا زوجك..

اتسعت عينا زينب، ثم قالت بعد فترة:

- أنا لا أذكر من أنا، ولا أذكر من أنت.. أنا لا أعلم أنني زوجة أحد..

حاول أن يقترب ليلمس كفها ولكنها ابتعدت تماما في ذعر ظهر وميضه في مقلتيها

ابتعد بدوره حتى لا يثير ذعرها أكثر، وقرر أن يحادثها برفق:

- أنت لست فقط زوجتي.. أنت حبيبتي وأم طفلي..

انظري..

قالها وهو يمد لها صورة من على الطاولة بجانب فراشه.

صورة جمعتهم جميعا كعائلة لا يوجد من هم أسعد منها في الحياة..

رجل وزوجته وبينهما طفلان.. صبي وفتاة..

أمسكت زينب بالصورة بكلتا كفيها وهي تتأملها بعمق.. ثم أشارت إلى نفسها وهي تهمس:

- هذه أنا..

ثم أشارت إلى (إبراهيم) وعادت لتنظر إلى وجهه ثم تنظر إلى الصورة وكأنها تقارن بدقة بين الوجهين، ثم قالت في حيرة ودهشة:

- وهذا أنت!

أشارت لوجه خالد الضاحك فابتسمت بحنان وقالت:

- وهذا الصبي رأيته كثيرا في البيت الذي كنت فيه.. ثم أشارت لنيسر وتطلعت إليها.. ثم عادت لتبتسم وهي تقول:

- ما أحلاها.. طفلة بديعة.. من هي؟

@ART_OF_BOOK

هنا سالت دمعات (إبراهيم) وما عاد يقوى على الصمود.. علا رنين هاتفه فمد إليه يده في تثاقل..

كان المحقق (محمد).

رد عليه بصوت مهموم:

- (محمد).. ماذا هناك؟

جاء صوت المحقق متحفزا وهو يقول بإصرار:

- تعال على الفور يا إبراهيم...

لم يحتج (إبراهيم) لأكثر من هذا حتى يدرك أهمية الموقف.. فقال سريعا:

- سآتي.. ولكن أرسل إلي فورا عنصري أمن يقفان أمام بنايتي للحماية.. فزينب وخالد معي.. ولا أريد أن أغامر بوجودهما هنا وحدهما..

فهم (محمد) فقال مطمئنا (إبراهيم):

- سيكونان أمام البناية خلال فترة وجيزة.. فقط تعال..

أنهى المكالمة ونهض أمام عيني زينب.. اقترب منها بهدوء:

- زينب.. يجب أن أذهب.. لم لا تنامي قليلا.. وأنا سأعود إليك حبيبتي.. وسأحضر خالدا الصبي الجميل في الصورة.. هل تريدينه؟

هزت زينب رأسها بإيجاب.. فابتسم لها وغادر البيت لبيت جاره (حسان).. وقبل أن يطرق الباب سمع صوت الممثل الذي تعشقه والدته سمير في إحدى مسرحياته المشهورة يتعالى من تلفاز شقة حسان. أصغى قليلا ثم طرق الباب ففتح له (حسان) بوجه بشوش ثم عاد لينجهم:

- ما بك يا ولدي.. تبدو شديد الإرهاق..

حرك (إبراهيم) رأسه في دورة كاملة ثم قال:

- نعم والله يا عمي.. كان يوما عصيبا وما زال هناك ما ينتظرني.. كنت أظن أنني فقدت زوجتي اليوم، ولكن بدلا من جثتها وجدت جثة سيدة عجوز..

تجمد (حسان) مكانه وهو يقول بذعر:

- سيدة عجوزا

رد (إبراهيم) بأسف:

- أعلم يا عم (حسان) كم يبدو الأمر قاسيا.. لكننا لا نتعامل مع بشري عادي.. وهناك ما هو أسوأ.. أظن أن هذه المرأة أمه.. تخيل!!!

تخيل أن هذا المجرم الذي فاق كل التوقعات من الممكن أن يكون قد قتل أمه..

ازدرد (حسان) ريقه وهو لا يعي ما يقوله (إبراهيم):

- أمه؟؟ كيف؟؟

زفر (إبراهيم) بضيق:

- لست واثقا، ولكن بناء على تحقيق قديم مع واحدة من ضحاياه ذكرت أن له أما تتحكم فيه بقوة.. دعك من كل هذا.. أين خالد؟

قال (حسان) وقد صدمته الأخبار الإجرامية هذه:

- عذرا ولدي.. نسيت أن أخبرك إنه نائم.. اتركه هنا.

تحرك (إبراهيم) للداخل وهو يقول:

- لا.. سأخذه معي. فقد عادت زينب إلى المنزل.

قال (حسان) بابتسامة عريضة:

- حقا؟؟ يسر الله أمركم يا ولدي..

حمل (إبراهيم) خالدا وتحرك به إلى شقته، لكنه قبل أن يخرج سمع صوت الممثل سمير واضحا قادما من إحدى الغرف

المغلقة، فظن أن عشق هذا الممثل الكوميدي سمة يتشارك فيها كل كبار السن، خرج مسرعا، ودخل شقته ليجد زينب على نفس جلستها.. ابتسمت له بقوة ومدت ذراعها من أجل أن تحمل عنه خالدا..

فوضع الصغير في أحضانها، وشعر برجفة في القلب وهو يرى بأن عائلته تعود إليه شيئا فشيئا.. فقط يسر هي من تبقت، وسيعثر عليها ويأتي بها مهما كلفه هذا الأمر..

***

خرج (إبراهيم) من الغرفة ليتجه للخارج كي يذهب إلى مركز الشرطة من أجل الأمر الهام الذي خابره محمد لأجله، ولكن شيئا ما استوقفه..

السلك الخاص بكاميرات المراقبة مقطوع!

اتجه ناحيته، أقعى ليتفحصه..

هذا المجرم القذر..

زفر (إبراهيم) وخرج من الشقة ثم البناية، ووجد اثنين من رجاله يقفان باحترام أمام البناية، فحياهما وأوصاهما ألا يدخل مخلوق لهذه البناية إلا ويتحريان عنه..

أكدا له أن زوجته وابنه أمانة في رقبتيهما.. فغادر (إبراهيم) وهو يسر في نفسه الدعوات لتحميهما..

***

تحرك المحقق (إبراهيم) في خطوات سريعة لغرفة المحقق (محمد).. فتح الباب دون إذن؛ فوجد محمدا وراء مكتبه وأمامه رجل يجلس على أحد الكراسي والمساعد (نواف) على الكرسي الآخر:

- ماذا هناك؟

قالها المحقق (إبراهيم) في عجلة..

نهض المحقق (محمد) من وراء مكتبه وهو يشير للرجل الذي جلس وفي يده يحمل حقيبة ورقية تحمل شعار أحد المطاعم..

- هذا الرجل مدير أحد المطاعم في منطقة الإحساء، ولديه ما يقول..

نهض الرجل بدوره عندما تحدث عنه المحقق (محمد) ومد ذراعه للأمام يعطي المحقق (إبراهيم) الحقيبة التي امتلأت عن أخرها بعلب الطعام..

تناول (إبراهيم) الحقيبة وهو ينظر للرجل في غير فهم فقال الأخير:

- أرسلت أحد عمال التوصيل الذين يعملون في مطعمي بطلبية قد طلبها أحد العملاء، ثم عاد إلي عامل التوصيل وأخبرني أن العميل صرخ بوجهه وأعاد إليه الطلب..

نظر المحقق (إبراهيم) إلى (محمد)، وقال له:

- هل أتيت بي لأحل مشكلة بين صاحب مطعم وعميله؟!

زفر (محمد) في ضيق وهو يقول ل(إبراهيم):

- أنا لم أفقد عقلي لأمزح معك يا (إبراهيم).. الأمر جاد.. لقد عثر الرجل على ظرف بني في الحقيبة الورقية.. فأعاده وأتى لنا بسبب ما كُتب عليه:

فتح (إبراهيم) الحقيبة سريعا وتحت واحدة من العلب وجد الظرف البني وسحبه..

وفوقه قد كُتب بالدماء "المحقق (إبراهيم)"..

اتسعت عينا (إبراهيم) وألقى الحقيبة الورقية وهو يسأل الرجل:

- أين العنوان الذي قمت بتوصيل هذه الحقيبة إليه..

قال الرجل:

ART_OF_BOOK

- جميع البيانات معي.. تفضل.

أخرج ورقة من جيبه فالتقطها (إبراهيم) سريعا..

العنوان في وسط الإحساء..

شعر بتنفسه يتثاقل وهو يفكر هل حقا قد اقترب من هدفه، أم أن هذه مجرد محاولة فاشلة أخرى..

ولكن لم يبق وقت للتفكير..

أصدر أوامره للجميع وفي لحظات كانت عربة محملة بقوات الأمن تتجه على الفور للعنوان المذكور..

***

جلس عمار بوشاحه الأسود على الأريكة ينظر بشرود للسقف.. لقد قتل أمه. لا يصدق أنه فعلها!

لقد قتل من أنجبته، ولكنها لم تشعره يوما بهذا الشعور الذي يتحدثون عنه.. شعور الأم الحانية..

كان فهد لوالديه كل شيء..

أما هو فكان دائما الفتى الضعيف المنهزم..

حتى بعد الحادثة التي حاول فيها انقاذ أخيه.. لم يسمع من أمه إلا البكاء على أخيه ولم ترأف بحاله ولو للحظة واحدة..

عاش ألمه وعذابه وحيدا..

والآن تطالبه أن يقتص من المحقق (إبراهيم) بقتل ابنه.. لا مانع لديه أن يقتل عشرين طفلا. ولكن لا لن يقتل ابن المحقق (إبراهيم).. فالمحقق (إبراهيم) قد خلصه من هذا الأخ المتجبر. الأخ الذي يأخذ كل الحقوق ولا يترك له شيئا..

نعم، لقد تشوه هو نفسه.. وتعذب.. لكن إحساسه بالراحة كان كبيرا عندما مات فهد وانتهى..

ولكن ما دفعه أكثر لفعل امه أنها أرادت أن تبعد عنه

(مشاعل)...

يعرف أن (مشاعل) لا تكن له أي عاطفة حقيقية الان.. ولكن في النهاية ستعتاد وجودها في هذا البيت ووجوده في حياتها.. ستعلم أنه قادر على حبها وحمايتها وتوفير كل ما تريده.. سيتزوجها ويبني معها العائلة التي تمناها، وينجبان أطفالا يكونون له وملكه، أطفالا لن يضطر إلى بيعهم والتخلي عنهم لأنهم جاؤوا برغبته ومن خلال الفتاة التي أحبها. وسيشعرهم جميعا بكل الحب والاهتمام، ولن يفرق أبدا بينهم، لن يكرر الخطأ الذي ارتكبته والدته بتفريقها بينه وبين فهد حتى جعلته يكره أخاه..

خرجت (مشاعل) من الغرفة التي فتحها لها عمار عندما عاد من مهمته الخاصة بالطفل ابن المحقق ومهمته الأهم وهي التخلص تماما من هذه المرأة التي كانت أمه..

انتبه لخروج (مشاعل) فابتسم لها وهو يسأل:

- هل نمت جيدا؟

نظرت (مشاعل) للنافذة بجانبها وهي تقول:

- لقد حل المساء..

أومأ عمار برأسه وهو يقول لها:

- لا شك وأنك تشعرين بالجوع.. خاصة عندما رفضت الطعام من المطعم..

تذكرت (مشاعل) فجلست على الجزء القريب من الأريكة وهي تتساءل.. هل ستصل رسالتها للمحقق (إبراهيم).. إنها تتذكره جيدا عندما أتى في المستشفى يوم موت (قاسم)..

وعندما تحدثت أم عمار معه عن المحقق (إبراهيم) تذكرته على الفور.. وقررت أن تستغل الفرص التي أمامها للوصول إليه..

تحقق هذا الموضوع عندما أصابتها السبدة في وجهها بجرح قطعي وسقطت على الطاولة التي خرجت منها عشرات الظروف..

فكرت سريعا وخبأت ظرفا منها.. عندما دخل عمار ليبحث لها عن علبة الإسعافات الأولية كتبت سريعا بدمائها اسم المحقق (إبراهيم) ثم خبأته في ثيابها.. اختلقت موضوع المطعم لتفتعل هذه المشكلة ثم حشرت الظرف في الحقيبة الورقية للمطعم..

والآن تتمنى أن كل هذا يؤتي بثماره وتصل الرسالة..

سيفهمها المحقق..

إنها تثق به..

دخل عمار المطبخ، وخرج منه وهو يحمل طبقا كبيرا من الفاكهة.. وضعه أمامها..

نظرت للطبق ثم قالت:

- لا أحب التفاح هكذا.. أريد سكينا لتقطيعه..

ابتسم لها عمار، ودخل المطبخ مرة أخرى ليعود بسكين صغير..

تناولت منه (مشاعل) السكين وقطعت التفاح إلى أجزاء صغيرة.. نظرت لعمار الذي يتأمل جلستها وحركاتها..

تناولت قطعة من التفاحة، ومدت يدها إليه:

- أتريد واحدة؟

نظر إلى عينيها بهيام كامل، ثم تناول التفاحة من يدها..

أكلها ببطء وهو ما زال ينظر إليها، ثم قال بعد أن تنحنح:

- أعتقد أن وجودنا معا بهذا الشكل غير لائق يا (مشاعل)..

توقفت (مشاعل) عما تفعله، ورفعت نظرها إليه ثم سألت:

- ماذا تعني؟

قال عمار:

- أعني أن نتزوج.. أعلم أننا نحتاج إلى فترة تعارف قبل هذه الخطوة.. لكن بما أننا نعيش سويا.. فلم لا نقضي فترة التعارف هذه بعد عقد القران..

تجمدت (مشاعل) مكانها وهي لا تعلم بم تجيب هذا المختل الذي يعرض عليها الزواج ويتحدث عما هو لائق وغير لائق؟! هل كنت تعرف اللياقة حينما اختطفت تلك الفتيات وفعلت بهن ما فعلت؟ هل كنت تعرف اللياقة حينما اختطفتني؟ هل كنت تعرف اللياقة حينما قتلت أخي؟! يا لك من وغد! لكم أشعر بالغثيان بسبب حديثك عن اللياقة!

لحظات سمعا بعدها هرجا ومرجا في الشارع؛ فنهض عمار بتوتر بينما شدت (مشاعل) بقبضتها على السكين في يدها..

- ماذا؟

صرخ بها عمار وهو يرى بوضوح رجال الشرطة الذين هجموا على البيت ومن بينهم ظهر المحقق (إبراهيم) الذي كان يقوم بتوجيههم..

استدار ليجد (مشاعل) تقف بصلابة في وسط الغرفة..

نظر لها ولمح في نظرتها اشتعالا وكأنها كانت تتوقع ما حدث للتو.. بل وكانت تنتظره..

نظر لها في خيبة أمل قاسية وقد شعر بغدر مرير..

اقترب منها وهو يسأل في يأس:

- ماذا فعلت؟

ابتسمت له بغل دفين:

- أكنت تتوقع أن أكون لك زوجة يا غبي.. أملك محفة في كل ما قالته عنك.. أنت غبي وأنا سأنتقم منك شر انتقام.

263 / 289 12 الصفحة
٢٧١٠٧٤٠٩

هجم عليها الكابوس بصرخة غضب، لكنها كانت أسرع منه، وغرزت السكين في عنقه في نفس اللحظة التي كُسر فيها الباب ودخل رجال الأمن ومن بينهم المحقق (إبراهيم)..

لقد استغلت مشاعل كل الإمكانيات التي أمامها، ووظفت كل المقدمات التي فعلتها؛ حيث استدرجت المستدرج وأقنعته بحبها، حتى تخفف من الحيطة، وترك الحذر درجة أنه سلمها بنفسه الأداة التي طعنته بها، اطمأن لها وأمن جانبها فسلمها سكينا صغيرة دون أن يضع أي احتمال ولو ضئيل بأن تطعنه بنفس السكين.

تجمع الرجال حول الكابوس وحملوه للخارج من أجل إسعافه.. بينما اقترب المحقق من (مشاعل) التي أطلقت من عينيها الدموع الغزيرة:

سألها برفق:

- هل أنتِ بخير؟

هزت رأسها دون كلمة.

فقال لها:

- هيا الآن.. عائلتك بالتأكيد في انتظارك.. لقد انتهى الكابوس..

مسحت دموعها وسألته ببكاء:

- هل انتهى حقا؟

سألته هذا السؤال فاستوقفته.. فأعاد سؤالها في نفسه:

"هل انتهى حقا؟!".

لا يعرف.. لا يستطيع أن يعرف.. لأن كابوسه هو لن ينتهي إلا بعد أن يجد نسر..

***

ART_OF_BOOK

أعاد (إبراهيم) (مشاعل) إلى بيت عائلتها..

فتح والدها الباب وهو لا يعلم أنها ستكون اللحظة الأسعد في حياته.. ابنته الغالية التي فقد الأمل في أن يلقاها.. تقف على باب بيته؛ فالتقفها بين أحضانه وهو يصرخ بأعلى صوته ينادي على زوجته وابنته الصغرى اللتين أتيتا مهرولتين..

ابتعد (إبراهيم) وهو يسمع صرخاتهم الفرحة وحمدهم وشكرهم لرب العالمين بعودة ابنتهم..

وضع يده على قلبه، وأغمض عينيه وهو يستجدي من ربه الصبر على الفراق..

- يا رب أعدها إلي..

قالها وكررها وكررها..

ثم ركب سيارته وعاد لبيته..

***

لقد تأخر الوقت وسكنت الشوارع إلا من قطط سائبة تموء مواء حزينا..

ركن سيارته وتحرك للبناية فوجد العسكريين المكلفين بحماية عائلته ما زالا في مكانهما يقفان بصلابة ودون ملل أو تهاون..

حياهما وطلب منهما الانصراف للراحة..

إنه الآن هنا، ولن يجرؤ مخلوق على المساس بفرد واحد من عائلته بعد اليوم فقد تم إلقاء القبض على أسوأ كوابيسه..

دخل بيته..

وأضاء النور، وكانت المرة الأولى منذ زمن التي يشعر فيها بأن هذا البيت تسكنه الحياة..

رأى أثر الفوضى المحببة لطفله المحدات المناثرة والألعاب

التي ما عادت في مكانها..

اقترب من غرفته فكانت حبيبة القلب ورفيقة الدرب نائمة تحتضن طفلها.

حتى وهي لا تتذكره..

سيعرضها بكل تأكيد على طبيب نفسي غير أنه في هذا الوقت يشعر بأن من الأفضل لزينب أن تنفصل عن العالم.. فقط بشكل مؤقت حتى يجد ابنتهما..

وبعدها سيعمل كل ما بوسعه حتى يعيدها إليه..

نام المحقق (إبراهيم) بجانب زوجته وابنه، وشعر للمرة الأولى بالأمان..

***

كانت لجان التفتيش متوزعة في الشوارع، وفي ذلك الشارع الرئيسي وقف رجال الأمن يفتشون عن تلك الحافلة المشتبه فيها؛ إذ وجدوا حركة مريبة قدامهم، حركة تبعد عن نقطة التفتيش خمسة عشر مترا، ولما دققوا النظر؛ وجدوا حافلة صغيرة تحاول الالتفاف، اعتلت الرصيف وعادت من خلال الشارع الآخر، فاستنفر رجال الشرطة وعمموا عليها وبدأت مطاردة الحافلة التي أسرعت في الهروب، أكثر من أربع دوريات لاحقتها وتم التعرف عليها من خلال اللوحة ومن خلال علامة "الرشيدان" المتموضعة خلف السيارة، أمروا السائق بالتوقف لكنه لم يستجب، لم يراع أحدا من المارة فكل ما يهمه نجاة نفسه والتي لم تتم إذ ما لبث أن ركن السيارة على جانب الطريق وترجل راكضا يحاول الفرار؛ إذ نفد الوقود من الحافلة، طارده رجال الأمن وما لبثوا أن تمكنوا من إلقاء القبض عليه...

قادوه مكبلا إلى مركز الشرطة، وأبلغوا المحقق محمد بما حدث؛ فجاء على جناح السرعة وبدأ يستجوب المشتبه به، أخبره عن اسمه:

- ما اسمك؟

- راشد أحمد خلف.

سأله عن بعض البيانات المتعلقة به فاكتشف أنه يسكن في نفس البناية التي يسكن فيها إبراهيم، حاول الاتصال بإبراهيم، لكنه لم يجب فساوره القلق على إبراهيم، خاطب الموقوف بنبرة غاضبة:

- لماذا هربت من موقع التفتيش؟

تردد في الجواب: كنت... خائفا حيث كانت أوراق الحافلة منتهية.

- لا تكذب... أنت متورط في قضية أكبر... أخبرني ما علاقتك بالمشتبه به الذي يخطف البنات؟

بدى الارتباك جليا عليه حاول التملص: لا أعرف شيئا عنه.

حصره محمد في زاوية ضيقة: الكذب لن يفيدك، فقد تم التبليغ عن حافلتك، أبلغ المحقق إبراهيم أنه شاهدك قرب بنايته، ولما تقدم منك هربت.

وهنا وقعت عينا محمد على جرح في يد راشد فقال: من أين لك هذا الجرح؟

هم راشد أن يجيب، لكن محمدا قاطعه قبل أن يلفظ أي حرف:

- وإياك أن تقول إنك سقطت وجرحت يدك، تأكد أنني أعرف كل شيء عن هذا الجرح، والآن أجب ولا تكذب.

ارتج منطق راشد وتلعثم وهو يؤكد الكذب: كي... كيف عرفت؟ لقد سقطت على حجر فعلا...

- أنت اختطفت فتاة تدعى فاطمة وقاومتك متسببة لك بتلك الجروح أليس كذلك؟

- ها! حسنا أنا ساعدت عمارا في ذلك.

- أخبرني بالتفاصيل.

- كانت في مزرعة إبراهيم الذي غاب عنها يطارد عمارا حينها دخلت؛ كي أسحبها وأخرجها من المزرعة، لكنها قاومت ولم أتمكن من فعل ذلك ف...

صمت، فقال محمد: فأطلقت النار عليها؟

هز رأسه إيجابا: كان يجب إخفاء الأدلة.

- لا تبرر.

انهار الرجل إزاء تلك الحقائق التي واجهه بها محمد: أجل... أنا... ساعدت المستدرج في اختطاف الفتاة كنت...

قاطعه محمد: الفتاة أم الفتيات؟!

صمت هنيهة ثم صحح كلامه: أجل... الفتيات... كنت أساعده في مراقبتهن وتزويده بكافة المعلومات والتفاصيل المتعلقة بهن وبتحركهن.

هنا اتصل محمد على إبراهيم أكثر من مرة دون أن يجيب، تمتم بصوت مسموع: لماذا لا تجيب يا إبراهيم؟!

تدخل راشد بفضول: عفوا، ولكن إن لم يجب إبراهيم؛ فاعلم أنه في خطر.

اتسعت عينا محمد وغادر مسرعا يريد منزل إبراهيم.

***

استيقظ (إبراهيم) في اليوم الثاني على مداعبة خالد إياه.

فتح عينه والصغير يضحك له ويقول له:

- أريد السيارة الحمراء..

ضحك له (إبراهيم) وهو ما زال لا يصدق أن خالدا الآن معه، فقال في نعاس:

ART_OF_BOOK

- أنت لا تملك سيارة حمراء..

قال خالد بإلحاح:

- عمو (حسان) يملك السيارة الحمراء..

فقال (إبراهيم):

- اه.. إذا سنزعج عمك هذا الصباح..

تم انتبه (إبراهيم) لعدم وجود زينب بجانبه؛ فهب من مكانه وهو يقول:

- أين أمك يا خالد؟

فقال الطفل الذي كان يفتح الدرج ويعبث بمحتوياته:

- في المطبخ.

خرج (إبراهيم) من غرفة النوم متجها إلى المطبخ وهناك وجدها.. تفتح الدواليب في شرود، وتحاول أن تعرف محتويات هذا المطبخ الغريب..

كانت ترتدي كامل ثيابها وليست ملابس البيت..

اقترب منها فأجفلت وهي تبتعد.

قال لها بابتسامة جاهد أن يرسمها:

- أعلم أنك لا تذكرينني، وأعلم أنك تحتاجين مساعدة طبية من أجل هذا الأمر. لكنني زوجك يا زينب..

هزت رأسها في تردد وقالت:

- أعلم.. الصور في البيت تقول هذا.. ولكن أنا لا أذكر شيئا.. سامحني..

قال (إبراهيم) بتفهم:

- حبيبتي سأجعلك تتذكرينني.. دعيني أتفق معك على شيء.. لماذا لا أجعلك تقعين في حبي مرة أخرى.

@ART_OF_BOOK

قالها بابتسامة واسعة فبادلته بابتسامة خجول وقد أحمرت وجنتاها حرجا..

فشعر وكأنها زينب التي رأها أول مرة.. كانت تخجل منه بهذا الشكل تحديدا..

كاد أن يقترب منها أكثر غير أن صوت خالد من ورائه جاء غاضبا:

- أريد السيارة الحمراء..

نظر (إبراهيم) إلى خالد وقال له:

- حسنا دعنا نرى سيارتك الحمراء هذه ونزعج العم (حسان) في هذا الوقت من الصباح..

حمل (إبراهيم) ابنه، وتوجه لبيت جاره، وطرق طرقتين عليه..

بعد مدة طويلة فتح لهما (حسان)..

نظر إليه (إبراهيم) بوجه بشوش، ثم تجهم وهو يرى معالم الإرهاق واضحة على الرجل..

فسأله:

- ما بك يا عمي (حسان).. هل أنت بخير؟

قال (حسان) باقتضاب:

- لم أنم.. أشعر بالتعب..

رأى (إبراهيم) من خلفه العديد من الحقائب والصناديق:

- هل ستسافر يا عمي؟!

فقال (حسان) وهو يدخل إلى البيت ومن ورائه (إبراهيم) حاملا ابنه:

- أعتذر منك يا ولدي.. فهذه البداية ما عادت آمنة..

أنزل (إبراهيم) ابنه الذي جرى لغرفة داخلية يبحث عن السيارة الحمراء، أما (إبراهيم) فقال وقلبه مستاء بقوة من رحيل (حسان):

- ولكني قمت بالقبض على المجرم ليلة أمس.. وما عاد هناك خطر على البناية.

نظر له (حسان) وأطال نظره إليه ثم زفر بقوة:

- لقد قتل الرجل امرأة عجوز.. المرة القادمة قد يأتي لقتلي..

أشفق (إبراهيم) على الرجل الذي لملم أشياءه؛ لينج بنفسه وعاد ليقول:

- قد تم القبض على القاتل، ليس هذا فحسب، ولكنه قد يموت بين لحظة وأخرى.

ضيق (حسان) بين حاجبيه، واقترب منه وهو يقول:

- هل أصبته؟

جلس (إبراهيم) على الأريكة وهو يقول:

- ليس أنا.. بل الفتاة التي اختطفها.. هي من دلت عليه وهي من أصابته بسكين في عنقه.. وهو الآن يصارع الموت..

أيضا ظل (حسان) يتأمل (إبراهيم) دون تعبير، ثم قطع صمتهما صوت خالد الذي أتى فرحا من الداخل يحمل سيارة حمراء كبيرة..

نهض (حسان) من مكانه للمطبخ وهو يقول:

- سأدخل لأحضر للصغير بعض الحلوى..

ابتسم له (إبراهيم) ثم مد كفه ليملس على شعر خالد الأشعث..

تطلع إلى الصناديق التي ملأها (حسان) بأغراضه.. وزفر بضيق.. سيفتقد الرجل حقا إن غادر المكان..

ART_OF_BOOK

كان هناك صندوق صغير مفتوحا على محتوياته.. به بعض الأوراق والصور.. نهض (إبراهيم) بفضول وهو يرمي بنظره للعديد من الصور التي تحمل الوجوه المختلفة..

تناول واحدة وقد ميز فيها وجه (حسان) المبتسم..

ولكن يده قد قبضت على الصورة بذهول:

كان (حسان) بجانب المرأة التي عرفها على الفور..

إنها صورة لذات الجثة التي وجدها للمرأة العجوز..

وبجانبهما شابان.. أحدهما ينظر بثقة تملأ عين الصورة والآخر ينظر بجانب وجهه في انطواء..

هذا الوجه رغم أنه تشوه نصفه لاحقا إلا أنه أبدا لن ينساه..

تجمد (إبراهيم) تماما وكفه ارتعشت بقوة وهو يمسك هذه الصورة ويعرف منها

أن (حسانا) لم يكن إلا والد الكابوس الذي أرقه كل تلك المدة!

- أرى أنك قد وجدت صوري العائلية

كان هذا صوت (حسان) الذي جعل (إبراهيم) يُسقط الصورة من يده، ويلتفت بحدة إلى مصدر الصوت.. ما أن استدار إبراهيم حتى واتته ضربة قوية في رأسه أفقدته الوعي...

سقط إبراهيم لكنه بعد عدة ثوان بدأ شعوره يعود قليلا بحيث كان ما يحدث أمامه كحلم بعيد يراه ولا يراه، يدركه ولا يدركه وكأنه مخدر بنصف جرعة! أحس بشي يسحبه من قدميه إنه حسان، أراد النهوض لكنه غير قادر على ذلك، تناهى إلى سمعه صوت ذلك الممتل الذي أحبته والدته كان قادما من الغرفة المغلقة تلك، مر من خلالها ثم شاهد بابها يفتح ووجد وجها مألوفا يطل منه؛ إنه وجه أمه الحبيبة! ما إن شاهد ذلك حتى فقد وعيه بالكامل...

أحس بشيء بارد يداعب وجهه وصوتا بعيدا يطرق أذنيه: ألا

@ART_OF_BOOK

تريد أن تنهض؟!

فبدأ بالإفاقة وصوت حسان يطرق أذنيه كقارعة مرعبة: قلت لك انهض، ألم تشتق لأحبائك؟

عاد إليه وعيه بالتدريج ليصدمه المشهد إذ وجد حسانا واقفا أمامه، ومن خلفه شاهد أمه وزوجته مكبلتين في كرسيين وشاهد ولده خالدا يلعب بسيارته الحمراء في الغرفة الأخرى!

كان المنظر مريعا بالنسبة له، في البداية ظنه كابوسا جديدا ولد من موت الكابوس القديم! لكنه ما لبث أن علم أنه واقع مر يعيشه فعلا.. استفاق بالكامل ليجد نفسه مقيدا في كرسي أيضا وحسان واقف ولكن وجهه لا يعرب عن ذلك الوجه المريح وكأن وجها آخر انشق منه وحل محله؛ ابتسامة صفراء خبيثة وعينان غائرتان مليئتان بالحقد والضغينة والرغبة في الإيذاء والتشفي، انطلق صوته ممانعا الواقع: عم حسان لماذا هما مربوطتان؟!

زجره الرجل العجوز: لا تقل عم.. إنك عدوي الآن.. بل منذ زمن.

لم يفهم: ماذا تعني؟!

صمت قليلا ثم أضاف: هل.. أنت حقا والده؟!

قال حسان: أجل، والده ومساعده.. أو ربما هو مساعدي.. في الحقيقة لدينا مساعد.. ولكن الأمر المتيقن أنه لا يمكنك مناداتي بمساعده فأنا الرأس المدبر لكل شيء.

جاء صوته واهنا منكرا للحقيقة. لماذا؟

رد العجوز: أنت إذن تحب الدخول في صلب الموضوع مباشرة! لك ذلك.. إنك المجرم الحقيقي هنا يا إبراهيم.. أنت القاتل الذي لم يدنه القانون، المجرم الذي استغل القانون لينجو بفعلته، أما أنا فضحية.. مجرد ضحية أرادت الثأر لجراحها الكبيرة.. فهد.. جرحي الغائر الذي سببه.. لقد.. قتلت ولدي

فهدا في ذلك الحريق.

كانت ملامح إبراهيم تعرب عن احتقان، تذكر الأحداث المتعلقة بفهد والحريق الذي تسبب فيه، لطالما كان يؤنب نفسه بسبب الحريق ويشعر أن ذلك الحريق سيطارده إلى أخر العمر ازدرد ريقه وقال:

- فهدا ربما أكون من تسبب بذلك، ولكنه تاجر مخدرات بسببه مات الكثير من الناس، بسببه انتهيت حيوات كثيرة! كم عائلة افتقرت بسبب المخدرات؟! كم شاب قتل عائلته وهو يبحث عن مال لأجلها؟! كم...

قاطعه حسان: كفى، كفاك خطابات وعظية... انظر إلى وجهي هل أبدو لك كشخص يهتم بهؤلاء الأوباش من الفقراء؟ إنني من علمته التجارة وجعلته ينجح فيها، أنا من بنيت أسطورتي التجارية، وكونت إمبراطوريتي العظمى من دماء الأراذل، إنني أبيعها كي أصبح من أهل اليسار، وها قد أصبحت أغنى رجل في المدينة، هل تظنني أحفل بهم؟

كان إبراهيم في موقف ضعيف فبعد هذا الكلام أدرك أنه إزاء رجل حقير لا يجدي معه وعظ، لكنه ألقى بمحاولة جديده عله يزدجر:

- وماذا عن حياة الناس؟ كيف تهتم بنفسك ولا تهتم بهم؟

صفعه صفعة خفيفة: أظنك لم تستفق بعد... ليذهبوا إلى جهنم...

قاطعه إبراهيم هذه المرة: بل أنت من ستحترق في جهنم... لقد وثقت بك.

- إنك ترفض الإفاقة، أنا جعلتك تثق بي... أردتك أن تثق بي؛ كي أحقق مخططي في قتلك أيها الخبيث... أما ما تراه الان أمامك فهو أنا بحقيقتي... ما رأيته سابقا كان شخصا يمثل الدور أمامك مجرد ممثل بارع جعلته الرغبة في الانتقام

يتقمص ذلك الدور بكل تلك الحرفية- لم أعرف شيئا عن التمثيل حتى قتلت ولدي فصرت ممثلا بسببك- والآن انظر إلى نفسك- إلى عائلتك مصيرك بيدي- سوف أحرقك كما حرقت فهدا. أنت لم تقتل فهدا فحسب، بل قضيت على حياتي العائلية- بسببك طلبت زوجتي الطلاق وتزوجت رجلا أعمى لا يصل عشر رجولتي! ولكن قبل أن أحرق جسدك سأحرق قلبك- انظر إليهم، لعلي أجعلك تختار من تود أن أبدأ به أولا- هل ستفضل تأخير زوجتك أم والدتك أم ولدك؟! سوف أضمن لك شيئا واحدا فقط أن أجعل موتهم سريعا. ألا أدعهم يتألمون كثيرا. إنني لست مثلك فلقد جعلت ولدي يتألم في ذلك الحريق. لقد قتلته بأبشع طريقة وأكثرها إيلاما! لكنني سأضمن لك شيئا أخر أيضا أن أجعلك أنت من يتألم- أخبرني بمن أبدأ- دع بوصلة أخلاقك تختار- بين أم أنجبتك وكانت سببا في خروجك إلى الحياة لكنها مجنونة، وبين زوجة أشعرتك بحب لكنها مجنونة أيضا، وبين ولد صغير لم ير بعد الحياة-

كانت عيون إبراهيم منسابة بدموع صامتة وهو يصغي لكل ما يقوله حسان، جاء صوت واهن من أم إبراهيم: إبراهيم- الحبل- يؤلمني.

هتف إبراهيم لأمه: اصبري يا أمي سوف أنقذك.

ضحك حسان: من العجيب أنك ما تزال تلقي بوعود لن تتمكن من الوفاء بها! فكر بإنقاذ نفسك أولا-

صمت حسان وهو يراوح مكانه ثم عاد يستكمل فكرته: أقترح أن تؤخر خالدا وهذا هو الخيار السهل كما أرى فهو مجرد ولد- ولكن ربما يكون الأصوب أن تقدمه كي لا يشهد مقتل أحد قريب منه كأمه أو جدته... ربما موته أحسن طالما لم ير الوجه القبيح من الحياة بعد.

بالكاد نطقت شفتا إبراهيم بكلمة واحدة: أرجوك...

لم يستطع قول المزيد جاهد جدا وهو يضيف: ارحمني.

تنهد حسان منتشيا فتلك المرحلة التي أراد إيصال إبراهيم لها... أن يتوسل

- من الجيد أنك تتوسل، ذلك يثلج صدري يا إبراهيم... ولكنك لم تسمح لي حتى ببلوغ هذه المرحلة... لم تسمح لي بأن أتوسل من أجل حياة ابني كما تفعل! قتلته بأبشع طريقة... هل تعلم من هو فهد؟! إنه أذكى ولد ممكن أن تراه، أقوى شاب ممكن أن تقابله، أكثرهم وسامة، أزيدهم من كل صفة حسنة... مال جمال نضارة شباب صحة برا بوالديه... كان كل ذلك وأنت سلبتني إياه.

قالت زينب: أريد العودة إلى المنزل.

تقدم حسان من زينب وضربها بعقب مسدسه الأمر الذي أغضب إبراهيم فصاح فيه:

- لا تضربها أيها الحقير.

اقترب حسان منه وخاطبه: من الأفضل أن تقول لا تقتلها فالضرب شيء هين مقارنة بما أنوي فعله، اسمعني جيدا يا إبراهيم... أريد منك أن تقول لي أرجوك يا عم حسان اضربها ولكن أبق على حياتها.

لم يقل إبراهيم شيئا، فكرر حسان قوله وأكد رغبته بذلك: أنا جاد... قل ذلك.

لم يقل إبراهيم شيئا، جاء صوت أمه ضعيفا: إبراهيم إنني خائفة.

حينها هيأ حسان مسدسه على وضعية الإطلاق ووجهه إلى رأس أم إبراهيم تحت نظرات الخوف من الجميع: قل وإلا قتلتها

حتى خالد أحس بحركة مريبة فترك سيارته الحمراء ووقف ينظر من الغرفة الأخرى... كان إبراهيم يبكي بصوت عال لم يمكنه من الحديث... عد حسان... واحد... اثنان... و...

سوى صوت إطلاق النار تستقر الرصاصة في رأس المرأة العجوز وترديها صريعة. دارت عينا إبراهيم وهو يرى أمه صريعة، ويرى زوجته باكية، وولده وكأنه سيخر ساقطا، سيسقط كحجر قربها!

صرخ إبراهيم عاليا: كلا.. أمي.. سأقتلك أيها الوغد!

أمهلهم حسان دقائق معدودة حتى استوعبوا ما جرى، ثم شهر مسدسه أمام زينب وقال: والآن نفذ ما أمرتك.

هنا دخل خالد وهو يشعر بالخوف ويدرك أن هذا الرجل نفس الرجل الطيب الذي كان جزءا من خدمه وهو يقول: اترك أمي أيها الرجل العجوز.

لكن حسانا دفعه بعنف ليصطدم رأس الطفل بالجدار ويفقد الوعي. صاح إبراهيم: اتركه وشأني.. أرجوك.. إنه مجرد طفل صغير.

رد حسان: سيأتي دوره.. والآن نفذ ما أمرتك به

قال إبراهيم بصوت ضعيف: اضربها

قال حسان: لم أسمع

قال إبراهيم بصوت أعلى: أرجوك اضرب زوجتي.. ولكن أبق على حياتها

حينها تقدم حسان من زينب وضربها بالمسدس لتفقد الوعي

قال: أحسنت يا إبراهيم بدأت تفهم أنني السيد هنا والآمر الناهي.. يجب أن تتعلم أن من يمتلك المسدس هو السيد دوما!

مرت دقائق قال حسان بعدها: أعتقد أنني مللت من الأمر.. سوف أنهي الموضوع الآن وأعود إلى الأعمال التي أنشأتها.. قصري ينتظرني بدلا من هذه الشقة الحقيرة التي أجبرتني على سكناها

قال وقد شهر مسدسه في وجه زينب الفاقدة للوعي

- سأقتلها، ثم سأقتل الولد، وأخيرا سيحين دورك.. أتدري لعلي أبقي على حياتك بعد أن أدمر روحك بقتل جميع عائلتك.. ربما أقتل أخاها أيضا أعلم أنك لا تحبه.. أخبرني هل يوجد مزيد منكم؟

لم يجب إبراهيم فقد كان ما شاهده كفيلا بتحطيمه بحيث يفقد الشعور بما حوله ومن الجيد أنه لم يفقد عقله بعد، لكن حركة قادمة من الخارج جعلت حسان يتوقف، صوت طرقات على الباب أشار حسان لهم بالصمت، جاء صوت محمد:

- أفتح الباب وإلا كسرته أعلم أنك بالداخل يا حسان وأعلم أن إبراهيم تحت قبضتك، المكان محاصر.

صرخ إبراهيم: اكسر الباب يا محمد.

هنا بدأ الباب بالتصدع وغارت عينا حسان الذي بدأ يبحث عن مهرب، لكن اقتحام محمد ورجال الشرطة كان أسرع من هروبه فلم يجد بدا من شهر سلاحه في وجه الطفل المرمي على الأرض، دخل محمد ومجموعة من رجال الشرطة هتف حسان بهم: سأقتله.

تجمد الرجال، وقال محمد: ارم سلاحك وستحصل على محاكمة عادلة.

رد بصلف: قلت لك سأقتله، إما حياة كاملة وإما موت شريف.

حينها أحس حسان أن الموضوع منته فلا مهرب أمامه، أراد إطلاق النار شعر محمد بذلك، وضع حسان إصبعه على الزناد وأطلق لكن طلقته زامنها عشرات الطلقات الصادرة من أسلحة العسكر حيث مزقت جسد حسان، أما طلقة حسان فطاشت واستقرت في جانب رأس خالد!

لم يكن إبراهيم مستوعبا لما رأه! لم يصدق أن الذي حدث كان واقعا حيا، ظنه كابوسا ما من تلك الكوابيس التي تراوده في بعض لياليه، ولكن حينما فك وثاقه هرع مسرعا إلى

ART_OF_BOOK
@ART_OF_BOOK

الجنتين الملقاتين يراوح بينهما بعينين جاحظتين وقلب واجف عله يتيقن من أنه في كابوس، لكنه ها هو ذا يتلمس الجسدين دون أن يستفيق من النوم! إذن هذا واقع! لكنه واقع أليم لا يمكنه احتماله، لم يكن يبكي؛ لأنه ببساطة لم يستطع البكاء! الصدمة شلت عضلات وجهه واستقرت في قلبه بطريقة مريعة بحيث لا يمكن لأي رد فعل جنائزي أن يصور حقيقة ألمه وحزنه وما يتنازع روحه من مشاعر... أحس أنه بات جثة هامدة ثالثة لكنها تتحرك... ميت يمشي على الأرض! حينما ضم جسد أمه انغالت جميع الذكريات على قلبه وحينما ضم جسد ولده أحس بحتمية العدم، عم الظلام أرجاء روحه، صار لا يرى ولا يسمع شيئا! المحققون الذين يحيطون به مجرد أشباح سوداء تمشي بالحركة البطيئة، الأصوات التي تقرع مسامعه مجرد صدى بعيد يتردد في الفراغ، وكأنه غارق في الماء يسمع الأصوات باهتة مشوهة غير مفهومة، حتى حمله محمد من إبطيه وطلب منه المغادرة، بل أجبره على الخروج، اقتاده للخارج قسرا، جلس في سيارة الإسعاف مفتوحة الباب يراقب بصمت وسهوم يرى كيف ينقل رجال الإسعاف الجثث الثلاث وكيف يصطحبون زينب لا يعلم إلى أين يأخذونها؟! وكما يبدو أن حسانا صدق في تهديم أسرته وتقويض حياته فها هو الآن مجرد ركام رجل، بقايا رماد مذروة مع الريح، أغمض عينيه غاب عن المشد أو غاب المشهد عنه فقد الإحساس واظلم كل شيء!

***

قصة الكاسكو

ART_OF_BOOK

كنا أنا ومحمد نتردد كثيرا إلى سوق شعبي يدعى "سوق الجمعة". سألني محمد وهو يشير إلى غسالة ملابس قديمة الطراز. شف ذي الغسالة كني بشتريها

سحبته من ردائه وقلت: شلك ابها ذي شوي وتطلبك الحل. بعدين أنت شقاصرك حتى تشتري مستعملة خذ لك جديدة.

- جديدة؟!

- أي بقراطيسها.

- والله معاك حق القديمة ما تنفع يوم يومين وتخترب.

أجد سعادة غامرة في زيارة مثل تلك الأسواق الشعبية التي تغص بالناس البسطاء الذين يحملون آمالا بسيطة: فواحد يروم شراء جهاز تكييف مستعمل فلا قدرة لديه لشراء جديد، وآخر يعرض بضاعته البالية ويغالي في ثمنها وكأنها نادرة من النوادر النفيسة التي حقها أن تعرض في مزاد علني في باريس أو روما لا في سوق شعبي وما كان ليعرضها هنا حسب ادعائه لولا الحاجة وقلة ذات اليد، شاب ثالث يصدح بصوته الصاخب يحزج على أجهزة منزلية مستخدمة بنصف عمرها الافتراضي والزذاذ يتطاير على الزبائن من فيه.

أتذكر ذلك المشهد جيدا حينما دخلت مع محمد في محل شعبي يبيع كل شيء، وأتذكر ذلك الطائر الجميل من فصيلة "الكاسكو" والذي يتحدث بطريقة تبث الأنس وترسم الضحكة، ولا يمكنني نسيان ذلك الموقف حينما سمعنا "الكاسكو" يردد عبارة "حرامي... حرامي" وما أن التفتنا حتى وجدنا السارق يحمله بقفصه، ووجدنا صاحب المحل يلتفت ليباغت بالرجل وهو يجري حاملا القفص وما حوى، والكاسكو الناطق ما فتئ يردد كلمة "حرامي..." حتى لفت إليه الأنظار، وبحسي البوليسي وجدتني أطارده دون تفكير وكأنني في مزمار سباق أروم نيل الجائزة الأولى! ولعلي كنت أختبر لياقتي حينئذ،

@ART_OF_BOOK

ولان ذلك اللص كان سمينا ذا كرش عريضة رابته يذبحها أمامه كجبال عظيمة، فلم تكن مسألة الإمساك به لتمثل بالنسبة لي أكثر من تسلية أحوضها. حاول محمد منعي بحجة ألا علاقة لنا بكل ذلك، لكنه لم يجد مني غير الأذن الصماء، واصلت الركض ولكن... بخلاف تكهناتي لم تكن مهمة إيقاف الرجل السمين بالمهمة السهلة فقد أظهر سرعة في الجري عجيبة لا يعرب عنها شكله الأسطواني غير أنني تمكنت منه بعد طراد دام خمس دقائق، كنا نشق فيه جموع الحضور كما تشق السفينة موج البحر، لما ألقيت القبض عليه حاول المقاومة وكاد يفلت لولا تدخل بعض من سمع "الكاسكو" يفضح الرجل بكلمة "حرامي" فطوقناه وأخذناه إلى صاحب المحل، أعدنا الطائر الجميل إلى مكانه، حينها هجم صاحب المحل على السمين وهو يقول بغضب: يا السروقي... تبي تبوقني والله لأوريك بدروبك يا الكلب.

حاولنا أنا ومحمد استنقاذ الرجل من برثن الموت، قلت: تركه عنك خلاص سامحه، طيرك ورجع لك.

أبى السماح: والله ما أسامحه إلا أجرجره في المحاكم وقدام القضاة والمحلفين.

كتمنا ضحكة ساخرة أنا ومحمد وقال محمد ساخرا: وأنا بشهد لك يا الطيب.

رد ممتنا: جزاك الله خير، أجل مشينا.

إبراهيم: وين؟

البائع: عالمحكمة.

محمد: الله يهديك أي محكمة تفتح يوم الجمعة؟

تنبه للأمر فتغيرت ملامحه وهدأ قليلا: أي صح، عدل كلامك أجل شالسواة؟

محمد: أنا أقول خلاص سامحه

بغضب قال البائع أسامحه لا ما أسامحه. دريت شلون أنا بخليه عندي لين تفتح المحكمة.

إبراهيم ما يصير تخليه عندك يومين بيخيس!

رد: ما علي منه خله يخيس. هو خايس من الحين.

حاولت تخويفه بقولي: أي بس كذا أنت بتعتبر خاطف وبتنقلب ضدك السالفة.

كان الرجل بسيطا بحيث كل كلمة منا تأخذه باتجاه آخر، ومن بساطته لم يخطر بباله أنه يمكنه أخذه إلى مركز الشرطة. لذا قررت إنها الأمر، فقلت: تدري شلون يا الحبيب مو الطير ورجع لك؟

رد: أي صحيح.

قلت: أجل خلاص ما لك شي عنده يعني الرجال ما يعتبر باق منك شي.

انطلت عليه الحيلة فصدقها وأفلت الرجل وأنشأ يقول: أي عدل، أجل شف يا السروقي إن شفتك توطوط في هالسوق لأحش رجولك حش، تسمع وولا لا؟

لكنه انكفأ مترددا وعاد يمسك بالسارق. وكأنه تذكر شيئا، وقال: تعال، الحين طيري من بيشتريه بعد اللي صار؟

كان الطائر يردد "حرامي..."

خاطبه محمد: خلاص رجعناك يا مستر كاسكو

لكنه لم يسكت.

قلت بدوري: عادي يشترونه

أصر بقوله: لا محد بيشتريه

قلت: ترى طيرك حاولوا يبوقونه ما حاولوا يقتلونه عادي يشترونه

ART_OF_BOOK

لكنه رفض الإصغاء: لا لو قالتيله أهون أحس شمسكته!

تدخل محمد فاضا النزاع .دريت شلون خلاص أنا باخذه.

قال البائع وهو يصافح محمدا: على سنة الله ورسوله.

قلت: ترى بيشتريه مو بيتزوجه.

قال: اسف خذني الحماس، يلا نق خمسة الاف.

صدم محمد من السعر: من صجك خمسة الاف.

قال: أجل ها؟ هذا كاسكو مكلماني مب لعبة.

محمد: لا حول كني توهقت، أقول أنا بعطيك ثلاثة بس وقل تم.

رد: رح بس لقح النخل، يقول ثلاثة! شنايفني أبيع بقصم؟!

محمد: كم حدك؟

تدخلت: خله يولي من صجك بتشتريه؟

قال: خلك محضر خير.

قال محمد: أنا من زمان خاطري بطير مثله.

قال: قلت لك خمسة ريال ينطح ريال.

محمد: يبن الحلال أربعة وخلصنا.

- امعصي.

- غير بذل.

- ما أغير ولا أبذل.

- دريت كسكوك عندك ورح اشتك ولاني بشاهد لك.

قال محمد ذلك وأدار ظهره لكن البائع تغيرت ملامحه، وبدا يستجدي منه العودة: خلاص خلاص يا الطيب بعتك

اشترى محمد الكاسكو وأنا أقول كنه قص عليك؟

@ART_OF_BOOK

سمعني فقال: الله يرحم والديك حلك محصر خير.

قلت: وأنا صب محضر خبر! من رجع لك الطير غبري يا الحاحد؟ على طول نكرتني!

قال بصلافة: أنا ما قلت لك لحقه لا تقعد تمن علي.

حملنا الطائر بعدما سلمه محمد المبلغ وهممنا الرحيل وبمجرد ما فتحنا باب سيارتنا حتى صاح الطائر "حرامي حرامي.." التفت الناس إلينا بنظرات ريبة لكننا أسرعنا في ركوب السيارة والرحيل قبل أن يسبب لنا هذا الكاسكو بعض الفضائح.

كان موقفا ظريفا أخرجنا من أجواء التحقيق القاتمة وجعلنا نقضي بعض الوقت بعيدا عن... مأساتي.

تمت

محررة الرواية:

لدى منير عبدالعزيز

مراجعة الرواية:

من قبل الكاتب الروائي/ حسن الحجي